

رسائل من تركيا (١٧١٦ - ١٧١٨)

المكتبة
الأدبية
للشامة



المشروع القوم للترجمة

تأليف: ليدى ماري وتلى موننجو

إعداد وتقديم ومراجعة: فاطمة موسى

ترجمة: إيزابيل كمال

1036

استطاعت ليدى مارى وتلى مونتجو دخول البيوت التركية والتقت بالسيدات فرأت وعرفت ما كان - حسب قولها - يستحيل على غيرها من الرحالة أن يعرفوه من عادات وتقاليده وأسلوب العيش والحياة التى تحياها المرأة المسلمة التركية فى القرن الثامن عشر، وكانت ليدى مونتجو على درجة عالية من الثقافة والمعرفة وبعد الرؤية بدرجة سابقة لبنات عصرها فوصفت بشكل حياى يخلو من الكره والتحيز ضد المسلمين ومن وجهة نظرها أن المرأة المسلمة كما رأتها فى القرن الثامن تستمتع بحرية لا تحصل عليها المرأة الأوروبية غير المسلمة ، ومن هذه الرسائل نرصد تنوع ثقافتها وتنوع أصدقائها ، وهى ترسل لكل منهم المادة المناسبة لاهتماماته ، وترسل للنساء وصف تفصيلى للملابس والحلى التى تتزين بها المرأة وتصف البيوت من الداخل والخارج كما ترسل لأصدقائها المثقفين ومنهم الشاعر ألكسندر بورسائل تتحدث عن موضوعات أخرى مثل فن المعمار وغير ذلك مما يهتم به الشعراء .

وتقول ليدى مونتجو : إنها لم تستغل الميزة التى يتمتع بها الرحالة من كذب وخيال واكتفت فقط بذكر الحقائق، ورأت أن الحقيقة فيها ما يكفيها من جمال وليست فى حاجة لإضافات من الخيال .

والكتاب فى مجمله يقدم لنا صورة متعددة الأوجه عن الحياة فى الدولة العثمانية فى القرن الثامن عشر .

رسائل من تركيا
(١٧١٨ - ١٧١٦)

المشروع القومي للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٠٣٦
- رسائل من تركيا
- ليدى مارى ورتلى مونتجو
- فاطمة موسى
- إيزابيل كمال
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب :

Letters From Turkey

(1716 - 1718)

by lady Mary Wortley Montagu

edited by Fatma Moussa

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084.

رسائل من تركيا

(١٧١٦ - ١٧١٨)

بقلم : ليدي ماري ورتلي مونتجو
إعداد وتقديم ومراجعة : فاطمة موسى
ترجمة : إيزابيل كمال



بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

مونتجو ، ليدى مارى ورتلى

رسائل من تركيا بقلم : ليدى مارى ورتلى مونتجو، إعداد وتقديم
ومراجعة ، فاطمة موسى ، ترجمة : إيزابيل كمال .

- ط ١ - القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦

٢٣٢ ص ، ٢٠ سم

١ - الرسائل التركية .

(أ) موسى ، فاطمة (معد ومقدم)

(ب) كامل ، إيزابيل (مترجم)

(ج) العنوان ٨٩٤/٣٥٦

رقم الإيداع ٢٠٠٦ / ١٩٥١٣

الترقيم الدولي 5 - 977-437-046 I.S.B.N.

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات
والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها
هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى
المجلس الأعلى للثقافة .

مقدمة

شهد مطلع القرن الثامن عشر تزايد أعداد الأوروبيين القادمين لزيارة الإمبراطورية العثمانية. هناك السفراء الذين وفدوا من قصور الحكام الأوروبية تتبعهم أعداد غفيرة من الحاشية، وكذلك التجار من كل القوميات، يعملون تحت حماية هذا السفير أو ذاك، وجميعهم لديهم أشغال فى القسطنطينية، مركز الإمبراطورية العثمانية الشاسعة. كانت الأعداد كبيرة، مما جعل المستعمرين الفرنجة يعيشون فى مدينة منفصلة تضم ثلاث ضواحي صغيرة هى بيرا وغلطة وطوفانا. صارت بيرا فى القسطنطينية فى بداية القرن الثامن عشر أشبه بمدينة بابل (تركية أفرنجية)، حيث ترتدى النساء الحجاب بشكل لم يكن مسموحاً به فى القسطنطينية " بهدف إظهار جمالهن".

امتدت سلطات الخليفة العثمانى فى أنحاء أوروبا وأسيا وأفريقيا. ومثلت جيوشه تهديداً متواصلاً لجيرانه من الألمان ، والروس ، والبولنديين. واصطدم أسطول البحرى بالملاحه فى البحر المتوسط لدرجة كدرت الجمهوريات التجارية الإيطالية ، وطلب مساعدوه السيطرة على الطرق البرية المؤدية إلى البقاع الثرية فى أقصى الشرق حيث كان الإنجليز والفرنسيون والهولنديون يلعبون دوراً خطيراً فى مجال التجارة.

تقدمت القوات التركية فى أوروبا تقدماً كبيراً حتى بلغت أبواب فيينا. بدأت فترة التدهور العثمانى الطويل الذى امتد أكثر من قرنين من الزمان بالخيبة التى مُنيت بها قواتهم على أبواب فيينا فى ١٦٨٣ ، ولم ينته ذلك إلا بمعاهدة لوزان فى ١٩٢٣.

على الرغم من أن انتصارات الأمير يوجين التى أدت إلى معاهدة سلام كارلوفيتز ١٦٩٩ ، و على أساسها تم ضم كل من المجر وترانسلفانيا إلى الصرب، وكل من بودوليا وأوكرانيا إلى بولندا، فإن تركيا ظلت عدواً مرعباً لكل العالم المسيحى فى الغرب.

فى عام ١٧١٦ أُعتبرت الرحلة البرية من إنجلترا إلى تركيا عملاً بطولياً فذاً، فقد استغرق سفر السيد ورتلى مونتجو السفير الإنجليزى إلى الباب العالى فى عاصمة الإمبراطورية العثمانية وبصحبته زوجته وحاشيته بأعدادها الكبيرة ما يقرب من ستة شهور ليصل إلى بيتر واردين وهى أقرب بلدة تقع على الحدود بين أراضى النمساويين والأتراك (يوغوسلافيا الآن) التى استولى عليها النمساويون تحت لواء الأمير يوجين قبل ذلك ببضعة شهور (١٧١٦). مكث السفير وزوجته بعض الوقت فى فيينا واستضافهم البلاط الإمبراطورى. كان أرشيدوق النمسا باعتباره إمبراطوراً على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة التى تدافع عن أوروبا ضد الأتراك. ساعد شكل الحياة التى عاشتها ليدى مارى فى البلاط الإمبراطورى على تمكثها من وصف الأرستقراطية التركية. حيث لم تؤثر أعمال الحرب المندلعة بشكل متواصل على الحدود

الأمامية بدرجة تفسد أشكال المتعة العادية فى كل من العاصمتين المسيحية والمسلمة.

فى وقت كانت فيه وسائل الاتصال حتى بين البلدان المتجاورة شديدة البطء وخطرة ومكلفة مادياً ، مما جعل معظم أفراد الشعب الإنجليزى يجهلون أنماط حياة ولغات جيرانهم الأوروبيين وأحوالهم العامة ، كان على المسافر نشر وصف لسفرياته والعجائب التى رآها بأمر عينيه. واعتمد كثير من الرحالة على جهل جمهورهم الشديد فى الاستعاضة عن نقص تجاربهم بحرية الابتكار والتلفيق. أَرْضَى الكثير منهم ذاته بحكى ما سمعه من رحالة آخرين أو حكى قصص عن نصوص مطبوعة غير موثوق فى صحتها.

ومكذا وجد كثير من الرحالة من الضرورى دحض أوتصحيح أو الإضافة لتلك المعلومات التى نشرها مسافرون قبلهم، ففي العقود الأولى من القرن الثامن عشر أُتِيح للقليل من الرحالة الأوروبيين أن يكونوا فى وضع يسمح لهم برواية معلومات صحيحة عن الحياة التركية، فهناك حواجز اللغة والدين وتاريخ الحروب الصليبية بين الأوروبيين المسيحيين والشرقيين المسلمين بوجه عام.

ربما كانت ليدى مارى ورتلى مونتجو (١٦٨٩ - ١٧٦٢) أول امرأة إنجليزية تنفد إلى المساجد وميادين مدينة القسطنطينية الجميلة والعاصمة الرئيسية لتركيا الكبيرة ، وهى كشخصية واسعة الخيال

وزوجة لسفير من بلاط سانت جيمس ، تمتعت بالامتيازات التي خولت لها زيارة حريم الوزراء وغيرهم من كبار رجال الدولة.

زارت الحمّامات التركية التي تتردد عليها معظم نساء الطبقة الأرستقراطية في العاصمة التركية وربما لهذا لم تقع فيما أطلقت عليه "امتياز الرحالة أي الكذب".

وربما كانت عيناها على إعلام المستقبل وهي تكتب تلك الخطابات التي أرسلتها إلى وطنها في أثناء مزاولة زوجها لعمله كسفير. علاوة على ذلك، كانت النسخة التي تم إعدادها في حياتها ونُشرت لأول مرة ضمن مجموعة من خطاباتها الأخرى في عام ١٧٦٣ معدة للنشر على يد إحدى الكاتبات أو شخص ما يعمل لديها. أدمجت عدداً من الرسائل في خطاب واحد لتفادي التكرار الممل والتركيز على تنوع الاهتمامات بشكل أساسي، وقدمت هذه الخطابات في شكلها الأخير صورة كاملة ومتنوعة من الحياة التركية.

تمثل قراءة تلك الخطابات متعة طيبة بسبب وصفها لمجتمع النساء الأرستقراطيات في العاصمة التركية، في وقت كانت فيه كل ثروة وجمال الشرق تصب في مدينة العثمانيين العظيمة. ولدى مقارنتها بكتب الرحلات الأخرى التي كُتبت في القرن الثامن عشر، المثقلة بعبارات متناثرة مقتبسة من اللغات القديمة أو نصوص الكتاب المقدس، ندرك أن رسائلها قد صيغت بلغة حميمة ، ووصفت أناساً حقيقيين يعيشون

محاطين بالبهجة والجمال بأسلوب عذب وطلق مما أضفى على قراءة الكتاب إحساساً بالراحة.

كانت ليدى ورتلى مونتجو على غير العادة بالنسبة لعصرها ، واسعة الثقافة ، لطيفة المعشر. تقدر الأعراف الغربية للبلاد الأجنبية، رأت الكثير مما راق مزاجها على عكس الكثيرين من أبناء بلادها لم يروا شيئاً أكثر من موضوعات تثير عندهم الكراهية . على رغم من أن مشاهداتها كانت محدودة بالطبقة الاجتماعية التى استطاعت التحرك داخلها فإنها وصفت ما شاهدته بتقدير وعدل واضح. ويعد دورها فى إقناع السلطات بإقرار الطريقة التركية فى التطعيم دليلاً على قوة شخصيتها وسلامة فطنتها.

حصلت ليدى ورتلى مونتجو على قدر وافر من التعليم سابق عصرها بالنسبة لبنات جنسها فى ذلك الوقت. فقد كان مسموحاً لها وهى بعد فتاة صغيرة بالاستعارة من مكتبة والدها الفاخرة. درست اللغة اللاتينية واكتسبت القدرة على الترجمة ونظم الشعر بسهولة ويسر مما أهلها لصداقة بعض الشخصيات الأدبية المرموقة فى عصرها. بذلت جهداً عظيماً لتوثيق معرفتها بإديسون وجاريك وعلى وجه الخصوص ألكسندر بوب (رغم أنهما تخاصما فيما بعد وظلا على خصامهما حتى نهاية حياتهما).

قدمت ليدى مارى ورتلى مونتجو نفسها كخبيرة ماهرة فى فن كتابة الرسائل. خففت من حدة الموضوعات المكتوبة وفقاً لاهتمامات من

تكتب إليهم. كتبت إلى شقيقتها (كونتيسة دى مار) عن النظام المنزلى لقصر السفارة الذى تعيش فيه، وعن أخبار عائلتها ، وعن خبرتها مع البيوت التركية وسكانها من الداخل. كتبت إلى أميرة ويلز عن فقر رعايا الملوك الأجانب ، وعن الصعوبات التى واجهتها فى طريقها والصعوبات التى واجهتها بسبب حماس زوجها فى خدمة جلالة الملك ، وكتبت إلى زوجات معارفها تصف الحمّامات التركية، والأسواق ، وغير ذلك من الأمور التى تثير اهتمامهن، مثل المجوهرات والنفقات الباهظة التى اعتادت عليها السيدات التركيات.

إلا أن رسائلها إلى بوب والأب كونتى أبرزت شكلاً مختلفاً من الاهتمامات؛ فقد كتبت إلى الأب كونتى عن عادات الأتراك، وشئونهم السياسية والدينية. أما الشاعر فكتبت له عن الأدب خاصة الشعر والارتباط الوثيق بين الطبيعة وسلوك الريفيين وعاداتهم وعن شعر هوميروس الذى ترجم له بوب بعد ذلك ملاحمه.

مثل غيرها من الرحالة الإنجليز فى القرن الثامن عشر زارت ليدى مارى أماكن عديدة وكتابات هوميروس فى يد والإنجيل فى الأخرى. أمعنت النظر وتأملت أساساً فى وصف التدايعات والخواطر التى أثارتها لديها الأماكن التى زارتها ووجدت ارتباطاً أو علاقة ما بينها وبين الأدب الكلاسيكى وتعاليم الإنجيل. حاولت إظهار اهتمامها بالتحف وتجشمت عناء وصفها إذ قد يكون لذلك صدى من الاهتمام لدى أصدقائها المثقفين. ولعل انحصار رسائلها فى مخاطبة أشخاص من عليّة القوم خلف لنا كتاب رحلات من طراز يمتاز على كتب رحلات القرن

الثامن عشر المحترفة. من حسن الحظ أن دائرة معارفها كانت أكثر اتساعاً مما أُتيح لغيرها وعاشت رسائلها على مر الزمن ليس فقط بسبب وفرة المعلومات التي قدمتها بل بسبب توفيقها بين المرح المفعم بالحيوية والعقل المثقف والذوق الرفيع.

د. فاطمة موسى

إلى الكونتيسة (مار)

روتردام،

الجمعة فى الثالث من أغسطس ١٧١٦

يسرنى يا شقيقتى العزيزة أن أخبركِ أنني عبرتُ البحر بأمان رغم هبوب عاصفة لسوء الحظ. أقنعنا قبطان اليخت بالبقاء على السطح فى هدوء، وزعم أنه ليس هناك ما هو أسهل من عبور المد، لكن بعد يومين من الحركة البطيئة، هبت الريح بقوة شديدة، لدرجة أن البحارة فقدوا توازنهم، وكانت ليلة الأحد، وجميعنا نرتدى أفضل ما لدينا من ملابس على عجل. لم أر فى حياتى رجلاً مرعوباً أكثر من القبطان!!

فيما يتعلق بى، كنت محظوظة، فلا عانيت من الخوف ولا من دوار البحر، ومع ذلك أعترف، أنني كنت متلهفة أن أرى نفسى على اليابسة مرة أخرى، لدرجة أنني لم أستطع البقاء حتى يصل اليخت إلى روتردام، بل ذهبت فى مركب طويل إلى هيلفويتسليز حيث حملتنا العربات إلى بريل.

فتتنتى نظافة تلك البلدة الصغيرة، لكن وصولى إلى روتردام
منحنى مشهداً آخر من السعادة. كل الشوارع مرصوفة بأحجار
عريضة، وأمام أبواب أصغر الورش توجد مقاعد من الرخام بألوان
مختلفة، شديدة النظافة . أؤكد لك أننى سرت بالأمس فى معظم البلدة
تقريباً ، متخفية، ليس فى قدمى إلا خف، ولم تتسخ قدمائى ببقعة
صغيرة من الطين، وقد تشاهدين الخادمت يغسلن أرضفة الشوارع
وهن أكثر انكباباً على عملهن مما تفعله خادمتنا فى غرف النوم. تكتظ
البلدة بالناس، بوجهه نشطة، الجميع يتحركون لدرجة أننى لا أتصور أن
ذلك ليس احتفالاً أو مناسبة ما، لكن ذلك يحدث كل يوم. من المؤكد أنه
ليس فى العالم بلدة أكثر ملائمة منها للتجارة. هنا سبع قنوات طويلة،
تسير على مياهها سفن التجار حتى تقترب بهم من أبواب منازلهم.
الحوانيت والمتاجر تثير الدهشة بنظافتها وروعته، مليئة بكميات لا
تصدق من البضائع أرخص بكثير مما نراه لدينا فى إنجلترا، لم أقتنع
بسهولة بأننى لازلت قريبة جداً منها. هنا لا ترين القذارة ولا المتسولين.

لا يصدم المرء برؤية أولئك المقعدين الذين تعافهم النفس، ذلك
المشهد المألوف فى لندن، ولا يضايقك إلحاح الكسالى العاطلين أو
نبيغايا وقد اخترن الشر والكسل. الخادمت العاديات والعاملات فى
الحوانيت هنا أكثر نظافة ورقة من معظم سيداتنا الراقيات، وذلك التنوع
الكبير فى الأثواب النظيفة (جميع النساء يرتدين غطاء الرأس يتناسب
مع ملابسهن) مما يمنح المزيد من السعادة لمن يرى المدينة.

كما ترين يا شقيقتى العزيزة حتى الآن لا أتذمر ولا أشكو ، وإذا استمرت رغبتى فى الترحال كما هى الآن لن أندم على مشروعى . وسأمضى فيه إلى أبعد درجة ممكنة لكى أشعر بالرضا عن نفسى، إذا استطعت أن أسليك وأمتعك. لكن ليس من هولندا التى لا بد أنك لا تتوقعين منها موضوعات تثير اهتمامك. بمقدورى أن أكتب لك الكثير عن نمط العيش فى روتردام لأقول لك بوضوح، وفى كلمة واحدة أتوقع منك أن تكتبى لى بالمقابل عن كل أخبار لندن. ترين أننى بالفعل تعلمت القيام بصفة طيبة، ولا يوجد شيء بلا مقابل .

شقيقتك المخلصة

* * *

إلى السيدة س — سميث

لاهاى ٥ أغسطس ١٧١٦

أكتبُ إليك فى عجالة، يا سيدتى العزيزة، لأخبرك، أنه بعد كل المتاعب الخطيرة التى حذرتينى منها، أنا حتى الآن سعيدة برحلتى وأستمتع بها. لقد وضعنا فى اعتبارنا السفر على مراكب قصيرة كل يوم، لدرجة أننى أنا نفسى أتصور أننى أستمتع بعدد من الرحلات ولست على سفر، ومن المؤكد أنه لا شيء يفوق متعة السفر إلى هولندا. فالبلد كلها تبدو كحديقة كبيرة، كل طرقها ممهدة ، تظللها على الجانبين

صفوف الأشجار، وتحيطها القنوات الممتدة، مليئة بالقوارب الكبيرة، تروح وتجيء فوق مياهها. كل عشرين خطوة تجدان أمامك قبلاً، وكل أربع ساعات تمرين ببلدة كبيرة، نظيفة لدرجة الإبهار. أنا واثقة أنك لو كنت معنا لافتتنت بها. أكتب لك الآن من واحدة من أجمل قرى العالم. بها كثير من الميادين الرائعة محاطة بالأشجار الضخمة الكثيفة. والميادين هنا تشبه كثيراً حديقة هايدبارك، وكذلك الأسواق الكبيرة التي يتردد عليها علياء القوم، حيث يستمتعون بالهواء الطلق سيراً على الأقدام أو في مركباتهم. هناك متاجر متخصصة في بيع رقائق البسكويت والمشروبات الطازجة وغيرها ...

لقد شاهدت عديداً من الحقائق أكثر شهرة، لكنني لن أضايقك بالإسهاب في وصفها. لأنني واثقة أن خطابي طال بما يكفي. لكن لا يمكن لي أن أختمه دون أن أعذر لك لعدم طاعتي لأوامرك، بإرسال قطعة قماش الدانتيل التي طلبتها مني. وأقسم لك أنني لم أجد هنا شيئاً يختلف عما في لندن، على وعدى لك بإرسالها لكنني لم أجد حتى الآن شيئاً يختلف عما يمكن أن تشتريه من لندن بثمن أرخص. إذا كنت تريد أي منتجات هندية فهذا كثير منها بأثمان زهيدة.

أما عني فأعذك أنني سأتابع أوامرك عن طيب خاطر وبدقة متناهية.

* * *

إلى الكونتيسة بريستول

نورمبرج ٢٢ أغسطس ١٧١٦

بعد خمسة أيام من السفر السريع لن أتمكن من الجلوس لكتابة هذا الخطاب فى مناسبة أخرى لكى أخبرك سيدتى العزيزة أننى لم أنس أوامرك التى تفضلت علىّ بها بإرسال بعض أخبار رحلتى لك.

لقد مررنا بجزءٍ كبيرٍ من ألمانيا وشاهدنا أكثر معالم كولونيا وفرانكفورت وفورسبرج وهذا المكان ! ومن المستحيل على المرء ألا يلاحظ الفرق بين البلاد الحرة وتلك القابعة تحت نير الحكم المطلق لشرزمة من الأمراء، مثل الأمراء المسيطرين على المقاطعات الصغيرة فى ألمانيا. فى النوع الأول تتوافر الحياة الاجتماعية والتبادل الفكرى والتجارة، الشوارع مرصوفة جيدا وعامرة بالبشر على درجة عالية من النظافة وحسن الذوق فى الملبس. المتاجر عامرة بالبضائع والسلع، والعامّة تفيض وجوههم بالبشر والنظافة. أما النوع الآخر، فيطغى عليه نوع من البهرجة فى الملابس رغم رثائتها، كثير من أفراد الطبقات الدنيا يبدون فى تلك الهيئة، الشوارع ضيقة وقذرة، لم تمتد لها يد الإصلاح، بها قليل من السكان البائسين، أكثر من نصفهم يعيشون على التسول. لم أستطع أن أوقف خيالى عن رسم لامرأتين، واحدة فى شخصية زوجة مواطن هولندى نظيف ووسيم، والأخرى لموس فقيرة فى ملابسها وغطاء رأسها الممزق وحذاءها ذى الأربطة الفضية التى فقدت بريقها وقميصها البالى، مزيج بائس من الفقر والإثم.

لديهم قوانين فى تلك البلدة تميز بين الطبقات الاجتماعية بالزى الذى يرتونه، وتمنع الإسراف الذى يفسد غيرها من المدن، ويجد هذا الشكل صدى طيباً فى عيون الغرباء أكثر من أزيائنا المحلية . أعتقد بعد توضيح رئيس أساقفة كامبرى أننى لن أشعر بالخجل من أمنيته بتطبيق تلك القوانين فى أنحاء العالم الأخرى بشكل إلزامى . عندما ينظر المرء نظرة محايدة لمزايا الملابس الفاخرة فى معظم الأماكن ، الاحترام والابتسامات لما تبدو عليه، ناهيك عن الحسد والغيرة وما يتركه فى النفس من أحاسيس سلبية ، (وغالباً يكون هذا مصدراً أساسياً لجاذبية من يرتديه) لا يمكننا إلا أن نعترف أن هناك حاجة لفهم غير عادى لمقاومة إغراء الأصدقاء المبهجين والأتداد الذين يميلون أجسادهم ويكبحون شهواتهم، لكن من الطبيعى أن يقع الشباب فى بعض الحماقات، مما يغرر بهم وصولاً إلى تلك الرغبة فى المال الذى هو أصل كل الشرور . كثير من البشر بدأوا حياتهم بنوايا طيبة تحولت بعد ذلك إلى أسباب يؤس للعالمين أجمعين، مدقوعين فى طريق الإسراف العقيم حتى يقعوا فى الديون التى تؤدى إلى فقدان الكرامة، التى لن يكتسبوها إطلاقاً إذا اقتصر الاحترام على عاداتهم المكتسبة بقوة القانون وحده اللون معين أو قطعة قماش ناعمة! هذا العار يجلب وراءه المزيد من العار، فينزعون للإحساس بالكآبة والانقباض . سأعمل على سرعة إخراج هذه الأفكار من رأسك وأحكى لك عن الآثار المقدسة التى استمتعت كثيراً بمشاهدتها فى كل الكنائس الكاثوليكية .

حتى أتباع لوثر لم ينجوا تماماً من تلك الحماقات. فقد رأيت هنا في الكنيسة الأم جزءاً كبيراً من الصليب مرصعاً بالجواهر، ومكان الحرية، التي قالوا عنها إنها - ويا للقسوة الشديدة - نفس الحرية التي طعن بها مخلصنا يسوع المسيح في جنبه. لكنى ابتهجت بشكل خاص لدى مشاهدتى إحدى الكنائس الكاثوليكية الصغيرة التي سمحوا بإقامتها هنا، وأفراد تلك الطائفة ليسوا على درجة عالية من الثراء، وبالتالي لا يمكنهم أن يزينوا كنيستهم بالتماثيل بمثل ما يفعله جيرانهم . لا يمكننا بالطبع الزعم بخلوهم تماماً من البهجة، فأضفوا على تمثال مدلى على المذبح ملابس على صورة ملابس مخلصنا، وغطوا رأسه بشعر مستعار أشقر اللون. أتخيل أننى أرى شخصك الكريم تحملقين فى هذه الفقرة وتشكين كثيراً فى صحتها، لكن بشرفى إننى حتى الآن لم أستغل الامتياز الذى يستغله الرحالة، وكل ما أرويه لك أكتبه لك بنفس الإخلاص الصافى النابع من القلب مع تأكيدى لك أننى صديقتك المخلصة يا سيدتى العزيزة .

* * *

إلى كونتيسة مار

فينا فى ٨ سبتمبر ١٧١٦

لقد وصلت الآن يا شقيقتى العزيزة إلى فينا بأمان الله، والحمد لله حتى الآن لم أعان أية مشاكل صحية، ولا ابنى (وهو الأهم إلى قلبى) رغم ما عانىاه من إجهاد.

أبحرنا من راتيسبون، وكانت الرحلة فى تلك القوارب الصغيرة على نهر الدانوب ، رحلة ممتعة، وتلك القوارب تشبه البيوت الخشبية، بها تقريباً كل ما يمكن أن تجديه فى قصر ، مواقد التدفئة فى الحجرات والمطابخ إلى غير ذلك .. وكل قارب به اثنا عشر رجلاً يجدفون. وتتحرك القوارب بنعومة لا تصدق، لدرجة أنه فى نفس اليوم استمتعنا بعدد كبير من المناظر الطبيعية الخلابة، وفى خلال ساعات قليلة كان لدينا فسحة من الوقت لمشاهدة مدينة أهلة بالسكان تزدان بالقصور الفخمة والحدائق المنسقة التى تبدو على مبعده من الأماكن التجارية الأهلة بالبشر. أما ضفاف الدانوب فتتنوع بها أشكال السحر والفتنة من غابات، وصخور، وجبال تغطيها الكروم، وحقول الحنطة، والمدن الممتدة، وأطلال القلاع العتيقة. لقد رأيت مدينتى باساو واينز الكبيرتين الشهيرتين بتقهقر القصر الإمبراطورى إليها عندما حوصرت مدينة فيينا.

هذه البلدة، التى تحظى بشرف محل إقامة الإمبراطور، لم تطابق إطلاقاً فكرتى عنها، فهى أصغر بكثير مما توقعت، وشوارعها ملتصقة ببعضها البعض، وضيقة جداً، حتى لا يكاد المرء يلحظ الواجهات الرائعة لتلك القصور المنيفة، رغم أن كثيراً منها يستحق بجداره أن يسترعى الانتباه ، فهى رائعة بحق، كلها مبنية بالأحجار البيضاء الناعمة، وشديدة الارتفاع. إنها بلدة أصغر بكثير جداً من عدد السكان الذين يعيشون فيها، ويبدو أن العاملين فى صناعة البناء قد شرعوا فى إصلاح ذلك الحظ العاثر، بإقامة بلدة أخرى فوق أسطح المنازل، فمعظم البيوت

تتكون من خمسة طوابق، بل بعضها من ستة. من السهل أن تتخيلين مدى ضيق الشوارع، والحجرات العلوية شديدة الظلمة . أما الشيء الغريب المزعج - والذي لا يطاق من وجهة نظري - أن كل منزل به ما لا يقل عن خمس أو ست عائلات على الأقل. الشقق التى تسكنها السيدات الأرستقراطيات، وحتى بيوت وزراء الدولة، مقسمة بحواجز من تلك التى يصنعها الخياط أو صانع الأحذية، وأعرف أنه لا يمكن لأى شخص أن يستأجر أكثر من طابقين فى المنزل، الطابق الأسفل لاستخدامه الشخصى والعلوى لخدمه. أما أولئك الذين يمتلكون بيوتاً خاصة بهم، يؤجرون بقية الطوابق لمن يرغب، وأن الدرج الكبير (المصنوع كله من الأحجار) يستخدمه الجميع، قذر مثل الشارع العمومى. والحقيقة أنك عندما تسافرين ذات مرة وتمرين بتلك البلدان لن يدهشك شيء أكثر من الشقق السكنية. فهى جناح يتكون من ثمانى أو عشر حجرات ، كلها فسيحة ومزخرفة، والأبواب والنوافذ منحوتة ومطلية بالطلاء الذهبى، والأثاث من النادر وجوده فى البلاد الأخرى إلا فى قصور الأمراء الإقطاعيين، والسجاجيد المعلقة على الحوائط مزدانة بالرسوم والصور فى أحلى أشكالها، يستوردونها من بروكسل، والمرايا الضخمة فى إطاراتها الفضية والمناضد والأسرّة والمقاعد الجميلة والناموسيات التى تغطى الأسرّة ، وستائر النوافذ من أفضل أنواع الحرير أو المخمل يستوردونه من جنوة، أغلبها مزينة بأشرطة أو تطريز من الذهب. واللوحات الزاهية الألوان ، والأوانى المستوردة ، وغالباً كل حجرة بها إناء ضخم من الكريستال ذى البريق الأخاذ.

حظيت بشرف الدعوة لتناول العشاء فى كثير من بيوت الطبقة الراقية، ويجب أن أوفيههم حقهم وأقول إن الذوق الرفيع و الطعام والشراب الفاخر يناسب أثاث بيوتهم الراقى. أكثر من مرة أستمتع بمذاق خمسين نوعاً مختلفاً من اللحوم كلها فى أطباق من الفضة ومرصوصة بنظام ، وبقية الأطباق من أفضل أنواع الخزف. والأكثر إبهاراً تنوع و ثراء خمورهم. والأسلوب المتبع، هو عمل قائمة بأسمائها أمام أطباق الضيوف وكذلك مناديل المائدة، وذات مرة قمت بإحصاء ثمانية عشر صنفاً مختلفاً كلها طيبة الطعم والذوق.

لم أتشرف بعد بالدعوة إلى القصر، حيث إننى مضطرة للبقاء فى انتظار إتمام الرداء الخاص بى، الذى لا يمكن للإمبراطورة أن تستقبل أية سيدة بدونه، على الرغم من أننى أتلهف لرؤية ذلك الجمال الذى أسر كثيراً من الأمم المختلفة. وعندما أحظى بشرف تلك الدعوة لن يفوتنى أن أحكى لك عن مشاعرى وأفكارى الحقيقية، ذلك أننى أشعر بغبطة غير عادية عندما أحكى لك تلك الأشياء يا شقيقتى العزيزة.

* * *

إلى السيد بوب (الشاعر ألكسندر بوب)

فيينا في ١٤ سبتمبر ١٧١٦

ربما ستسخر لأننى أخذت كل ما طوقت به عنقى من اهتمام مأخذ الجد. صحيح أننى أحيانا أخذ ما تقوله على سبيل الدعابة والمرح، وربما من المفترض أن أخذها على محمل الجد. لكنى لم يسبق لى إطلاقاً أن كنت ميالة ولو لنصف ميل لتصديق ما تقوله وأخذه مأخذ الجد، وهذه المسافة التى جعلت استمرار صداقتى بك أمراً بعيد الحدوث، هى نفسها التى زادت إيمانى بكلامك لدرجة كبيرة جداً، ووجدت أننى (مثل غيرى من بنات جنسى) مهما يكن على السطح الخارجى، لدى فى الحقيقة ميول قوية لتصديق المعجزات. أخالنى تأثرت بالجو المحيط بتلك البلدان الكاثوليكية، على الرغم من أننى حتى الآن تدهشنى بعض الأمور المتعلقة بنظام الكنيسة الإنجليزية، ذهبت الأحد الماضى إلى الأوبرا، وكان العرض فى حديقة الفافوريتا وقد استمتعت كثيراً بحضوره، ولم أندم على مشاهدته. لم يسبق لى أن شهدت عرضاً فى مثل عظمة وجلال ذلك الحفل، ومن السهل تصديق ما قيل عن الديكورات والأزياء التى كلفت الإمبراطور ثلاثين ألف جنيه إسترلينياً. أقيم المسرح فوق قناة طويلة، وفى بداية الفصل الثانى انشقت المنصة نصفين، كاشفة عن مياه القناة، وفى الحال تقدمت من الجزءين قافلتان من القوارب الصغيرة المذهبة، تعبيراً عن معركة بحرية فى مشهد شديد الروعة أثار اهتمامى. كذلك بقية المشاهد كانت رائعة. كانت قصة الأوبرا هى سحر ألسينا، بها

فرص كثيرة لتقديم عدد شديد التنوع من الآلات والحيل المسرحية، وتغيير المناظر، وتم تقديم ذلك كله بخفة ورشاقة مذهلة. كان المسرح شديد الاتساع، لا يمكن للعين أن تصل لنهايته، والأزياء رائعة، وصل عددها إلى مائة وثمانين زياً. لا يمكن لأى خشبة مسرح أن تسع مثل هذا العدد الضخم من الديكورات، وجلست السيدات جميعاً في الهواء الطلق، واستمتعن بعرض غير تقليدى حيث لم تكن هناك غير مقصورة واحدة لعائلة الإمبراطور. وتصادف فى الليلة الأولى للعرض أن هطلت الأمطار بشدة، فتوقف عرض الأوبرا، وحدث ارتباك شديد بين جمهور النظارة، كدت أموت مضغوطة بينهم.

لكن إذا جاز القول إن ما يقدمونه من أوبرا يبهج النفس، فما يقدمونه من كوميديا يصل إلى درجة عالية من السخرية. وليس لديهم سوى مسرح واحد، اعترانى الفضول للذهاب لمشاهدة الكوميديا الألمانية، ومن محاسن الصدف كانوا يعرضون قصة أمفتريون، وهذا الموضوع تناوله كثير من شعراء اللاتينية والفرنسية والإنجليزية، اعترانى فضول لمشاهدة ما يمكن لكاتب صربى أن يكتبه فى نفس الموضوع. كنت على دراية باللغة بدرجة تمكنتى من فهم جزء معقول من العمل، وبالإضافة لذلك اصطحبت سيدة كانت شديدة الكرم معى وشرحت لى العرض كلمة كلمة. وكان الأسلوب المتبع هو الحصول على مقصورة تسع أربعة أشخاص للمشاهد ولن معه. والسعر ثابت وهو دوكاتية واحدة. كان المسرح شديد الانخفاض ومظلم، لكنى أعترف أن إعجابى بالكوميديا عوض ذلك العيب. لم أضحك فى حياتى كلها لهذه

الدرجة. بدأت المسرحية بوقوع جوبيتر فى الحب وهو يختلس النظر من خلف ثقب وراء السحب، وانتهت بميلاد هرقل. لكن أكثر ما أضحكتنا استخدام جوبيتر للمسوخ الذى ظهر على صورته، وسرعان ما تراه بعد ذلك فى صورة أمفترىون، لكن بدلاً من الطيران مع كلمات الجذل والنشوة التى وضعبها شاعرنا درايدن على شفثيه، أرسل فى طلب حائك ملابس أمفترىون واحتال عليه فى معطف مزدان بأربطة، وأخذ منه حقبة نقود، وجوهرة خاتم من الماس، وحجز غرفة فى فندق، وعشاءً فاخراً منتحلاً اسمه، وأهم ما يضحك فى هذه الكوميديا المعاناة التى لاقاها أمفترىون ممن طالبه بديونه، وقد استغل ميركورى سوشيا بنفس الطريقة. وقد أخذت على المعد تلك الحرية التى مارس بها إضافات للنص الأصلى، ليس فقط بالتعبيرات البذيئة التى تخلو من النوق والحشمة، ولا أعتقد أن القاعدة العريضة من جمهورنا تروقها دراما تدور حول أمور الشعوذة والاحتيال.

لن أزعجك بمجاملات الوداع، التى أعتقد عمومًا أنها لا تمت بصلة للكياسة واللياقة عند مغادرة المكان، عندما تكون الزيارة قد طالت بالفعل .

* * *

إلى كونتيسة مار

فينا فى ١٤ سبتمبر ١٧١٦

على الرغم من أننى قد أزعجتك مؤخراً يا شقيقتى الغالية بخطاب طويل، لن أحتث بوعدى وسأحكى لك أحداث زيارتى الأولى للبلاط الإمبراطورى.

اضطرت استعداداً لتلك المناسبة أن أضغط نفسى فى ملابس ضيقة، وأتحلى بطوق فى عنقى وغير ذلك من الحلى وأدوات الزينة. علاوة على ذلك كان الثوب ضيقاً جداً، لكنه يكشف عن عنقى وأكتافى فى شكل رائع. لا يمكن أن أذهب لهذا المكان دون أن أصف لك قليلاً الملابس هنا، فهى أكثر بشاعة وعلى عكس كل ما يقتضيه الذوق العام والعقل. فهنّ يضعن على رءوسهنّ طرْحاً من التل يصل طولها إلى ياردة كاملة، تتكون من ثلاث أو أربع طيات يمتد منها ما لا يعد ولا يحصى من الأشرطة الثقيلة. ذلك البناء الموضوع على رءوسهنّ يطبقون عليه بول وهو على نفس الشكل والنوع تماماً، لكنه يفوقه فى الحجم أربع مرات، مثلما تفعل عاملات الألبان لدينا لحمل الدلاء المليئة باللبن. وهذا الشيء الذى يضعنه على رءوسهنّ يغطينه بشعورهن، وقد اختلطت بكثير من الحلى المقلدة، ويبدو أن ذلك يمثل لديهن نوعاً خاصاً من الجمال أن تكون رءوسهن فى مثل ذلك الحجم الهائل الذى لا يسمح لهن بدخول الحمامات المتواضعة. وشعورهن مزينة بشكل متكلف جداً، وإخفاء ذلك

الخليط، والخروج وعلى رءوسهن ثلاثة أو أربعة صفوف من دبابيس الشعر (وهى طويلة بشكل غير عادى لدرجة أن الجزء الظاهر منها خارج الشعر لا يقل طوله عن بوصتين أو ثلاث بوصات) وهى مصنوعة من الماس واللآلى والأحجار الكريمة المختلفة بألوانها الحمراء والخضراء والصفراء، وأظن أن هذا يتطلب قدراً عالياً من الفن والخبرة تمكنهن من حمل هذا الثقل فوق رءوسهن، والخروج به كما لو كن يرقصن رقصة الربيع حول العمود وهن يحملن أكاليل من الزهور. أما القمصان التى يرتدينها تحت أثوابهن فتتفوق مثيلتها لدينا بعدة ياردات اتساعاً وتمتد أذيالها خلفهن تغطى فدادين من الأرض.

من السهل أن تدركى كيف يبرهن هذا الزى الشاذ على القبح الطبيعى الذى منحتهم إياه العناية الإلهية عموماً. حتى الإمبراطورة الجميلة نفسها مضطرة، إلى حد ما، أن ترتدى مثل هذا الزى القبيح، الذى لا يجد له إطلاقاً محلاً من التعاطف من العالم أجمع. حظيتُ بمقابلة شخصية مع الإمبراطورة لمدة نصف ساعة، (طبقاً للمراسيم المتبعة) ثم سُمح بعدها للسيدات الأخريات بالدخول، وعُقد حفل الاستقبال. شد ما افتتنت بالإمبراطورة! ومع ذلك لا أستطيع القول إن ملامحها متناسقة، فعيناها ليست واسعة، لكن نظرتها مفعمة بالحياة والعذوبة، وبشرتها شديدة النعومة، وأنفها ووجنتيها بديعتا الحسن، وفمها أكثر سحراً عشرة آلاف مرة، إنه سحر يلمس الروح. عندما تتسم بجمال وعذوبة تدعوك للافتتان بها. شعرها غزير وكثيف، ثم

شخصيتها! على المرء أن يصف شخصيتها شعراً حتى يوفيقها حقها بعدل، فكل ما قاله الشعراء عن سحر ملامح جونو ملكة السماء في أساطير اليونان القديمة وعن قسمات فينوس لم يصل إلى جزء من الحقيقة. فالجمال يتحرك مع خطواتها، إن تمثال ميديا لم يتشكل بنسب أكثر رقة، لا يمكن إضافة لمسة أخرى من الجمال لعنقها وكفيها. لم أكن قبل أن أراها أصدق أن هناك عنقاً وكفين بهذا الكمال، وللأسف الشديد إن منزلتي الاجتماعية هناك لم تسمح لى أن أقبلهما، لكنهما بالطبع لاقيا ما يكفيهما من القبلات، لأن الجميع ينتظرون تقديم هذه التحية لدى دخولهن وخروجهن.

عندما اكتمل حضور السيدات جلست الإمبراطورة للعب الورق، ولم أشارك في اللعب فلم يكن لى دراية سابقة باللعبة التى يلعبنها ، أمرت جلالتها بإحضار مقعد لى لأجلس على يمينها وراحت تحدثنى بكرم حديثاً مطولاً ، وهذا الكرم سمة طبيعية تتحلى بها . كنت أظن أن الرجال سيدخلون ليقدموا تحياتهم إلى البلاط وأتوقع دخولهم كل لحظة لكن قاعة الاستقبال هنا شديدة الاختلاف عن نظيرتها فى البلاط الإنجليزى، لا يدخلها من الرجال إلا كبير الحجاب الذى يدخل ليعلم الإمبراطورة بقدوم الإمبراطور، وقد شرفنى جلالته بالحديث معى بلطف ، لكنه لم يتحدث مطلقاً مع أية سيدة أخرى من الحاضرات، وحدث كل ذلك فى وقار وجو من الحفل البهى الذى يوحى بالرسميات.

حضرت هذه الأمسية الإمبراطورة أماليا أرملة الإمبراطور السابق جوزيف، فى زيارة رسمية للإمبراطورة الحالية، وكانت بصحبتها ابنتاه الأرشيدوقتان، وهما أميرتان على جانب وافر من الحسن والبهاء. نهضت جلالة الإمبراطورة وذهبت لتلقاها عند باب القاعة، وبعد ذلك أجلسنها على فوتيه مقابل لها، والوضع نفسه عند العشاء، وسمح آنذاك للرجال بالدخول الرسمى. جلست الأرشيدوقتان على مقاعد ذات ظهور دون مساند على الجانبين. كانت المائدة عامرة بالأطباق الشهية، وقامت بالخدمة وصيافات الشرف بالإنجازات بالإمبراطورة، وكُنْ اثنتى عشرة فتاة أرستقراطية. تلك الوصيفات لا يتقاضين رواتب عن عملهن، لكنهن يعشن فى البلاط الإمبراطورى، مقيدات إلى حد ما، ولا يحضرن المقابلات الرسمية التى تتم فى الأماكن العامة فى البلدة، إلا لحضور زفاف واحدة منهن، وتقوم الإمبراطورة عادة بتقديم الهدايا للعروس فى هذه المناسبة، على هيئة جواهر من الماس، عليها صورتها. يطلق على الوصيفات الثلاث الأول سيدات المفتاح، وهن يحملن مفاتيح ذهبية، لكن الشئ الأكثر إثارة لى، هو تلك العادة التى يتبعنها طول حياتهن، بعد رحيلهن عن خدمة الإمبراطورة، حيث يأتين فى عيد ميلادها كل عام ويقدمن لها الهدايا. وجلالته لا تضع فى خدمتها امرأة متزوجة عدا كبيرة الوصيفات التى تكون عادة أرملة من الطبقة الأرستقراطية، ودائما كبيرة السن، وفى نفس الوقت هى الوحيدة المختصة بإتمام ارتداء الملكة لملابسها، ومسئولة عن الإشراف على الوصيفات الأخريات اللاتى لا

يتمتعن بالمظهر الذى نزعمه فى إنجلترا، حيث لا يزدن فى الواقع عن الخادما المسئولات عن غرف النوم.

حظيت اليوم التالى بشرف اللقاء مع والدة الإمبراطورة، وهى أميرة فاضلة وطيبة للغاية، لكنها متشدة على نفسها جدا فى ممارسة العبادات إلى حد عنيف، فهى دائمة الصلاة وتقديم أشكال من شعائر التوبة عن ذنوب لم تقترفها. وعندها نفس العدد من وصيفات الشرف، وهن يرتدين ملابس ملونة، أما هى شخصياً فلم تخلع ملابس الحداد إطلاقاً، ومن المؤكد أنه لا شىء يثير الكآبة ويقبض الصدر أكثر من الحداد هنا، حتى لو كان المتوفى شقيقاً. فلا تقع العين على لون فاتح ولا أى شىء ملون حتى الملابس الداخلية، بل تلف عصابة من الكريب الأسود، على القبعة وعلى الأكمام وكل شىء. وحول الرقبة والأذنين ويغطى جانب من الوجه بقطعة مطوية من نفس القماش، والوجه الذى يلوح بين هذا السواد يبدو كأنه يخرج من آلة التعذيب الخشبية التى تدخل فيها يدا المجرم ورأسه. والأرامل تضع علاوة على ذلك غطاء كريب على جبهتها، وفى زى الحداد الكئيب هذا تذهب إلى الأماكن العامة للهو دون أدنى شعور بالذنب.

كان على فى اليوم التالى الذهاب فى زيارة رسمية للإمبراطورة أماليا التى تقيم حالياً فى قصر فى منتجع منعزل يبعد نصف ميل عن البلدة. استمتعت هناك بمشاهدة مسرات جديدة تماماً على، لكن أشد ما سحرنى فى هذا القصر أن الإمبراطورة بشخصها تجلس على كرسى

عرش صغير فى نهاية ممر رائع فى الحديقة، وعلى جانبيها صفان من وصيفات الشرف وغيرهن من شابات الطبقة الراقية، وعلى رأسهن الأرشيدوقتان الشابتان، كل منهما تزين شعرها بالمجوهرات، وفى يدها بندقية صغيرة لطيفة، وعلى مسافة مناسبة ووضعت ثلاث لوحات بيضاوية الشكل استعداداً للتصويب عليها. اللوحة الأولى كانت لكيوبيد، وهى مليئة بكئوس الخمر البرجنديّة التى تُصنع فى فرنسا، والشعار المكتوب عليها "من السهل أن تكون شجاعاً"، واللوحة الثانية لوحة الحظ وعليها إكليل من الزهور والشعار المكتوب عليها "إلى من يحايبها الحظ"، والثالثة كانت لصورة سيف، وفى موقع التصويب إكليل من الزهور والشعار المكتوب عليها "لا بأس عليك إذا انهزمت".

بالقرب من الإمبراطورة نصب تذكارى مطلق بالذهب ومزدان بأكاليل الغار، وهو مكوّن من انحناءات معقوفة تتدلى منها المناديل والشيلان والشرائط والأوشحة التركية الغالية من أجل الجوائز الصغيرة. وقامت الملكة شخصياً بتسليم الجائزة الأولى بيدها، وكانت الجائزة خاتماً من الياقوت المرصع بالماس فى علبة سعوط ذهبية. والجائزة الثانية تمثالٌ لكيوبيد مرصعاً بالماس، ومجموعة أوانى خزفية بها زخارف بارزة من الذهب، وعلب مزواح يد يابانية، وكثير من الأشياء النسائية على نفس الشاكلة. حضر هذا الحفل كل رجال الطبقة الراقية فى فيينا كجمهور نظارة، لكن سُمح للسيدات فقط بالتصويب، وفازت الأرشيدوقة أماليا بالجائزة الأولى. سعدتُ أيمًا سعادة بحضور هذا الحفل الجميل.

لست أدري، لكن خُيل لى أنه ربما كان هذا السباق شبيهاً بمثيله فى الإنيادة، لو كان لى موهبة فرجيل فى الكتابة. ويمثل هذا السباق أفضل متعة وأقربها إلى نفس الإمبراطورة، ولا يفوتها أسبوع دون إقامة مثل هذا الحفل، وهو يقوى من مهارة الشابات فى الدفاع عن أنفسهن، وقد ضحكنا كثيراً جداً عندما خفت أن أمسك البندقية.

شقيقتى العزيزة، أعرف أنك ستعذرينى على هذه الخاتمة المبتورة، أظن أنك تخشين هذه المرة أننى لن أنتهى من الحكى إطلاقاً.

* * *

إلى السيدة ئيستيلثوايت

فيينا فى ٢٦ سبتمبر ١٧١٦

أنا لم أسعد فى حياتى بمفاجأة مثلما سعدت بخطابك اللطيف. وهو علامة خاصة على مكانتى فى قلبك، وأؤكد أن حبى لك لو قل عما هو عليه بمقدار ذرة واحدة، لكان من أسباب بؤسى وشقائى أن أرى قلبى يتحول عنك ، وأنا أرتعد عندما أفكر فى الرد على الرسائل الجديدة ، وأعتقد أننى امتنعت عن مجاملة ما لا يقل عن ستة من معارفى فى لندن برفض أن أسمع منهم أى شىء ، رغم يقينى

أنهم سيرسلون لى خطابات ممتعة جدا . لكنى فضلت فقد متعة قراءة العديد من الأشياء اللطيفة، مقابل ألا أضطر لكتابة أشياء غبية .

وعلى الرغم من هذه الاعتبارات، يغبطنى هذا البرهان على صداقتك، وأرجو ألا تحرمينى من كرمك ولا تتوقفى عن مراسلتى ، وإن كنت أخشى أن يصيبك الملل وتندمين عليها سريعا .

النمسا ليست المكان الذى يكتب منه المرء عن أشياء مثيرة، وقد أصبت بالفعل بعدوى الكسل المنتشرة هنا، حتى العلاقات العاطفية والمشاحنات يسيطر عليها برود هذا البلد، ولا تتسم بالفعالية إلا فيما يتعلق بطقس من يتقدم ومن يتأخر، رأيتهم كيف يستعرضون عواطفهم، خذى مثلا إذا تلاقى مركبتان فى شارع ضيق فى جنح الظلام، وكل سيدة منهما تريد أن تتقدم عربتها الأخرى ولا تريد إفساح الطريق للعربة الأخرى وتظل كل منهما على موقفها للثانية صباحاً فى ذلك المكان المنعزل، وتفضلان الموت عن التزعزع عن موقفهما الغريب، ويتصاعد الأمر إذا كانت إحداهما تتمتع برتبة أو منزلة اجتماعية تفوق السيدة الأخرى ، وقد يصل الأمر لأن يرسل الإمبراطور حرأسه لفض هذا النزاع ، والرجال أيضا ليسوا أقل تمسكاً من النساء بهذه الشكليات.

وهذه العواطف تسيطر على صدور النساء سيطرة كاملة، لدرجة أن وفاة الزوج تحطم قلوبهن ، فتلك الساعة المقدرة تضعب نهاية لمكانتهن

الاجتماعية، فالأرامل ليس لديهن أية مكانة اجتماعية فى فيينا. والرجال ليسوا أقل اهتماماً بهذا الأمر المتعلق فى نظرهم بالشرف والكرامة، فهم لا يستنكفون فقط الزواج بل حتى إقامة علاقة عاطفية مع أية امرأة من عائلة ليست فى نفس المستوى الاجتماعى لعائلاتهم، فالنسب أمر له قدر كبير من الاعتبار بالنسبة لهم أكثر من جمال وحسن المرأة. وبالسعادة أولئك النسوة اللاتى يوجد كونت بين أسلافهن من نبلاء الإمبراطورية، فلا يهم مدى جمالهن أو ثرائهن ، أو الخصال الطيبة التى يتحلى بها للحصول على زوج، وينطبق هذا أيضاً على الأمور المادية فمن النادر أن يمثل أية ميزة لدى الرجل الذى يرغب فى الزواج منها. تحدد قوانين النمسا بائلة المرأة ألا تزيد عن ألفى فلورين (تساوى مئتى جنيه إنجليزياً) ومهما كان ما يمتلكه فوق ذلك سيبقى خاصاً بهن وبإنفاقهن. ولذلك هناك كثير من السيدات يتمتعن بثراء أكثر من أزواجهن، ومع ذلك يتعطفن عليهم بمصروف جيب يسمح لهم بالإنفاق حسب مكانتهم الاجتماعيه، وأعتقد أن هذا يرجع إلى الحرية التى يتمتعن بها فى جوانب أخرى من حياتهن.

تعرفين بالتأكيد كسلى ونفورى الشديد فى هذا الأمر، وسترئين لى الحال لتورطى فى كل هذه الشكليات التى تمثل عبئاً غير عادى لى، على الرغم من أننى مثار حسد البلدة كلها، لأننى بطبيعة عاداتهم أتمتع بمكانة متميزة عن الجميع . لكنهم يأخذون ثأرهم من مبعوثى الدول الأجنبية البائسين لقاء ذلك الاحترام الشديد الذى يقابل به السفراء

فيعاملونهم باحتقار (مع عدم اكتراثي التام لهذه الأمور) ينبغي أن أحتاط من احتمال معاناتي من ذلك. في أيام الاحتفالات الرسمية لا يسمحون لهم بدخول البلاط الإمبراطوري، أما في الأيام الأخرى يغبطون أنفسهم على السير وراء كل الشخصيات المهمة، كونهم آخر من يلفت النظر لأحد. لكن ينبغي أن أكتب لك عن كل الاحتفالات الرسمية، وأظن أنني بالفعل قلت لك الكثير جدا عن ذلك الموضوع الممل، ومع ذلك فهو الشغل الشاغل لكل الناس هنا. است في حاجة بعد كل هذا أن أقول لك كيف يتسرب منى الوقت هنا. أنت تعرفين مثلي تمامًا ما يعنيه هذا.

* * *

إلى السيدة XX

فيينا في ١ أكتوبر ١٧١٦

ترغبين يا سيدتي أن أحكي لك عن العادات هنا، وكذلك عن أحوال مدينة فيينا . ويسعدني دائمًا تلبية رغباتك، لكنني في هذه المناسبة أتمنى أن تقبلي العزيمة مكان الفعل لأنني إذا أخذت على عاتقي أن أحكي لك كل الأمور الجديرة بالذكر، وهي تختلف عن مثيلاتها لدينا، ساكتب ملازم بأكملها، وبها أسوأ مادة تثير الملل إذا قرأها أحد، أو طبعت دون أن يقرأها أحد؛ فأزياء النساء هنا لا تشبه الأزياء الفرنسية أو الإنجليزية

فى أى شىء ، عدا القمصان الداخلية، ولديهن الكثير من الأزياء التى يستغربينها هن أنفسهن، فمثلا من دواعى الحشمة ألا ترتدى الأرملة اللون الأخضر أو الأحمر، فيما عدا ذلك يمكنها ارتداء كل الألوان الزاهية كما تشاء. والتسلىة الوحيدة المتاحة هنا هى تبادل الزيارات واللقاءات، فالأوبرا تقدم عروضها فى البلاط الإمبراطورى، وذلك فى مناسبات بعينها. تقيم مدام رابوتين لقاء حفلات فى بيتها، كل مساء بانتظام، أما غيرها من السيدات، فعندما يرغبن فى استعراض أبهة مساكنهن، أو يتلفن على صديقة بالاحتفال بعيد القديس الذى يتيمن به، يعلن أنهن سيحتفلن بهذا اليوم فى منزلهن على شرف الكونت فلان أو الكونتيسة فلانة، وهذه الأيام يطلقون عليها اسم جالا (المهرجان) وكل أصدقاء أو أقارب السيدة التى تتيمن بهذا القديس يظهرن فى الحفل الذى تقيمه بأفضل ملابسهن وحليهن. ولا تمنح سيدة المنزل أى اهتمام خاص لشخص معين أو ترد زيارته، ويمكن لأى شخص حضور هذه الجالا دون دعوة رسمية. ويستمتع الحضور بتناول المشروبات المتلجة فى أشكالها المختلفة سواء كان الحفل فى الشتاء أو فى الصيف ، ثم يتوزعن على مجموعات للعب الورق مثل لعبة الأومير (وهى لعبة قديمة) والبيكيت أو لتبادل أطراف الحديث ، لكن كل أنواع ألعاب المقامرة مثل النرد غير مسموح بها.

دُعيت مرة لحضور حفل الجالا الخاص بالكونت ألثيم ، وتربطه علاقة حميمة بالإمبراطور، ولم أر فى حياتى مطلقاً ملابس تنكرية بمثل

هذا السوء. فهي مزينة بأغلى أنواع الذهب، مما جعلها ملابس غالية الثمن جداً، وهذا هو كل ما يدل على ذوقها. في أيام أخرى يكون اللبس المشترك بين الجميع هو اللفاح ومن تحته أى شىء يشاؤه المرء.

والآن أحدثك عن فيينا، وأنا على يقين أنك تتوقعين منى أن أحدثك بعض الشىء عن الأديرة، وهى متوفرة بكل الأنواع والأحجام، لكن أكثر دير أعجبني هو دير سانت لورانس، حيث يحيا أفرادها فى بساطة ونظافة، وهذا أمر من وجهة نظرى أفضل بكثير من تلك الأديرة التى تسير حسب أنظمة صارمة، حيث العقوبات الذاتية تكفيراً عن الخطايا تتم بشكل دائم ومتصل، ولا بد لهذا التشدد أن يتسبب فى السخط والبؤس. وراهبات الدير كلهن من الطبقة الراقية. أظن أن عددهن يصل إلى خمسين راهبة. لدى كل واحدة منهن صومعة صغيرة شديدة النظافة. الجدران مغطاة بصور القديسين، تقريباً، كلها جميلة فنياً، تبعاً للطبقة التى ينتمين لها. يمر بهو معمد من الحجر الأبيض بكل حجراتهن، ملئ بصور الراهبات المثاليات، والكنيسة الصغيرة الملحقة بالدير نظيفة ومزخرفة بثراء. لكنى لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك لدى تناولتهن إياى تمثالاً خشبياً لرأس المخلص، أكدوا لى أنها تحدثت فى أثناء حصار فيينا، وكدليل على ذلك، منعونى من لمس فمه الذى ظل مفتوحاً من وقتها. وملابس الراهبات متناسقة. فهن يرتدين ثوباً أبيض بسيط، مطوى الأكمام لأعلى، وثنياته مبطنه بقماش قطنى أبيض جميل، وعلى رؤوسهن غطاء من نفس القماش، لا يختلف إلا فى

الحجاب الصغير من الكريب الأسود الذى يتدلى على ظهورهن. لديهن مجموعة راهبات من طبقة اجتماعية أقل لخدمتهن، وهن يعملن لديهن كخدمات غرف، فيستقبلن كل زائراتهن من النسوة، ويلعبن لعبة الأومبر فى الغرف الخاصة بهن ، بسماح من رئيسة الدير يحصلن عليه بسهولة . لم يسبق لى أن رأيت سيدة مسنة فى مثل طبييتها، تقترب من الثمانين من العمر، ومع ذلك لا يبدو عليها الوهن، ولا تزال مفعمة بالحياة والمرح. رببت على بلطف كائى ابنتها، وأهدتني بعض الهدايا اللطيفة من صنع يديها، وكثير من الحلوى، وقضبان النوافذ ليست شديدة الصلابة، ليس من الصعب أن يمر المرء برأسه من بينها، لا أشك أن أى رجل أنحل قليلاً من المعتاد يمكنه أن يضغط جسده كله ويمر من خلالها. جاء الكونت الشاب سالم إلى النافذة فى أثناء وجودي، ومدت رئيسة الدير يدها من خلال القضبان ليقبلها. وما أثار دهشتي أن رأيت فى الدير أجمل شابة فى فيينا، وهى جميلة ودمثة الخلق، وذكية، وذات حضور، ومن عائلة كبيرة، وكانت قبل انضمامها للدير تحظى بإعجاب البلدة كلها. لم أستطع منع نفسى من إظهار دهشتي لرؤية فتاة بكل هذه الصفات تلتحق بسلك الرهبنة. وقد عاملتني بلطف وعطف يفوق الوصف، وطلبت منى أن أعود لزيارتها مرات أخرى. (و قالت وهى تتنهد) إن هذا سيمنعها سعادة لا متناهية، رغم أنها تتجنب بحرص شديد رؤية أى شخص من معارفها السابقين، وعندما يأتى أحدهم لزيارة الدير تحبس نفسها فى صومعتها. لاحظت الدموع تنساب من عينيها، فمست شغاف

قلبي، وبدأت أحدثها بنوع من الحنان والشفقة التي أثارتها فيّ، لكنها لم تصرح لى أنها ليست سعيدة. لقد سعت لمعرفة السبب الحقيقي وراء ابتعادها عن العالم ودخولها الدير ولم أصل لمعرفة رغم أن الجميع مندهشون مثلي فإنهم لم يصلوا كذلك إلى معرفة السبب.

ذهبت لرؤيتها أكثر من مرة لكنني أصبت بالاكْتئاب لرؤيتي شابة جميلة بكل هذا التناغم تدفن نفسها حية، ولم يدهشني أن الراهبات غالباً يثرن في مشاعر عنيفة، فمن الطبيعي أن يشعر المرء بالرتاء لحالهن عندما يرى أنهن جديرات بقدر مختلف، لو اخترن طريقاً أسهل ووجدن به عواطف أكثر دفئاً وحناناً ، ولم أشعر في حياتي إطلاقاً بمثل هذا التعاطف مع الطائفة الكاثوليكية بقدر ما شعرت به وأنا أرى هذا البؤس، كم من النساء تعانى البؤس والشقاء. أو تلك الخرافات التي تنتشر بين العامة - كلهم أو بعضهم - يوقدون الشموع المضينة الضئيلة نهائياً وليلاً أمام التماثيل الخشبية المنتصبة تقريبا في كل شارع. المواكب التي أراها غالباً مجرد أبهة فارغة وبغيضة ومنافية تماماً للنوع السليم مثل معابد الباجودا الصينية. يعلم الله إذا كان هذا ينبع من روح المرأة المتناقضة التي تختلج داخلي، لكنني لم يسبق لى أن تحمست من قبل ضد البابوية من قلبي بهذا الشكل إطلاقاً.

تحياتي إلى سيدتي العزيزة

* * *

إلى الكونتيسة مار

براغ فى ١٧ نوفمبر ١٧١٦

لعل شقيقتى العزيزة تجد دليلاً جديداً على حبى لها وإخلاصى الشديد فى ما أقدمه لك من الكتابة فى هذا الوقت بعد ثلاثة أيام - ولو أردت الدقة ثلاثة أيام لباليها - من السفر المتواصل بالمركبات.

إن مملكة بوهيميا أكثر منطقة قاحلة رأيتها فى ألمانيا، قراها شديدة الفقر، والحانات التى ينزل المسافرون بها شديدة البؤس، فالقش النظيف والماء الصافى، نعم ليس من السهل وجودها. ومن الأفضل ألا يأمل المرء فى ذلك. وعلى الرغم من أنى أحمل فراشى الذى أنام عليه معى، فإننى فى بعض الأحيان لم أجد مكاناً أضعه فيه، ولذلك فضلت أن أسافر طوال الليل ببرده القارس، ملتفة فى فراشى بدلاً من اللجوء إلى الجواقد العامة التى يخرج منها خليط من الروائح العفنة .

كانت هذه المدينة كانت ذات يوم عاصمة العرش الملكى للوك بوهيميا، وهى مازالت عاصمة المملكة. وما يزال بها بقايا بهائها القديم، حيث كانت واحدة من أكبر مدن ألمانيا، لكن الجزء الأكبر منها، بيوته قديمة وسكانه قليلون، مما جعل المنازل شديدة الرخص، وأفراد الطبقة الأرستقراطية الذين لا يستطيعون تحمل نفقات العيش فى فيينا، يفضلون السكنى هنا، وهم يلتقون ويستمعون للموسيقى وكل أنواع اللهو

والتسلية الأخرى (المسموح بها فى البلاط) بتكلفة متواضعة جداً، كل شىء موجود هنا بوفرة شديدة، خاصة أفضل صيد برى من أوز وبط ذقت طعمه فى حياتى. لقد زارتنى بالفعل أفضل سيدات القوم هنا، اللاتى تعرفت على أقاربهن فى فيينا. وهن يرتدين ثياباً مثل التى ترتديها النسوة فى فيينا، كنوع من التقليد، مثماً تقلد نسوة إكستر نساء لندن، لكن ذلك التقليد أكثر تكلفة من الأصل، إذ ليس من السهل وصف تلك التكلفة المبالغ فيها، فالمرأة لا يبدو منها شىء بداية من غطاء رأسها حتى الجيبونة التحتية، وكثيراً ما يكتبون على ظهور النساء "هذه امرأة" للتتويه للمسافرين مثل علامة البريد التى تكتب على ظهور الدببة "هذه دببة".

لن أنسى أن أكتب لك مرة أخرى عندما أصل إلى درسدن و ليزينج لأننى أتوق شوقاً لإشباع فضولك أكثر من حاجتى للراحة.

* * *

إلى السيدة —

فيينا فى ١ يناير ١٧١٧

لقد تسلمت توأ هنا فى فيينا رسالة سموك اللطيفة فى أثناء عودتى إلى إنجلترا، وقد وصلتني من هانوفر

أنت ترين يا سيدتى أنه ليس كل ما ندافع عنه بثقة حقيقياً مطلقاً، وليس لديك أى سبب يدفعك للشكوى منى، لأنك ترين غموضاً فى

قرار عودتي، وتقولين إن العالم كله قد عرف ذلك. يمكنك أن تخبري العالم كله نيابة عني أنهم لا يعرفون شيئاً عن شئوني الخاصة وأمور حياتي كما أعرفها أنا بنفسى، لأنى شخصياً متأكدة من أننى الآن وفى هذه اللحظة فى فيينا، حيث بدأ الكرنفال، وكل أسباب اللهو تواصل عروضها عدا المسرحيات التنكرية التى لا يسمح بأدائها فى أثناء الحرب مع الأتراك. وتقام الحفلات فى الأماكن العامة حيث يدفع الرجل جنيهاً ذهبياً واحداً للدخول، أما النساء فيدخلن مجاناً. قيل لى إن هذه الأماكن قد تبيع ألف جنيه فى الليلة الواحدة. وهى ذات أثاث شديد الأبهة، وتقدم عروضاً موسيقية جيدة، لو لم يمارسوا تلك العادة المقيتة بمزجها بأبواق الصيد التى تكاد تصيب بالصمم. لكن الضجة التى تصدر عنها مقبولة هنا، فهم لا يقدمون أى حفل موسيقى بدونها. وعادة تختتم تلك الحفلات برقصات ريفية إنجليزية، يؤبىها عدد من الثنائيات يصل إلى ثلاثين أو أربعين ثنائياً، لكنه رقص شنيع لا يقدم كثيراً من المتعة. فهم لا يجيدون أكثر من ست رقصات يكررونها المرة تلو المرة منذ ما يربو على خمسين عاماً. كان يسعدنى جداً أن أعلمهم بعض الرقصات الحديثة، لكنى وجدت أن ذلك يتطلب شهوراً من العمل الجاد لكى أجعلهم يفهمونها جيداً.

ليلة البارحة قدمت فى البلاط كوميدى إيطالية؛ كانت مناظرها جميلة، لكن الكوميدى نفسها هزلية رخيصة، لا تحتتم ولا تطاق، وتخلو تماماً من الدعابة والمرح، لدرجة أننى دهشت من بقاء كل أفراد

البلاط جالسين منتبهين لمدة أربع ساعات متواصلة. ولم تكن هناك نساء على خشبة المسرح، وكان الرجال الذين يقومون بالأدوار النسائية أشكالهم شنيعة، ويعدون إضافة شديدة البلاغة لمزيد من الاستسخاف بالجمهور. وعاد البرد القارس حتى أكمل استمتاعنا بالحفل واعتقدتُ أنني سأموت هنا.

الجو الآن فى ذروة الشتاء، وقد تجمد نهر الدانوب تماماً، ولا يمكن تحمل هذا البرد القارس دون المواقد والفراء، لكن، على أى حال، الجو صحووصاف ، والجميع على ما يرام ، ولا يمكن أن يكون هناك برد بهذه الدرجة ، هواؤه أكثر نقاء وأكثر فائدة للصحة من برد فيينا. إن روعة وكثرة الاستعدادات بأنواعها تتوفر هنا أكثر من أى مكان رأيتَه من قبل، فلن يكلف المرء كثيراً أن يقدم يوماً مائدة على مستوى عليّة القوم. ومن الممتع بحق التجوال بين الأسواق ومشاهدة غزارة وكثرة ما نعتقد أنها أشياء نادرة من لحوم الطيور كالبط ، والأوز ، وغيرها من الطرائد التى تؤكل كالغزلان، وهم يحضرونها يوماً من المجر وبوهيميا. لا ينقصهم شىء أكثر من المحار ، وهم شغوفون بالرخويات البحرية الموجودة داخلها، يرسلون فى طلبها من فينيسيا، ويأكلونها بشهه شديد مهما كانت رائحتها.

إننى أطيع أوامرك يا سيدتى العزيزة، وأقدم لك ما ترغبين فيه من وصف لفينا، رغم أننى أعرف أنه لن يشبع فضولك. أنت تويخيننى على كسلى، وتقولين إننى لا أحكى لك ألف قصة عن أشياء مشوقة

ومثيرة، تثقين تماماً أننى رأيتها وسمعتها. بشرفى يا سيدتى هذه هى الحقيقة من وجهة نظرى، وليس من باب الكسل ألا أمتك وأسليك بالكثير من الأعاجيب والمعجزات التى اعتاد الرحالة والمسافرون أن يحكونها لقرائهم . من السهل التقاط حكايات العجائب فى أى بلدة أمرُ بها وأحكى لك سلسلة طويلة عن معجزات البابا، لكنى لا أتصور أن هناك جديداً يمكننى أن أخبرك به، عندما أقول لك إن القساوسة يكذبون والعامّة يصدقون ما يقال لهم فى كل أرجاء المعمورة. ثم فيما يتعلق بالأخبار التى تحيين البحث والتحقيق فيها، كيف تشترك أخبار (أناس لا تعرفينهم) مثل : أن الأمير فلان هجر الكونتيسة فلانة ؟ أو أن الأميرة علانة على علاقة غرامية بالكونت علان ؟ هل تحبين أن أكتب لك روايات مثل رواية الكونتيسة دنوا؟ أليس الأفضل أن أقص عليك الحقائق ببساطتها ؟

* * *

إلى نيافة الأب كونتى

فيينا فى ٢ يناير ١٧١٧

حقاً لقد تعبت من الحياة فى فيينا . بالتأكيد أنا لست عدوة للهو والسرعة ، ولا كذلك المتعة والسعادة ، لكنى لا أحتمل ثبات الأشياء فترة

طويلة حتى لو كانت مبعثاً للبهجة والسرور، خاصة عندما تتقيد الأمور بالرسميات وتصبح نوعاً من الروتين. صحيح أنني حظيت هنا بإقامة بعض العلاقات الطيبة، وقد يثير دهشتك أكثر، استمتاعى بشكل خاص بعلاقاتى مع المعارف الأسبان، مثل الكونت أوربيثا والجنرال بوبيللا. ، هذان النبيلان يحظيان بعطف الإمبراطور ورضاه، ومع ذلك يبدو أن هناك من يترصد هما بالأذى. فلا بد أن ذكرى الممتلكات التى اقتطعت من المملكة الأسبانية نتيجة لصلح أوترخت تثير حفيظة البعض، ويبدو أنهم يتطلعون بكل الأمل للانقضاض عليها وإعادتها مرة أخرى. هذا الموضوع شغلت نفسى به قليلاً، وسواء كان القصر على حق أو لا، فأنا أكنُ كل مودة وتقدير لهذين السيدين ومن يواليهما، وقد تناولت الغداء معهما منذ عدة أيام فى قصر الكونت فيرمبراند ، وهو مستشار قانونى وأديب ويستمتع بمكانة كبيرة هنا. أما من يفوق الجميع فى ثقافته ومعارفه فى هذا القصر فهو الكونت شليك كبير مستشارى بوهيميا، وهو واسع الاطلاع ويتمتع بذوق رفيع وحكم صائب. وواحد من أكثر الشخصيات التى قابلتها فى فيينا ثقافة ومعرفة هو الكونت تاراكو الشاب الذى يرافق أمير البرتغال اللطيف. أنا تقريباً واقعة فى حب الاثنين معاً، ومندهشة لرؤية مثل تلك الخصال الرائعة وتلك العواطف النبيلة الكريمة فى هذين الشابين اللذين لم يشهدا حتى الآن أى بلد خارج وطنهما. الكونت كاثوليكي مثلك وهو يقوم بأداء الفروض الدينية بإخلاص شديد، وتخفى الافتتاحية الأولى لتودده للنساء وراعاها أسلوباً منمقاً عن الحب الروحاني، تلك التى غناها من

قبل بأعلى درجاتها الحسية فيتلون، ومدام جوين الرقيقة التى حولت الحب الجسدى إلى أشياء سماوية، وهكذا يبدأ الكونت بالحديث عن الروح وينتهى عموماً بالجسد ، حينما يتلو كلماته مخاطباً العذارى الحكيمات.

تعرفتُ بالأمس بالشاعر الكبير روسو الذى يعيش هنا تحت حماية الأمير يوجين وينعم بسخائه. وهم يعتبرونه هنا مفكراً ملحدًا، أما الأمر السيئ فى تقديري، هو أن ذلك الرجل لا يدق قلبه بالمديح الذى يغدقه على الفضيلة والشرف فى قصائده. أنا أحب كتاباته الشعرية جداً فهى أفضل كثيراً من الإنتاج الغنائى الذى يقدمه شعراؤنا الإنجليز، وقليل منهم من كتب شعراً فى مستوى كتابات روسو. لا أجد هنا كثيراً من أهل العلم ، لكن فى فيينا عدداً غير عادى من أهل السيميا ، ويمثل حجر الفلاسفة موضوعاً شديداً الأهمية للعلم والمشتغلين به والمتحمسين له! ومن يحظى منهم بالمزيد من القراءة والاستيعاب أكثر من العامة يستطيع تحويل ما يؤمن به من خرافات (هل يمكننى أن أدعوها خرافات؟) أو فانتازيا ؛ مثل تحول الماء والخبز إلى جسد المسيح ودمه، من الدين إلى السيميا، فصاروا يعتقدون فى نوع جديد من التحولات، ننتى تقبلها المادة. وقد صمم لجعل سواد الناس من جمهور المؤمنين باستثناء رجال الدين أغنياء مثملاً يجعل خبز التقدمة رجال الكهنوت أغنياء. هذه الفكرة الموهوبة دمرت بالفعل كثيراً من البيوت. فمن النادر أن تجد رجلاً ثرياً أو من طبقات المجتمع الراقية ليس لديه سيميائى فى

خدمته، وحتى الإمبراطور شخصياً لا يكنّ أى عداً لهذه الحماسة، إلا أنه يدعى محاولة تثبط هذه الأمور.

كان الأمير يوجين من الدماثة الشديدة معى بالأمس لدرجة أنه أرانى مكتبته، وهو شغوف بكتابات روسو، وصديقه المفضل الكونت بونيفال، وهو مفكر موهوب، ومعروف عنه روحه الجسورة والمغامرة. المكتبة ليست كبيرة جداً، إلا أن الكتب منتقاه بعناية، وكما يعترف الأمير بنفسه أن العين لا تقع فيها إلا على كل جميل ومبهج ، علاوة على ذلك بها عدد من الكتب الرائعة لكن طباعتها سيئة، هذا الذوق المتأنق وصم الكثير من هذه الكتب بنوع من التناقض. الكتب مغلفة بالجلد التركى على نحو فخم، وقد قام باستدعاء اثنين من أشهر مجلدى الكتب فى باريس لهذا العمل خصيصاً. أخبرنى بونيفال بسعادة أن عدداً من الكتب من قطع الكوارتر عن فن الحرب، وهى مغلفة بجلد فرسان ومشاة جيش السلطان العثمانى، وكانت هذه الدعاية لمحة لدرجة، رسمت بسمة على قسماى المحارب الشهير الوقورة. أما الأمير الذى يعد خبيراً فى تنوق الفنون الجميلة، فقد أرانى وهو يشعر بسعادة خاصة أشهر مجموعة بورتريهات، وكانت تخص فوكيه قبل أن تصل إلى يده، وقد اشتراها منه بثمن مرتفع جداً، وضم إليها عدداً لا بأس به من اللوحات الجديدة، وصار بهذا يمتلك مجموعة من ذلك النوع الذى لن تعثر بسهولة على مثله فى عشر حجرات عرض فى قصور أوروبا . لو قلت

لك كم عددها قد تظن أنني أستخدم تصريح الكذب الذى يستغله الرحالة الآخرون الذين نتسامح معهم.

وصل الآن الكونت تاراكو وهو الشخص الوحيد الذى أتوقع حضوره هذا الصباح ولا أتوقع حضور أحد غيره. أتخيلك تبتسم لكنى حتى الآن لم أفعل ما يوجب منى طلب السماح منك، لكن قلوب البشر خداعة، والكونت يعجبني جداً، قد تظن حتى بالرغم من ذلك أنني لا أريد حالاً منك، ومع ذلك أكون سعيدة لو منحتنى ذلك الحل، ليس كما يطلبه الآخرون على أى حال لأننى مهرطقة إلى جانب أنك لست أب اعترافى ، وعموماً أنا لن أعلن هذا صراحة، فقد كان الغرض من زيارة الكونت الدعوة إلى حفل راقص، ودعوته فى حد ذاتها تمنحنى سعادة أكثر من الحفل، سعادة لدرجة التهمة.

* * *

"نى الكونتيسة مار

فيينا فى ١٦ يناير من ١٧١٧

الآن يا شقيقتى العزيزة أستودعك الله إلى حين، وأزعم الرحيل عن فيينا للأبد، وقد خططت أن أبدأ غداً رحلتى عبر المجر على الرغم من

البرد الذى لا يحتمل ، والثلوج الكفيلة بتثبيط أية سيدة تفوقنى شجاعة. لكن مبادئ فى الطاعة المستسلمة تسعفنى فى كل الأمور.

قمت بزيارة الوداع الرسمية للإمبراطورتين. وكان جلالة الملك سعيداً للقائى عندما كنت فى زيارة الإمبراطورة الحالية، وبعد حديث عذب دعانى الاثنان للمرور على فيينا فى رحلة العودة، لكنى لا أفكر فى العودة. سلمت خطاباً للإمبراطورة من ودقة بلانكينبيرج. كنت أزمع البقاء فى ذلك البلاط بضعة أيام قليلة لكن معاليها أصرت على بقائى كثيراً وعندما غادرتها أخذت على عهداً أن أرسلها.

ومن ثم كتبت لك خطاباً مطولاً أتمنى أن يكون قد وصلك، رغم أنك لم تذكرى عنه شيئاً، لكنى أعتقد أننى نسيت أن أخبرك عن ظاهرة غريبة تحدث فى كل القصور الألمانية، ولا أستطيع منع نفسى من الاهتمام بها: كل الأمراء عندهم أقزام، حتى الإمبراطور والإمبراطورة لديهما اثنان من هذه المخلوقات المسوخة الصغيرة، وهما فى مثل قبج الشيطان، خاصة المرأة، رغم أنها مغطاة بالماس، وهى ترافق جلالة الإمبراطورة وتبقى لصيقة بمجلسها فى كل اللقاءات العامة. ودوق فولفينبوتيل لديه واحد، ودوقة بلانكينبيرج لا تخرج إلا بصحبة القزمة الخاصة بها، لكنها حقيقة أكثر قزمة متناسقة الجسد فى كل من رأيتهم. قيل لى إن ملك الدانمارك قد طوّر هذا الأمر لدرجة أن القزم الخاص به يعمل رئيساً لوزرائه . أنا لا أجد مبرراً مقنعاً لغرامهم بهذه الكائنات الشائنة، لكن الرأى المطلق لكل هؤلاء الأمراء أنه لا يليق بهم أن يتحدثوا مع غيرهم

من البشر، ثم أنهم لا يستطيعون البقاء وحيدين، لذلك يضطرون للبحث عن رفقة بين المنبوذين من الطبيعة البشرية، تلك المخلوقات تمثل النخبة الوحيدة المتميزة فى بلاطهم التى يمكنهم الحديث معها بحرية.

أنا حالياً حبيسة حجرى بسبب إصابتي باحتقان فى الحلق، والحقيقة أننى سعيدة بهذا العذر، لتجنب رؤية الأشخاص الذين أحببتهم لدرجة أننى أتعذب كثيراً عندما أفكر أننى سأرحل عنهم للأبد. صحيح أن أهل النمسا ليسوا أكثر الشعوب دماثة فى العالم ولا أكثرهم رقة. لكن فيينا بها أناس من كل القوميات، وقد كونت لنفسى فيها رفقة صغيرة من الأشخاص الذين يناسبوننى. ورغم أن عددهم ليس كبيراً، فإننى لن أحظى فى أى مكان آخر بهذا العدد من العقلاء الذين أنسجم معهم. فقد كنا تقريباً معاً طول الوقت، وأنت تعرفين أننى لم أكن أبداً من أصحاب الرأى الخاص بالحوارات المنمقة وليس لى إلا أصدقاء قليلون ، وذلك فى اعتقادى أعظم سعادة فى الحياة.

يوجد هنا بعض الأسباب من الجنسين، يتمتعون بكل خصال المرح والكرم التى يوصفون بها منذ القدم، وأظن كل شعب مملكتهم مثلهم، لا أتمنى شيئاً أكثر من انتهاء أيامى هنا . أظهرت السيدات اللاتى تعرفت بهن منتهى التعاطف والكرم معى، وكنّ يبكين حين يروننى عندما علمن بقرار هذه الرحلة. والحقيقة أننى لست فى أفضل حالاتى لأننى متأثرة بما سمعته عما سألاقيه من معاناة فى الرحلة. كل من ألقاه يحكى لى عن صعوبة جديدة سأواجهها. كان الأمير يوجين من اللطف

بحيث قال كل ما فى وسعه أن يقوله ليقنعنى بالبقاء حتى ينوب الجليد فى نهر الدانوب، مؤكداً لى أن المنازل فى المجر ليس بها أى استعدادات وقائية ضد البرد، وأننى سأضطر للسفر ثلاثة أيام أو أربعة بين بودا وإيسك ، دون العثور على منزل عبر الصحراء المنبسطة المغطاة بالجليد، حيث ذلك البرد الشديد الذى مات الكثيرون تأثراً به . أعرف أن هذا الذعر ترك فى نفسى انطباعاً عميقاً لأننى أعتقد أنه حكى لى أشياء حقيقية ولا يمكن لغيره أن يخبرنى بها أفضل منه.

أظننى بإشارتى لذكر ذلك الرجل العظيم ، تتوقعين أن أحكى لك عنه، حيث إننى كنت أراه كثيراً لكنى غير راغبة فى الحديث عنه فى فيينا، مثلما لا أرغب فى الحديث عن هرقل فى بلاط أومفيل إذا رأيته هناك. لا أعرف أية سلوى يجدها الناس فى الاهتمام بنقاط ضعف شخصيات عظيمة هكذا (لعل ذلك يقربهم من مستواهم)، أما أنا فأعانى أشد المعاناة عندما أتأمل البشر وأجدهم يفتقرون للكمال. يحظى أمير البرتغال الشاب بإعجاب البلاط كله، فهو وسيم ودمت الأخلاق وشديد الحيوية، وكل الضباط يحكون وقائع مدهشة عن شجاعته وعلاقاته بالنساء فى آخر حملة عسكرية اشترك فيها. وهو يقيم فى قصر ، به كل الميزات التى تخولها له طبقة الاجتماعية. إلى اللقاء يا شقيقتى العزيزة، هذه آخر رواية تسمعينها منى. أستطيع أن أقول لك بثقة، إنها الحقيقة كما قال الفيلسوف مونسييس،

لقد تعلمت التواضع، لكنى عندما أفكر فى التعب الذى سيعانيه طفلى المسكين، أرى فى عينيَّ كل تعلق الأم بطفلها وولها به، وأحس فى قلبي كل العواطف والحنان الأمومي.

ملحوظة مضافة

كتبت خطاباً لسيدتي العزيزة ليدي — أظنه لن يروقها كثيراً، ولأننى أتوقع رد فعل أكثر برودة، أظننى فعلت الصواب بكتابته، ذلك أننى بصراحة شديدة كنت متذمرة من أسئلتها الكثيرة، وخيالها السخيف ، فهي متأكدة أننى رأيت الكثير من الأعاجيب التى أخفيها عنها لظنها أننى ماكرة. إنها غاضبة لأننى لا أكذب مثل غيرى من الرحالة. أنا واثقة أنها تتوقع منى أن أحكى لها قصصاً عن أكلى لحوم البشر، والرجال الذين تمتد رؤوسهم تحت أكتافهم، على أى حال ، أرجو أن تقولى لها شيئاً يهدئها ويشبع فضولها.

* * *

إلى السيد بوب

فيينا في ١٦ يناير ١٧١٧

لم أجد من الوقت ما يسمح لي بالرد على خطابك، لأنني كنت في عجلة من أمري للاستعداد للرحلة، لكنني أعتقد أنه يجب أن أودع أصدقائي بنفس الاحتفاء، كما لو كنت سأودعهم للأبد ولن أراهم مرة أخرى، على الأقل إذا كان عليّ أن أصدق المعلومات التي حدثتني بها الناس هنا من جميع أنواع الرعب، وفي الواقع الطقس هنا في الوقت الراهن أبرد من المعتاد، وأنا مهددة في الوقت نفسه أن أتجمد حتى الموت وأدفن في الثلج، ويأخذني التتار الذين يخربون ذلك الجزء الذي سأمر به. الحقيقة أننا سنصطحب معنا حرساً قوياً لحمايتنا ولذا من المحتمل أن يختلف المشهد وأجد نفسي في قلب معركة.

كيف ستنتهي مغامراتي! أنا أترك الأمر كله للعناية الإلهية، إذا انتهت نهاية كوميدية ستسمع أخبارها من البعض، أرجو من سيادتك أن تتكرم وتتعطف وتبلغ السيد (كونجريف؟) أنني تسلمت خطابه. ويلغفه تحياتي ووداعى، وإذا عشت سأرد عليه بنفسى. ونفس التحية لعزیزتى لیدی ریتش.

* * *

إلى الكونتيسة مار

بيتروارادين فى ٣٠ يناير ١٧١٧

أخيراً شقيقتى العزيزة ، وصلت ، وكل أفراد عائلتى بسلام الله وبصحة جيدة إلى بيتروارادين. وقد عانينا قليلاً من قسوة البرد (على الرغم من أننا نلتف جيداً بالفراء)، وفى كل مكان حططنا به لاقينا الترحيب والود بسبب معارفنا الذين أوصوا بنا خيراً قبل وصولنا، لا أستطيع أن أتمالك نفسى من الضحك عندما أتذكر كل الأفكار المربعة التى بثها فى أصدقائى فى فيينا عن هذه الرحلة، وذلك يرجع لحبهم لى وعطفهم على ورغبتهم فى بقائى معهم هذا الشتاء.

ربما لن يكون منافياً للذوق أن أحكى لك عن رحلتى باختصار، لأننى مررت على بلد لا تعرفين عنها أى شىء إطلاقاً ، وقليلون من يمرُّون بها فى سفرهم، المجريون أنفسهم يفضلون بشكل عام اختيار الطريق المريح عن طريق نهر الدانوب. وعلى أى حال أنعم الله علينا بطقس أخف وطأة من المعتاد فى هذا الوقت من العام. رغم أن الثلوج كانت كثيفة جداً، أسعدنا الحظ باستقلال عربات ذات عجلات راسخة تتحرك بنعومة وبساطة شديدة، وتعتبر هذه أفضل وسيلة مواصلات للرحلات الطويلة. وصلنا إلى راب (اليوم التالى من السفر من فيينا) فى السابع عشر من الشهر الحالى، وقد أرسل السيد ورتلى من ينبئ الحاكم بوصولنا فحظينا بأفضل منزل فى البلدة، وتم إعداده لنا، فى حماية حامية

عسكرية خاصة بنا، وأمر بوضع الحراسة على بابنا، وقدم لنا كل الترتيبات الخاصة بتكريمنا. وقام الحاكم ، وبصحبته ضباط آخرون بزيارة السيد ورتلى لتقديم التحية وأى خدمات نطلبها. وجاء أسقف تيمسوار لزيارتنا مرحباً بنا، وشدد علينا لتناول العشاء معه اليوم التالى، لكننا رفضنا لتصميمنا على مواصلة رحلتنا، فأرسل لنا كثيراً من سلال الفاكهة الشتوية، وعدداً متنوعاً من خمر المجر المعتقد. وأيلة صغيرة تم صيدها وذبحها حالاً. يتمتع هذا الأسقف بنفوذ كبير فى هذا البلد وهو من سلالة عائلة نوداستى العريقة، وهى عائلة ذات مكانة مرموقة على مدى عصور طويلة فى هذه المملكة. وهو رجل عجوز شديد الأدب دمث الخلق مرح يرتدى الزى المجرى وتتدلى لحيته الوقورة البيضاء حتى زناره.

راب بلدة قوية محصنة بحامية عسكرية جيدة وحصون قوية، وكانت منذ وقت طويل البلدة التى تقع على الحدود بين الإمبراطوريتين التركية والألمانية. وقد اتخذت اسمها من نهر راب الذى تقع على ضفافه فى منطقة تلاقيه مع نهر الدانوب فى أرض من السهول المفتوحة. فى أول الأمر احتلها الأتراك تحت إمرة سنان باشا فى عهد السلطان مراد الثالث سنة ١٥٩٤ ، وقيل إن حاكمها قام بخيانتها، فتم إعدامه بعد ذلك بناء على أوامر الإمبراطور. قام الكونت سوارتزنبيرج والكونت بولفى باستعادتها بهجوم مفاجئ فى عام ١٥٩٨ ، ومنذ ذلك التاريخ ظلت فى يد الألمان رغم محاولات الأتراك احتلالها مرة أخرى بالخداع فى عام

١٦٤٢ . تتميز الكاتدرائية بحجمها الكبير ومعمارها الجيد وهى أهم ما يسترعى الانتباه فى هذه البلدة .

عندما خلفنا وراعا كومورا على الجانب الآخر من النهر، وصلنا فى الثامن عشر إلى نوزمول، وهى قرية صغيرة حيث تدبرنا أمرنا دون مساعدة أحد لنجد بعض الراحة المقبولة. واستمر سفرنا لمدة يومين من هذا المكان إلى بودا، عبر أروع السهول فى العالم - وهى مستوية كأن هناك من سواها - وشديدة الخصوبة، لكن أغلبها صحراء وليست مزروعة. فقد تُركت عرضة للخراب والإهمال بسبب الحرب الطويلة بين الأتراك والإمبراطور، والحرب الأهلية الأكثر ضراوة التى اندلعت بسبب اضطهاد الإمبراطور ليوبولد الأكبر . ذلك الإمبراطور الذى كان له شخصية شفوقة إلى درجة غير عادية، وكان بطبيعته ذا مزاج رحيم طيب، ترك كل ذلك وراءه عندما وضع ضميره بين يدي اليسوعيين فصار أكثر قسوة وغدراً لمواطنيه المجر البائسين، أكثر حتى مما فعله الأتراك بالمسيحيين، حنث بيمينه دون لحظة تردد وبإيمانه المسيحى الذى أعلنه فى مفاوضات عامة. فى الحقيقة لا شئ يثير الكآبة أكثر من السفر عبر المجر، فأمامك مملكة من تلك الممالك كانت منتعشة فيما مضى ويقعة ممتازة من الأرض غير أهلة بالسكان. وهذا هو الحال أيضا فى بودا (التى وصلناها فى فجر الثانى والعشرين منه) ، كان بها ذات يوم أكبر كرسي عرش لملوك المجر ، وكانت قصورهم تمثل أفضل وأجمل بنايات عصرها، وصارت اليوم خربة ، ولم يتم إصلاح أى جزء من البلد منذ

آخر حصار، لكن الحصون والقلعة يسكنها حالياً الحاكم راجول وهو ضابط ذو جدارة. جاء فى الحال لمقابلتنا وحملنا بمركبته إلى منزله حيث لاقتنى زوجته بحفاوة شديدة وعملت على راحتنا واستمتعنا بوقت طيب للغاية.

تقع المدينة على تل صغير جنوب نهر الدانوب، وتبدو القلعة أعلى بكثير من البلدة ويتراعى المنظر من خلالها غاية فى الروعة. هنا عدد كبير من المنازل الصغيرة دون حوائط أو بالأحرى مجموعة أكواخ يطلقون عليها بلدة الراسكين حيث إنهم يمثلون غالبية قاطنيها. أكد لى الحاكم أنها توازى مساحة يقف عليها اثنا عشر ألف مقاتل. تبدو هذه البلدان شديدة الغرابة، تقوم منازلها فى صفوف، عدة آلاف منها قريبة من بعضها البعض للغاية فتبدو للرأى من بعد كأنها خيام قديمة من القش. وكل منها يتكون من طابق واحد فوق سطح الأرض وآخر بمثابة بدروم تحت الأرض، الأول لقضاء الصيف والثانى لقضاء الشتاء. فى عام ١٥٢٦ غزا سليمان الكبير منطقة نهر بودا، وكان أول من احتلها، لكنه هُزم فى العام التالى على يد فرناند الأول ملك بوهيميا، ثم عاد فى عام ١٥٢٩ واحتلها مرة أخرى بسبب خيانة الحامية العسكرية التى سلمته طوعاً للملك جون ملك المجر، بعد موته كان ولده طفلاً، حاصرها فرديناند واضطرت الملكة الأم للاستعانة بمساعدة الملك سليمان الذى رفع الحصار عن المكان، لكنه وضع البلدة تحت الحماية العسكرية التركية وأمرها بالخروج من قصرها وتسليمه له فى عام

١٥٤١ ، قاومت فيما بعد الحصار الذى فرضه حولها الماركيز براندنبرج فى عام ١٥٤٢ ، ثم حصار الكونت سوارتزنبرج فى عام ١٥٩٨ ، ثم الحصار الذى قام به الجنرال روزورم فى عام ١٦٠٢ ، ثم الحصار الذى فرضه الدوق لوريان قائد قوات الإمبراطور فى عام ١٦٨٤ ، والذى استسلمت له البلاد فى عام ١٦٨٦ بعد دفاع مستميت وقتل أبتى باشا الحاكم الذى لقى حتفه وهو يقاتل ببسالة الشجاعة الرومانية. كان ضياع هذه البلدة أمراً شديداً الأهمية وأثار حفيظة الأتراك، وتسبب فى خلع الإمبراطور محمد الرابع فى العام التالى.

واصلنا رحلتنا فى الثالث والعشرين منه، حيث مررنا عبر بلدتى إدام وتبور وهما بلدتان كانت لهما مكانة عالية فى يد الأتراك أما الآن فقد تخربتاً تماماً، ولم يبق منهما إلا بعض أطلال الأبراج التركية التى تدل على ما كانت عليه من قبل. هذا الجزء من البلاد تغطيه الغابات والقليل جدا من المسافرين يمرون به، فشاهدنا من الطرائد عدداً كبيراً جدا والطيور البرية تعيش هنا لأعمار طويلة.

” تنام نوماً هادئاً لا تقلقها بنادق الصيادين ”

وصلنا فى الخامس والعشرين إلى موهاتش، ورأينا الحقل القريب منها حيث فقد لويس ملك المجر الشاب جيشه وحياته ، ومات غرقاً فى خندق فى أثناء محاولته الفرار من باليوس جنرال سليمان الكبير. فتحت هذه المعركة أول طريق للأتراك إلى قلب المجر. لن أنكر لك أسماء القرى الصغيرة التى مررنا بها ولم يصادفنا بها شىء يسترعى الانتباه

أو يستحق الذكر، لكنى أؤكد لك أننى نعمت دائماً بموقد دافئ وكمية وافرة من الطعام، خاصة الخنازير البرية والغزلان وكل أنواع الطعام. القلة التى تقطن المجر تحيا حياة رغبة على الرغم من عدم امتلاكهم لأموال طائلة لكن الغابات والسهول تمدهم بالمؤن بوفرة، طلب منهم أن يقدموا لنا كل الضروريات التى نحتاجها ، حتى الخيول التى طلبناها، يقدمونها عادة مجاناً، لكن مستر ورتلى لم يكن ليرغم أولئك الريفيين الطيبين على الاستجابة لهذه المطالب ، وكان دائماً يدفع لهم ما يستحقونه مقابل ما يقدمونه لنا. وكان ذلك الكرم غير المتوقع مثار عجبهم ودهشتهم، ذلك أنهم لم يعتادوه كثيراً، وحين أوشكنا على الرحيل أضروا على تقديم ستة من طيور الدراج السمينة وهى شبيهة بالحجل أو أى شئ من هذا القبيل كهدية لنا. ملابسهم شديدة البدائية وهى عبارة عن مجرد جلود أغنام بسيطة جففتها الشمس ، وغطاء للرأس وحذاء للقدمين من نفس المادة. ولك أن تتخيل أن هذه الملابس تبقى لعدة شتويات ولذلك ليسوا بحاجة للنقود.

فى السادس والعشرين منه، عبرنا نهر الدانوب المتجمد، ومعنا كل مركباتنا وأمتعتنا. التقينا فى الجانب الآخر بالجنرال فيترانى ، الذى دعانا بلطف شديد أن نمضى الليل فى قلعة صغيرة من قلاع، تبعد عن المكان بضعة أميال، مؤكداً علينا أننا سنمضى يوماً صعباً فى رحلتنا إلى إيسك ، وقد أثبتت الرحلة مدى صدق كلامه، فالغابات التى مررنا بها فى تلك الناحية كانت شديدة الوعورة والخطورة، ونادراً ما يمر أحد

من خلالها؛ بسبب العدد الهائل من الذئاب التى تعيش فيها . على أى حال وصلنا بسلامة الله أمنين رغم التأخير، وقضينا هناك يوماً لإرسال من يحمل رسائلنا إلى باشا بلجراد ، وانتهزت الفرصة لمشاهدة البلدة التى لم تكن كبيرة، لكنها جميلة المعمار ومحصنة جيداً . كانت هذه البلدة ناجحة تجارياً وغنية ومأهولة بالسكان عندما كانت تحت يد الأتراك . وهى تقع على نهر دراف الذى يصب فى نهر الدانوب . وبها جسر يعد من أروع الآثار فى كل أنحاء العالم، طوله ثمانية آلاف قدم . وهو مبنى كله من خشب البلوط الذى احترق وتحولت المدينة كلها إلى رماد على يد الكونت ليزلى فى ١٦٨٥ ، لكن تم إعادة إصلاحها مرة أخرى وحمايتها على يد جنود الأتراك الذين تركوها - على أى حال - فى عام ١٦٨٧ ، واستولى عليها الجنرال دونفالت تحت إمرة الإمبراطور وظلت تحت سلطته منذ ذلك الحين وهى تعد الآن واحدة من أقوى حصون المجر .

فى الثامن والعشرين منه وصلنا إلى بوكوروار، وهى بلدة راسكية كبيرة جداً ، مبنية كلها على الطراز الذى سبق ووصفته لك . التقينا هناك بالكولونيل — الذى رفض أن يدعنا نذهب إلى أى مكان آخر غير مسكنه، حيث قابلنا زوجته، وهى سيدة مجرية لطيفة المعشر، وابنة أخيه وابنته وهما شابتان جميلتان، ويعيش الجميع فى ثلاثة أو أربعة بيوت مفتوحة على بعضها البعض لتصبح بيتاً واحداً، وهى على درجة عالية جداً من النظافة . والسيدات المجرىيات أكثر جسناً من النمساويات . كل جميلات فيينا من هذه البلدة ، وهن عموماً جميلات جداً وبديعات القوام

للغاية، ويرتدين ملابس جذابة لأقصى درجة. كانت زوجته ترتدى ثوباً من المخمل القرمزى ، بطانته وحاشيته مغطاة بفرو السمور، مناسباً لجسمها تماماً ، والجزء الأسفل (التتورة) تصل إلى قدميها. والأكمام ضيقة على الذراعين والصدرة مزينة بصفيين من الأزهار الصغيرة من الذهب واللؤلؤ، أوالماس. يضعن على رعوسهن كاباً مطرزاً بشرابة من الذهب تتدلى على أحد الجانبين وبها خطوط من فراء السمور أو أى فراء جميل آخر. قدموا لنا عشاءً طيباً، وكان حديثهم معنا مهذباً جداً ودمثاً للغاية. وأصروا على مرافقتنا بعضاً من الطريق.

فى التاسع والعشرين وصلنا هنا، والتقينا بقائد الوحدة العسكرية الذى يرأس جميع ضباط الحامية العسكرية. أسكنونا فى أفضل أجنحة منزل الحاكم، وعملوا على الترفيه عنا بأروع ما يمكنهم حسب أوامر الإمبراطور. انتظرنا هنا حتى تمت تسوية كل الأمور، بما فيها استقبالنا على الحدود التركية. عاد هذا الصباح المبعوث الرسمى الذى أرسله السيد ورتلى من إسيك، يحمل رد الباشا فى كيس من الحرير القرمزى، قام المترجم بترجمته. وفيه يعد الباشا السيد ورتلى بحسن استقباله ويطلب معرفة الموعد الذى يحدده للقائه بالموكب التركى الذى سيرافقه لحمايته. أعاد زوجى إرسال مبعوثه ذاكراً بتسكو وهى قرية فى منتصف الطريق بين بيتروارادين وبلجراد. وسبقى هنا حتى يأتينا الرد.

هكذا يا شقيقتي العزيزة كتبت لك وصفاً مسهباً عن هذا الجزء من رحلتى (أخشى أن تظنى) أنه شديد الملل. لم يكن متكلفاً تقديم قراءتها التى جعلتني أخبرك بعض القليل من النبذ عن تاريخ البلدان التى أمر بها، لقد تجنبنا دائماً أى شئ من هذا القبيل عند حديثي عن الأماكن التى أعتقد أنك تعرفين تاريخها مثلى. لكنى أعتقد أن المجر جديدة عليك تماماً، فى ظنى أنك ستقرأين ما أكتبه من معلومات عن وصفها ببعض السعادة. تلك المعلومات التى طالما شعرت بالوسوسة حتى بحصولي عليها من مصادر أثق فيها. على أى حال إذا لم ترقك فى مقدورك أن تعدلى عن قراءتها. شقيقتك المحبة

أنا عند وعدى بإرسال هذا الخطاب إلى فيينا بكل عناية.

* * *

إلى السيد بوب

بلجراد فى ١٢ فبراير ١٧١٧

كان فى نيتي أن أكتب لك خطاباً مطولاً من بيتر وارادين، حيث توقعت أن أمكث بها ثلاثة أو أربعة أيام لكن الباشا استعجل رؤيتنا، وأعاد رسولنا المبعوث إليه (الذى أرسله إليه السيد ورتلى ليعرف الموعد الذى يرغب فيه فى لقاء الحامية) دون أن يدعه يخلع حذاءه.

لم تكن خطاباتي بالأهمية التي تجعلنى أوقف الرحلة لأكتبها، ذلك أننا غادرنا بيطروارادين اليوم التالى، وزارنا رئيس ضباط الحامية العسكرية زيارة رسمية ومعه حامية عسكرية من الألمان والراشكيان ليست قليلة . ولدى الإمبراطور الكثير من تلك التنظيمات. لكن إذا توخينا الحقيقة فإنهم ليسوا سوى شرزمة لصوص أكثر من كونهم جنوداً، وليس هناك من يدفع لهم رواتبهم وعليهم أن يحصلوا على أسلحتهم وخبولهم بأنفسهم ، ويبدون مثل الغجر المتشردين أو المتسولين المشاكسين أكثر من كونهم فرق جنود نظامية.

لا يمكننى احتمال الكلام عن هذا النوع من المخلوقات، وهم متواجدون بأعداد كبيرة فى كل أنحاء المجر.

ولديهم بطريق خاص بهم من نفس طائفتهم الدينية فى القاهرة الكبرى، فهم ينتمون للكنيسة اليونانية، لكن جهلهم المطبق منح قساوستهم الفرصة لاستغلال كثير من التصورات والأفكار الجديدة ونشرها بينهم . أولئك الكهنة يتركون شعورهم ولحاهم تنمو بدون مساس فيشبهون البراهما الهنود تماماً. وهم يرثون كل نقود الطائفة، وبالمقابل يمنحونهم صكوكاً رسمية موقعة مختومة لدخول الجنة، أما الزوجات والأطفال فيرثون فقط البيوت والبهايم. فى معظم ما يخص الدين فى غير ذلك من أمور يتبعون الطقوس اليونانية.

هذا الاستطراد القليل قاطع إبلاغى إياك أننا مررنا بميدان معركة كارلوفيتز، حيث تم آخر نصر كبير حققه الأمير يوجين ضد الأتراك. وما زالت علامات نصر ذلك اليوم الدامى باقية، فالميدان مغطى بجماجم وجثث الرجال والخيول والجمال التى لم تدفن حتى هذه اللحظة. لم أستطع النظر إلى ذلك العدد من الأجساد الأدمية المشوهة دون إحساس بالرعب، وبظلم الحروب التى تجعل من القتل ليس فقط أمراً ضرورياً بل أهلاً للمكافأة والتقدير. لاشئ يبرهن بوضوح عن عدم منطقية الجنس البشرى (مهما تكن الشعارات والادعاءات التى نزع منطقيتها) أكثر من الغضب الذى يجتاحهم من أجل قطعة أرض صغيرة يتقاتلون عليها، فى حين هناك أجزاء أخرى شاسعة متروكة خالية من البشر. هذا حقيقى. فقد جعلت العادة هذا أمراً لا مفر منه ، لكن هل ثمة برهان أكبر ينبع من العقل أكثر من عادة رسخت فى الأذهان على النقيض تماماً من مصلحة الإنسان بشكل عام، أنا أؤمن إلى درجة كبيرة بمقولة مستر هوبس أن الحرب هدف الطبيعة. لكنى بناءً على ذلك أصل إلى نتيجة مقتضاها أن الطبيعة الإنسانية ليست منطقية إذا كانت كلمة العقل تعنى التمييز والإدراك كما أفترض. لدى الكثير من الحجج المقنعة لتعزيد ذلك الرأى لكنى لن أزعجك بها، وفى المقابل وبأسلوب بسيط أوثقها فى تاريخ رحلاتى.

التقىنا فى بتسكو (قرية فى منتصف الطريق بين بلجراد وبيتروارادين) بواحد من الأغوات الإنكشاريين معه مجموعة من

الجنود الأتراك يفوقون الألمان بمائة رجل، رغم أن الباشا كان قد وعد بإرسال عدد مساوٍ لعدد الألمان. قد ترى أن ذلك ينبع من مخاوفهم. أنا مقتنعة حقيقة أنهم لم يفكروا كثيراً في التفوق بإرسال مائة رجل زيادة عن الألمان، على أى حال كنت شديدة القلق حتى تم الفصل بين القوتين خشية وقوع أية مشاحنات رغم العهد الذى أخذه الجميع على أنفسهم.

وصلنا متأخرين إلى بلجراد، وقد جعل الجليد الصعود إليها أمراً شاقاً. بدت مدينة قوية محمية من الشرق بنهر الدانوب ومن الجنوب بنهر سافو الذى كان يمثل فى السابق آخر حدود المجر. احتلها أول الأمر سليمان الأكبر، ومنذ ذلك الحين بقيت بها قوات الإمبراطور يقودها أمير بافاريا، وبقيت تحت سيطرته لعامين فقط، ثم استعادها كبير الوزراء العثماني، وتم تحصينها بأقصى عناية ومهارة يستطيعها الأتراك ، الذين يدعمونها بحامية عسكرية كبيرة العدد من أشجع رجالهم الإنكشاريين، يرأسهم السركسيار باشا (جنرال).التعبير الأخير ليس دقيقاً، لأننا إذا توخينا الحقيقة فإن السركسيار يرأسه الإنكشاريون، الذين يتمتعون بسلطة مطلقة هنا، لا تختلف كثيراً عن العصيان، الذى يمكنك أن تحكم عليه من القصة التالية، التى ستقدم لك فى نفس الوقت فكرة عن ذكاء حاكم بيتروارادين الذى يثير الإعجاب رغم أنه يبتعد عن المكان بضعة ساعات. أخبرنا بنفسه فى بيتروارادين أن الحامية العسكرية وسكان بلجراد سأموا الحرب، فقتلوا الباشا الذى يحكمهم من شهرين مضياً،

فى أثناء حركة تمرّد ؛ لأنه سمح لنفسه بمحاولة إقناعهم بالسماح للتتار بتخريب الحدود الألمانية مقابل رشوة قيمتها خمسة أكياس (خمسمائة جنيه استرليني). كنا سعداء جداً بسماعنا مثل هذا التصرف الإيجابى من الناس، لكن عندما اقتربنا أكثر عرفنا أن الحاكم لم يكن يعلم، وسمعنا القصة الحقيقية، التى تقول إن الباشا الأخير كان واقعاً تحت سطوة جنوده بلا سبب سوى كبح غاراتهم على الألمان. أبلغوا ذلك لرؤسائهم، ومن منطلق ذلك اللطف، اتهموه بالتآمر مع الأعداء، وأرسلوا بتلك المعلومات إلى الباب العالى فى أدرنة، لكن الرد على الرسالة لم يأت سريعاً، فاحتشوا بطريقة هائجة، وجرّوا الباشا الذى يحكمهم أمام القاضى والمفتى وطلبوا إقامة العدل بطريقة متمرّدة، أحدهم يصيح: لماذا يحمى أرض العدو؟ وآخر: لماذا يعتصرهم ولا يدفع رواتبهم؟ وقد استوضح غرضهم بسهولة فأجابهم بهدوء بأنهم سألوه أسئلة كثيرة وأن رده عليهم أنه لا يملك إلا عمراً واحداً يجيب به على كل تلك الأسئلة. فصرعوه فى الحال بسيوفهم المعقوفة ذات الصد الواحد (دون انتظار لحكم القضاء)، وفى غضون دقائق قليلة قطعوه إرباً إرباً. لم يجرؤ الباشا الحالى على معاقبة القتلة، بل على العكس عرض مكافأة لمن قاموا بذلك باعتبارهم شجعاناً أقاموا العدل بأنفسهم، وتظاهر بإلقاء الأموال بين رجال الحامية العسكرية، وسمح لهم بالقيام برحلات ترفيهية إلى المجر، حيث قاموا بحرق بيوت بعض الفقراء الراسكين.

لك أن تتصور لم يكن من السهل على البقاء فى بلدة يحكمها جماعة جند متغطرسين، وقررنا الرحيل فى الحال بعد ليلة واحدة من الإقامة فيها، لكن الباشا احتجزنا لحين وصوله الأوامر من أدرنة، ومن الممكن أن تسغرق شهراً، فى ذلك الوقت كنا نقيم فى واحد من أفضل البيوت، ويمتلكه رجل يكنون له احتراماً شديداً بينهم، وملاً حجرة بالإنكشاريين لحراستنا. كانت التسلية الوحيدة المتاحة لى هى الحديث مع مضيفنا أحمد بك، وهو لقب يشبه لقب كونت فى ألمانيا. كان والده باشا كبيراً، وقد تلقى تعليماً رفيعاً فى أفضل مدارس الشرق، وتفوق فى تحصيل اللغتين العربية والفارسية، وهو كاتب على درجة غير عادية من المهارة يطلقون عليه أفندى. وهذا يسهل له الحصول على أكبر المناصب، لكنه من راحة العقل بما جعله يفضل الحياة الآمنة الهادئة البسيطة عن كل المقامات الرفيعة الخطرة التى عرضها عليه الباب العالى. كان يتناول العشاء معنا كل ليلة ويشرب الخمر بحرية. لا يمكنك أن تتصور كم كان سعيداً بحرية الحوار معى. شرح لى كثيراً من نصوص الشعر العربية، وقد لاحظت أنها من حيث الوزن تختلف عن أشعارنا وهى بشكل عام مكتوبة فى أبيات متناوبة، وموسيقاها شديدة الوضوح. كما أن التعبير فى الشعر عن الحب مفعم بالعاطفة والحياة. سعدت جداً بهذه الأشعار، وأعتقد حقيقة أننى يجب أن أتعلم قراءة اللغة العربية، إذا بقيت هنا بضعة شهور. لديه مكتبة رائعة مليئة بالكتب من كل صنف، وكما قال لى، يقضى معظم وقته فى قراءتها. شعرت حياله أننى أمام

باحث كبير، ورويت عليه بعض الحكايات الفارسية الرائعة. حتى ظن أنني أفهم اللغة الفارسية. وقد حدثت بيننا مناقشات كثيرة حول اختلاف عادات كل منّا، خاصة القيود التي تحيط بالمرأة. وراح يؤكد على العكس، قائلاً إننا نختلف عنهم في ميزة واحدة، شارحاً: "عندما تخدعنا زوجاتنا لا أحد يعرف ذلك". لديه فطنة ووجدته أكثر تهذيباً من معظم الرجال المسيحيين الأرستقراطيين. استمتعت بلقائه كثيراً. كان لديه من حب الاستطلاع أن يجعل واحداً من خدمنا يعلمه أبجدية لغتنا، واستطاع أن يكتب بالفعل الحروف اللاتينية بخط جميل.

لكن هذا اللهو لم يمنعني من تمنى مغادرة هذا المكان من أعماق قلبي، رغم أن الطقس أبرد من جرين لاند. لدينا موقد مشتعل على الدوام، ومع ذلك فنوافذ الحجرة مجمدة من الداخل. الله وحده يعلم متى أستطيع أن أرسل لك بهذه الرسالة : لكنني كتبتها لأخلص ضميري، ولا يمكنك الآن أن تلومني لأن خطاباً منك قد يساوي عشرة من خطباتي .

* * *

إلى سمو أميرة ويلز

إدريانويل فى ١ أبريل ١٧١٧

لقد قمت يا سيدتى العزيزة برحلة لم يقم بها أى مسيحي منذ عهد
الأباطرة الرومان: ولن أندم على كل مالمقيته من تعب فيها، لو منحتينى
فرصة إسعاد سموك بوصف أماكن غير معروفة لنا على الإطلاق،
فسفراء الإمبراطور وأولئك الإنجليز القلائل الذين أتوا هنا يتخذون
طريقهم عادة عبر نهر الدانوب إلى نيكوبوليس. لكن الدانوب متجمد
الآن، والسيد ورتلى بحماسة الشديدة لخدمة جلالة الملك، لم يشأ أن يؤجل
رحلته انتظاراً للملاءمة الطريق.

لقد اجتزنا صحارى الصرب وهى تقريباً مغطاة بالغابات، لكن
برغم أن البلد ذات طبيعة خصبة وسكانها يعملون بكد، فإن الظلم
الواقع على عاتق الفلاحين شديد، فهم يرغمون على ترك منازلهم وإهمال
فلاحتهم فى سبيل إرضاء الجراكسة أينما طاب لهم الاستيلاء عليها.
كان يقوم بحراستنا خمسمائة منهم، وكنت كل يوم تنساب دموعى عندما
أرى غطرستهم فى القرى الفقيرة التى نمر بها.

بعد السفر سبعة أيام عبر الغابات الكثيفة وصلنا إلى نيسا التى
كانت ذات يوم عاصمة الصرب، وهى تقع على سهول نهر نيسافا،
وجوها جميل جداً، وأرضها شديدة الخصوبة لدرجة لا تصدق. لقد
أكدوا لى بشكل قاطع أن كمية الخمر من آخر قطفة كانت مذهلة،

اضطروا للحفر فى الأرض لتخزينها، ولم يكن لديهم أية كافية فى البلدة ليضعوها فيها. لكن أولئك الناس المقهورين لم يستطيعوا تذوق السعادة بهذا المحصول الوفير. رأيت هنا سبباً آخر مدعاة لإشفاقى عليهم؛ أولئك البؤساء الذين أمدونا بعشرين عربة تحمل متاعنا من بلجراد إلى هنا نظير أجر معين، طردوا جميعاً دون مليم واحد، وأصبحت بعض خيولهم بالعرج وبعضها الآخر فقد دون أن يتلقى أصحابها أية ترضية. تجمع أولئك المساكين حول المنزل وهم يبكون ويمرّقون شغورهم ولحاهم بطريقة تثير الإشفاق للغاية دون أن يحصلوا على شئ سوى الجلد من أولئك العسكر المتغطرسين. لا يمكننى أن أصور لسموك مدى تأثرى بهذا المشهد. كنت أتمنى لو بمقدورى أن أدفع لهم أجرهم من مالى الخاص بكل ممنونية، لكنى أعرف أنه كان سيذهب كله إلى جيب الأغا، الذى سيأخذه منهم دون أن يشعر بالندم.

بعد رحلة أربعة أيام عبر الجبال وصلنا إلى صوفيا التى تقع على سهل فسيح على نهر إيسكا، وتحيط بها الجبال من بعيد. من الصعب بمكان أن يصف الانسان منظرًا طبيعيًا بهذا الجمال. أما المدينة نفسها فكبيرة جدا وأهلة بالسكان، توجد بها الحمامات الساخنة، وهى ذات شهرة واسعة بسبب فوائدها الصحية. ثم واصلنا رحلتنا لمدة أربعة أيام أخرى من هناك إلى فيليبوبلى، بعد مرورنا بسلاسل جبال هموس ورودوب التى يغطيها الجليد بشكل دائم. تقع البلدة على ربوة عالية قرب نهر هبروس، وأغلب قاطنيها من اليونانيين، وتوجد بها بعض الكنائس

القديمة. لديهم أسقف وعدد من اليونانيين الأثرياء يسكنون هنا، لكنهم يضطرون لإخفاء ثرواتهم بحرص شديد، فمظهر الفقر (الذى لا يناسبهم كثيراً) يضمن لهم الأمان الذى لا يشعرون به إذا أظهروا ثرائهم. الريف من هنا حتى أدنة يعد من أجمل بقاع الدنيا. فالكروم تنمو على التلال بوفرة، والربيع الدائم الذى يستمتعون به يجعل كل شىء يبدو مبهجاً ومزدهراً. لكن الطقس كما يبدو لا يمكن تفضيله على مناخ إنجلترا بكل ثلوجها وغاباتها، لأننا ننعم بحكم سلس تحت لواء ملك تكمن سعادته الشخصية فى حرية شعبه، وقد اختار أن يعتبره أفراد الشعب أباً لهم بدلاً من أن يكون سيدهم.

هذه الفكرة حملتني بعيداً جداً، وهنا إذا أدرك أننى أستنفد صبر سموك بالفعل لكن خطابى بين يديك ويمكنك أن تختصره كما تشائين ، بإلقائه فى النار عندما تملّين قراءته .

المخلصة لك

مع احترامى الشديد

إلى السيدة —

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

أنا الآن فى عالم جديد حيث كل شىء أراه يبدو لى تغييرا للمنظر، وأكتب لسيادتك هادئة البال إلى حد ما، أمل على الأقل أنك ستجدين سحر التجديد فى خطاباتي، ولن تعودى لتوييخى على عدم إخبارك بأى شىء غريب .

إن أزعجك بسرد تفاصيل رحلتنا المملة، لكنى لا ينبغي أن أحذف ما رأيته فى صوفيا، وما شعرت أنه جدير بالذكر، فهي واحدة من أجمل بلدان الإمبراطورية التركية، وتشتهر بحماماتها الساخنة التى يرتادونها لأغراض الاستمتاع والصحة. وقد مكثت هنا يوماً خصباً لأراها. وقررت الذهاب متخفية، فاستأجرت عربة تركية. هذه العربات لا تشبه عرباتنا إطلاقاً بل أكثر ملاءمة لهذه البلاد، فالحرارة قد تشتد لدرجة أن الزجاج شديد الإزعاج ، وهذه العربات تشبه إلى حد كبير نمط العربات الهولندية، بها نوافذ مزودة بمشربيات منقوشة ومطلية بالذهب، ومن الداخل بها نقوش سلال وياقات من الزهور، مختلطة بأبيات من الشعر. ومغطاة كلها بقماش قرمزي مبطن بالحرير ومطرز بالقصب ومزيل بالشراريف. وهذه التغطية الشديدة تخفى من بداخلها، لكن قد يرفعونها من منطلق التسلية والبهجة، وتستترق السيدات النظر من نوافذ المشربيات. هذه العربات تكفى أربعة أشخاص يجلسون على الكبتين لكنهم لا يستطيعون الوقوف داخلها.

ذهبت فى عربية من هذه العربيات المغطاة إلى الحمام التركى حوالى الساعة العاشرة. وكان قد امتلأ بالفعل بالنساء. وهو مبنى من الحجر على شكل قبة دون نوافذ إلا فى السقف، وهى كافية لإضاعته. كان هناك خمس من هذه القباب متصلة ببعضها البعض ، البعيدة أصغر من الأخريات، وهى تستخدم فقط كصاله حيث تقف البوابة على الباب. وتمنح سيدات الطبقة الأرستقراطية هذه المرأة ما قيمته كراون أو عشرة شلنات، ولم أنس أن أفعل ذلك. الحجرة التالية شديدة الاتساع ومبلطة بالرخام، وعلى مدار جدرانها أريكتان من الرخام، واحدة منهما وراء الأخرى. فى هذه الحجرة أربع نافورات من الماء البارد يتساقط أولاً فى أحواض من الرخام، ثم ينزلق على الأرض فى قنوات صغيرة معدة خصيصاً لهذا الغرض، تحمل تيار الماء المتدفق إلى الحجرة التالية، وهى حجرة أصغر من الحجرة السابقة بها نفس نوع الأرائك الرخام السابقة لكنها شديدة الحرارة الناتجة عن الأبخرة الكبرى الخارجة من الحمامات التابعة لها. من المستحيل أن يبقى المرء هناك مرتدياً ملابسه. القبتان الأخريان بهما الحمامات الساخنة، إحداها بها صنابير مياه باردة تتحول إليها لتلطف درجة الحرارة إلى الدفء الذى تحتاج إليه العميلات.

كنت بملابس السفر التى تستخدم فى ركوب الخيل، التى بدت لهن شديدة الغرابة، ومع ذلك ولا واحدة منهن على الأقل أظهرت نوعاً من الدهشة أو الفضول الوقح، بل استقبلننى بكل الود واللفظ. لا أعرف

بلاطاً أوروبياً به مثل أولئك السيدات اللاتي يتصرفن بعفوية وأدب شديد مع امرأة غريبة. أعتقد أن عدد النساء اللاتي كنّ موجودات بالحمام يصل إلى مائتى امرأة، ومع ذلك لم أر ابتسامة واحدة تنم عن الازدراء أو حتى سمعت همسة سخرية، مما لا تخلو منها مجتمعاتنا عندما يظهر شخص لا يرتدى ما يرتدونه. بل رُحْنُ يكررن على مسامعى المرة تلو المرة (أوزال يك أوزال) التي تعنى لطيفة لطيفة جداً. كانت الأريكة الأولى مغطاة بالوسائد والسجاجيد النفيسة، وتجلس عليها السيدات، أما الثانية فتجلس عليها جواريهن، لكن دون أى نوع من التمييز الطبقي فى الملابس، كل واحدة بطبيعتها، وبإنجليزية واضحة كنّ عاريات تماماً بكل ما فى الكلمة من معنى، دون إخفاء لأى جمال أو قبح. ومع ذلك لا تصدر عن أى منهن حتى ابتسامة خليعة أو إيماءة بذيئة. وهن يسرن ويتحركن بنفس الرشاقة الملوكية التى وصف بها ميلتون أمناً حواء. كانت الكثيرات منهن لها نفس التناسب الجسدى الذى تتمتع به أية إلهة رسمتها ريشة جيد أو تيتيان، ومعظمهن نوات بشرية بيضاء براقية بلا أى زينة سوى الشعر الجميل يتدلى فى جدائل كثيرة مصفورة على أكتافهن، ملفوفة إما باللؤلؤ أو بالأشرطة، ليشبهن تماماً إلهات الحسن الثلاث^(١).

(١) ثلاث إلهات شقيقات كان الإغريق يعتبرونّ مانحات للفتة والجمال .

اقتنعت هنا بصواب فكرتى، التى أؤمن بها دائماً، وهى صعوبة ملاحظة تفاصيل الوجه إذا كان الجسد كله عارياً . وقد استحوذت تلك السيدات اللاتى يمتلكن أصفى وأرق بشرة وألطف ملامح على إعجابى الشديد، رغم أن وجوههن كانت أحياناً أقل جمالاً عن وصيفاتهن. للحقيقة كنت شريرة لدرجة أننى تمنيت فى سرى لو أمكن للسيد جيرفاز الرسام أن يكون بيننا هناك ولا يراه أحد. ويخيل إلى أن هذا العدد الكبير من الحسنات العاريات فى أوضاع مختلفة، بعضهن يتحدثن وبعضهن يعملن ، وأخريات يشربن القهوة أو الشربات والكثيرات يتمددن على الأرائك فى استرخاء بينما جواريهن (وهن غالباً فتيات جميلات فى السابعة عشرة والثامنة عشرة من العمر) مشغولات بجدل شعورهن فى ابتكارات جميلة مختلفة، سيضيف الكثير جداً لفنه. باختصار يعتبر هذا مقهى للنساء، وتُحكى فيه كل أخبار البلد، وتُخترع فيه الشائعات، و هن عادة يستمتعن بهذا الضرب من اللهو والتسلية مرة كل أسبوع، ويبقى هناك على الأقل لمدة أربع أو خمس ساعات، دهشت لعدم إصابتهم بنزلات البرد رغم خروجهن من الحمام الساخن إلى الحجرة الباردة. استعطفتنى السيدة التى تبو أنها الأكثر مكانة بين الجميع أن أجلس بجوارها، وكانت تود بكل سرور أن تقنعنى بخلع ملابسى لأخذ حماماً . واعتذرت لها بصعوبة. كنّ جميعاً مخلصات فى محاولة إقناعى، وفى النهاية اضطررت أن أفتح قميصى، وأريهن المشدات التى أرتديها تحت ملابسى، وقد سعدن بذلك جداً، وأظن أنهن

اعتقدن أن هذه الملابس الضيقة لا أستطيع خلعها بإرادتى، واعتبروها من اختراع زوجى. افتتنت بلطفهن وجمالهن، وكان يسعدنى قضاء المزيد من الوقت بينهن، لكن السيد ورتلى كان مقررًا مواصلة رحلته مبكرًا فى اليوم التالى، فكنت على عجلة من أمرى لرؤية أطلال كنيسة جستينيان، التى لم أر فيها أى مشهد جميل، حيث لم يبق منها إلا أكوام من الحجارة.

وداعًا سيدتى، وأعتقد أننى أمتعتك الآن بوصف منظر لم تشاهديه فى حياتك من قبل، ولا يمكن لكتاب رحلات أن يقصه عليك، فليس أقل من الموت عقابًا لرجل لو عثروا عليه فى مثل ذلك المكان.

* * *

إلى الأب كونتى

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

لعلك تدرك أننى شديدة التدقيق فى التزامى بالوعد الذى أخذته على عاتقى تجاهك، لكنى لا أعرف إذا كان ما سأرويه لك سيشبع فضولك أم لا، وأؤكد لك أن الرغبة التى تحبونى لفعل ذلك بأقصى ما أستطيع، جعلتنى أبذل قصارى جهدى فى البحث والملاحظة. إن ما نعرفه عن أخلاقيات ودين هؤلاء القوم قليل جدا، فهذا الجزء من العالم

من النادر أن يزوره أحد سوى التجار الذين لا يهتمون إلا بما يتعلق بشئون تجارتهم، أو الرحالة الذين يمكنون هناك بعض الوقت لا يمكنهم من الحصول على أية معلومات دقيقة بأنفسهم، الأتراك على قدر عالٍ من الكبرياء ؛ فهم لا يتبسطون فى الحديث مع العامة أو التجار، ولذلك كل ما يمكن لأولئك التجار أن يلتقطوه مجرد معلومات مشوشة، وهى عمومًا غير صادقة، ولا يمكنهم تقديم معرفة أفضل عن سبل الحياة هنا، أكثر مما يستطيع لاجئ فرنسى يقيم فى عليية فى شارع جريك ستريت أن يكتبه عن البلاط الإنجليزى.

الرحلة التى قمنا بها من بلجراد إلى هنا بالبر، لا يمكن لأى شخص غير الشخصيات العامة أن يقوم بها، فالغابات غير المطروقة فى الصرب تعد بمثابة وكر للصوف، الذين ينهبون القوافل التى تمر بهم حتى لو وصل عدد أفرادها إلى خمسين شخصًا ، لذلك كنا فى أمس الحاجة لكل حراسنا ليسهروا على حمايتنا، والقرى شديدة الفقر لدرجة أن جنود الحراسة الإنكشارية فقط هم الذين ينتزعون منهم المؤونة الضرورية، فى الواقع الجراكسة لا تأخذهم بهم رحمة لفقرهم، فهم يذبحون كل ما تقع عليه عيونهم من طيور داجنة وأغنام دون سؤال عن صاحبها، بينما أصحابها البؤساء ليس فى استطاعتهم إعلان ملكيتهم لها خوفًا من الضرب. تتساقط الحملان، وإناث الديوك الرومى منتفخة بالببيض، وتذبح كل البهائم دون تمييز! يخيّل إلى أننى أسمع شكوى ميلوبيس لتوسلات قطيعه. عندما يسافر الباشاوات تصير الأمور إلى

الأسوأ. فهؤلاء الطغاة لا يكتفون بأكل كل ما يؤكل مما يخص الفلاحين، بل بعدما يتخمون من كثرة الطعام هم وأفراد حاشيتهم التى لا تعد ولا تحصى، لديهم من الصفاقة والوقاحة لانتزاع ما يسمونه ضريبة الأسنان أو استخدام أسنانهم لتمزيق ما يسمونه شرف التهام لحومهم. وهذه حقيقة معروفة بحرفيتها، مهما بدت مبالغ فيها، هذا هو حال الفساد الطبيعى للحكومة العسكرية، رغم أن دينهم لايسمح بهذا السلوك البربرى مثل ديننا تماما.

أسعدنى الحظ بالإقامة لمدة ثلاثة أسابيع فى بلجراد فى منزل أحد الأفندية من أصحاب الشأن، ويمكن القول إنه أستاذ باحث. أمثال هذا الرجل مؤهلون لارتقاء المناصب سواء فى مجال القانون أو الرتب الدينية، فهم يدرسون علوم القانون والفقہ معاً ، وبناءً عليه يمكن للشخص الحاصل على هذه العلوم أن يصبح محامياً و فقيهاً فى وقت واحد. وهم الرجال الوحيدون فى الإمبراطورية الذين يحظون باحترام شديد، ويجمعون تحت أيديهم كل الوظائف المربحة بالإضافة للسلطة الدينية. وعلى الرغم من أن الخليفة هو الوريث العام لشعبه، فإنه لا يمس إطلاقاً أرضهم أو نقودهم التى تصل بشكل مباشر إلى أولادهم. صحيح أنهم يفقدون تميزهم إذا قبلوا مكاناً فى القصر أو منحوا لقب باشا، والأمر لا يخلو من بعض الحمقى بينهم الذين يتورطون فى مثل هذه الأمور. من السهل إدراك مدى قوة أولئك الرجال الذين يحتكرون كل العلوم وتقريباً كل ثروات الإمبراطورية. فى الواقع هم الملاك الحقيقيون

رغم أن العسكر هم الذين يظهرون على السطح ويقومون بالثورات. وهم الذين قاموا بخلع السلطان الأخير مصطفى وقوتهم معروفة جيداً، ولا يشغل الإمبراطور الحالى شىء سوى منافقتهم.

هذا استطراد طويل. كنت سأخبرك أنى أحظى بحوار حميم كل يوم مع الأفندى أحمد بك، منحنى فرصة الإلمام بأمر دينهم وأخلاقياتهم بتفصيل أكثر مما سبق إتاحت لى مسيحى. شرحت له الاختلاف الطائفى بين مسيحى إنجلترا ومسيحى روما، وكان مسروراً لسماعه أن هناك مسيحيين لايمجدون التماثيل أو يعبدون العذراء مريم.

* * *

لعلك تتوقع أننى سأحكى لك بعض الشىء عن الثقافات والآثار القديمة لهذا البلد، لكن ما بقى بها من التراث الإغريقى القديم قليل جداً. مررنا بجزءٍ من قنطرة تعرف باسم بوابة تراجان، يفترض أنه أنشأها ليخلق الممر المؤدى للجال بين صوفيا وفيلوبوبوليس . لكنى أميل للاعتقاد أنها أطلال جزء من قوس نصر (رغم أننى لم أستطع رؤية أية نقوش تدل على ذلك) ذلك أنه لو تم إغلاق هذا الممر، فهناك كثير من الممرات غيره بوسع جيش زاحف أن يطرقتها، على الرغم من قصة بولدوين إيرل فلاندرز الذى هُزم فى هذه المناطق الوعرة بعد نجاحه فى

الاستيلاء على القسطنطينية. صحيح أن الطريق الآن معد إعداداً جيداً بأفضل طريقة ممكنة استعداداً لزحف الجيش التركي، فلا يوجد خندق واحد أو حفرة بين هذا المكان ، ولجراذ لم يبن عليها جسر كبير قوى مفروش بالألواح الخشبية، لكن الجروف ليست شديدة الخطورة كما سمعت عنها. وتحت سفوح هذه الجبال مكثنا فى قرية كيسكوى الصغيرة وجميع قاطنيها من المسيحيين، مثل جميع فلاحي بلغاريا. ومنازلهم مجرد أكواخ صغيرة، مبنية بالطين المجفف فى الشمس، وهم يتركونها ويصعدون إلى أسطح الجبال، قبل زحف الجيش التركى بعدة شهور، وإلا دمرهم تماماً ، يطردهم جميعاً من المكان. هذه الحيطه تحميهم إلى حد كبير، لأن مثل تلك الساحات الشاسعة من الأرض تعتبر مناطق عامة. ولديهم الحرية فى زراعتها كما يحلو لهم، وهم مزارعون على درجة عالية من الكفاءة. شربت هنا العديد من أنواع الخمر الجيد. ترتدى النسوة هنا حلياً من الخرز المصنوع من الزجاج الملون بألوان كثيرة جداً. وهن لسن قبيحات لكن بشرتهن سمراء تميل للصفرة.

أخبرتكم الآن بكل ما يستحق أن أحكيه لك وربما يزيد، مما رأيته فى رحلتى. عندما أصل إلى القسطنطينية سأحاول أن ألم ببعض الغرائب والطرائف وأرسل لك بها.

* * *

إلى كونتييسة بريستول

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

لأننى لا يمكن أن أنسى أصغر أوامر سيادتك وأقلها شأنًا، كان شغلى الشاغل هنا هو الاستفسار عما طلبت منى أن أبحث لك عنه، لكنى لم أعثر عليه. الفرق بين الملابس هنا والملابس فى لندن فرق شاسع، فنفس نوع القماش لا يناسب القفطان والمنط^(١) على أى حال، إن أكف عن بحثى بل سأعاود البحث عندما أذهب إلى القسطنطينية، وإن كنت على يقين أنه ليس هناك أفضل من الموجود هنا، حيث مقر إقامة السلطان حاليًا. فقد تم زفاف كبرى بناته منذ بضعة أيام قبل وصولى، وإزاء تلك المناسبة عرضت السيدات التركيات كل أبهتهن وعظمتهن. وصلت العروس إلى بيت زوجها فى موكب شديد الفخامة والبهاء. وهى أرملة الوزير السابق الذى قتل فى بيتروارادين، ورغم أن زواجها منه لم يتم عملياً لأنها لم تعيش فى بيته، لكنها ورثت عنه الجزء الأكبر من ثروته. كان مسموحاً له بزيارتها فى الحرمك وكان واحداً من أكثر رجال الإمبراطورية وسامة فقد أثر فى عواطفها بشدة. وعندما رأت العريس الثانى الذى يبلغ الخمسين من عمره على أقل تقدير ، لم تتمالك

(١) المنط نوع من المعاطف أو الأثواب الفضفاضة .

نفسها وانفجرت فى البكاء. صحيح أنه رجل فاضل ومن محاسيب السلطان، لكن هذا ليس كافياً لجعله يخلو فى عينى فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها.

الحكومة كلها هنا فى يد الجيش، والخليفة بكل سلطاته يرتعش مثل أى واحد من رعاياه إذا عبس أحد الجراكسة فى وجهه. هذه حقيقة، فليدهم الكثير من مظاهر الخضوع أكثر من عندنا: مثلاً، لا يستطيع أحد أن يحدث وزير الدولة إلا وهو راكع على ركبتيه، حتى لو كان اللقاء فى مقهى عام، وإلا فإنه يهدم المقهى ويسويه بالأرض، وربما يعتقل كل الموجودين ويسومهم العذاب (لأنهم لديهم جواسيس فى كل مكان) . ممنوع على الجماهير الهاتف أو اللافئات التى تنم عن الحق والغباء وممنوع أيضاً مناقشة أمور السياسة فى الحانات.

الحرية تجلب الفساد المتواتر

نتائجها سلبية وإن صدرت عن قضية نبيلة

وهنا يشتم الكبار (على الماشى)، لكن عندما يغضب الوزير الشعب، فى ظرف ثلاث ساعات يسحبونه، حتى لو كان بين أحضان سيدة . ويقطعون يديه ورأسه وقدميه ويلقون بها أمام بوابة القصر بكل احترام ممكن، بينما ذلك السلطان (الذى يقدمون له جميعاً فروض الطاعة والولاء) يجلس وهو ينتفض فى مكانه، لا يجرق على الدفاع

ولا على الانتقام لحسوبه. هذه هى حال النعمة التى يحياها ملك يستمتع بأكبر ملكية مطلقة على الأرض. لا يعترف بقانون سوى قانون رغباته.

أتمنى من كل قلبى أن يرسل البرلمان إلى هناك سفينة تحمل من أعضائه المطيعين حتى يروا الحكومة المستبدة فى أوضح صورها وأقواها، حيث من الصعب الحكم إذا كان الأمير أو الشعب أو الوزراء أيهم أكثر بؤساً. بإمكانى أن أقدم لك كثيراً من الأفكار عن هذا الموضوع، لكنى أعرف يا سيدتى أن فطنتك وحسن تقديرك للأمور بالفعل أفضل منى.

ذهبت بالأمس مع زوجة السفير الفرنسى لرؤية السلطان فى طريقه للمسجد. كان يتبعه عدد هائل من الحرس الجراكسة، وعلى رؤوسهم ريش أبيض ضخم، وكذلك السباهية^(٣) والبوستانجية^(٤) (وهم حرس المشاة والخيالة) وبستانية قصر السلطان، وعددهم كبير جداً، يرتدون زيّاً مختلفاً، ألوانه زاهية جميلة، لدرجة أنهم يبدون من بعيد كروض من زهور التيوليب. ثم يليهم الأغا الجركسى فى رداء أرجوانى من القطيفة، مبطن بنسيج فضى، وحصانه يقوده اثنان من العبيد يرتديان أفخر الثياب. أمامه يسير الكيسلار أغا (تعرفين سموك أنه حرس

(٣) السباهى فارس بجيش السلطان العثمانى الخاص .

(٤) البوستانجية حرس منهم المشاة ومنهم الخيالة .

السراجليو الخاص بالنساء) يرتدى ملابس صفراء داكنة (تناسب بشرته السوداء الداكنة) مبطنة بالفراء، يليه رفعة الباب العالي نفسه بزي أخضر مبطن بفراء ثعلب مسكوفى أسود، يساوى ألف جنيه إسترليني، ممتطياً حصاناً جميلاً مجهز بركاب وخلافه مشغول بالجواهر. تسير خلفه ستة خيول أخرى، مجهزة بأبهة وفخامة، واثنان من أهم رجال الحاشية أحدهما يحمل إناء قهوة من الذهب والآخر يحمل إناءً من الفضة، مع طاقم آخر يحملون مقعداً من الفضة على رؤوسهم لأجل جلوسه عليه.

أظن من مدعاة الملل أن أحكى لسموك عن الأزياء والعمائم المتنوعة التى يتميز بها جنودهم، فهم جميعاً يستمتعون بالثراء وملذات الحياة إلى أقصى درجة، ويصل عددهم إلى بضعة آلاف، لذلك ربما لا يمكنك مشاهدة موكب أكثر بهاءً من ذلك. لاح لنا السلطان وهو رجل وسيم فى حوالى الأربعين من عمره وله سيماء شديد اللطف، لكن ثمة قسوة تبدو على ملامحه، وعيناه واسعتان وسوداوان. تصادف أن توقف تحت النافذة التى كنا ورائها، (و أظن أنه على علم بهويتنا) نظر إلينا بانتباه شديد، لذلك كان لدينا من الوقت ما يكفى لتأمله جيداً، ووافقتنى زوجة السفير الفرنسى على حسن ملامحه. أتبادل الزيارة مع تلك السيدة كثيراً، وهى شابة كان من الممكن أن تمنحني صحبتها راحة كبيرة لو استطعت إقناعها بالعيش دون الشكليات والرسميات التى تجعل الحياة رسمية ومملة، لكنها سعيدة بجرأسها، لها أربعة وعشرون فارساً من المشاة،

وهم رجال على خلق، يعملون لديها كحجبة، وهى تفضل الموت على زيارتي بدونهم، ناهيك عن المركبة الكبيرة المليئة بوصيفات الشرف العذارى المرافقات لها. لكن ما يغيظنى حقاً هو أنها بقدر ما تحضر معها من حاشية مزعجة لدى زيارتها لى، تريد أن ترغمنى أن أفعل نفس الشيء. على أى حال، اهتماماتنا المشتركة تجعلنا قريبات الواحدة من الأخرى كثيراً.

اليوم التالى ذهبت بصحبتها فى جولة فى البلدة، فى مركبة مفتوحة مذهبة، وبرفقتنا موكب من الحاشية المرافقة لنا، يتقدمهم حراسنا وكانهم يدعون الناس لمشاهدة ما لم يشاهدوه من قبل، ولا سيشاهدونه بعد ذلك، فلم يحدث أن جاءت إلى بلدتهم اثنتان من زوجات السفراء المسيحيين فى وقت واحد، ولا أعتقد أن هذا سيحدث مرة أخرى. لك أن تتصورى سموك بسهولة أننا كنا نسحب وراعنا جمهوراً كبيراً من النظارة، لكن جميعهم ساروا فى صمت مطبق. فلو أن أحدهم سلك بمثل الحرية التى يتمتع بها جمهورنا إزاء أى منظر غريب، لصرعهم جنودنا الجراكسة بسيوفهم دون خوف لكونهم فوق القانون. ومع ذلك فأولئك الحراس يمتلكون الكثير من الخصال الحميدة، فهم شديدي الحماسة والإيمان بمن يخدمونه ، ويأخذون على عاتقهم القتال فى سبيله فى كل المناسبات معتبرين ذلك عملهم وواجبهم. حدث لى مثال طريف على ذلك فى قرية قريبة من فيليبوبليس حيث التقينا بحارسنا المحلى، أوصيت

على حمام لعشائى، فذهب أحد الجراكسة الذين يعملون فى حراستى فى الحال إلى القاضى (رئيس الضباط المدنيين فى البلدة) وأمره أن يرسل عدداً من أفراخ الحمام. أجابه المسكين أنه بالفعل قد أرسل فى طلبها، لكنه لم يستطع الحصول عليها نهائياً. قام حارسى الجركسى فى فورة غضبه لخدمتى بحبسه فى الحال كسجين فى حجرته، وأخبره أنه يستحق الموت على صفاقته ووقاحته بتقديم عذر لعدم تلبية طلبى، لكنه إكراماً لخطبرى واحتراماً لى لن يعاقبه إلا بأمرى، و جاء لى بمنتهى الوقار ليسألنى ماذا يفعل به، مضيفاً إلى ذلك على سبيل المجاملة أنه إن كان يسعدنى أن يحضر لى رأسه فسيفعل! قد يقدم لك هذا بعض التصور عن مدى القوة غير المحدودة التى يتمتع بها أولئك الرجال المتحالفين ماً كرفاق سلاح ويصرون على الانتقام من أى ظلم يوقعه أحدهم بالآخر، سواء فى القاهرة أو حلب أو أى مكان من العالم، وهذا التحالف المنيع يجعلهم قوة لا تقهر، لدرجة أن أكبر رجل فى البلاط لا يمكنه على الإطلاق أن يتحدث إليهم إلا بنغمة منافقة، وفى أسيا أى رجل ثرى مرغم على الاحتفاظ لنفسه بأحد الجراكسة لحماية أملاكه.

أطلت عليك بالفعل، وأقسم لك يا سيدتى العزيزة أنه من المريح لك أن هذه الخطابات المملة لن تصلك إلا كل ستة شهور، وهذه الفكرة سمحت لى بإرسال هذا الخطاب الطويل الممل وأمل قبول عذرى يا سيدتى العزيزة.

إلى الكونتيسة مار

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

شقيقتى العزيزة، أتمنى من الله أن تداومى على إسعادى بمعرفة ما يحدث فى ذلك الجانب الآخر من الكرة الأرضية حيث تعيشين، مثلما أحرص على محاولة إسعادك بحكى كل ما أراه وأعتقد أنك تهتمين بسماعه. أنت تكتفين بإخبارى المرة تلو المرة أن المدينة مملّة جداً، وربما تكون مملّة لك حيث لا تطلعين كل يوم على شىء جديد، لكن بالنسبة لى لم أعرف شيئاً عن أخبارها منذ ما لا يقل عن شهرين، كل ما يبدو لك تافهاً، قد يبدو لى مثيراً ومشوقاً. أرجوك عرفينى بالمزيد من التفاصيل، وسأحاول أن أوقظ حماسك بحكى قصص حقيقية ودقيقة عن الأشياء الغريبة التى أراها فى هذا المكان، لكن كم سيدهشك منظرى أنا شخصياً، وأنا أعب فى ملابسى التركية، ولعلك ستوافقينى الرأى أنها بالفعل تثير الإعجاب. سأرسل لك صورتى حين أتسلمها.

القطعة الأولى من ملابسى زوج من السراويل الداخلية، واسعة جداً ، تصل إلى حذائى، وتخفى الساقين بشكل أكثر حشمة من الجببونة التى نرتديها. ولونها أحمر دمسقى باهت، ومطرز بزهور فضية، وحذائى مصنوع من جلد الماعز الأبيض ومشغول بالذهب. فوق هذه الأشياء أرتدى قميصاً من الحرير الأبيض الشفاف مطرز الحواف، أكمامه واسعة تتدلى إلى منتصف المسافة أسفل ذراعى، ورقبته مقفولة بأزرار

من الماس، شكل ولون الصدر متميز جداً. من الأمام صدرية مناسبة لبقية الطاقم، وألوانها أبيض وذهبي دمسقي، لها أكمام طويلة ذات حواش مذهبة، ولها أزرار من الماس أو اللؤلؤ. وقفطانى من نفس نوع قماش السروال الداخلى، عبارة عن ثوب محكم على مقاس جسمى تماماً، يصل إلى قدمي، وله أكمام طويلة وضيقة. فوقه زنار عرضه أربعة أصابع يمكن تغطيته كله بالماس أو أية أحجار كريمة، ومن لا يطيقون هذه التكلفة، يستبدلونها بالحريز المطرز، ويضمونها بمشبك من الماس. أما الكردي فتوب فضفاض سائب يلقى على الاكتاف طبقاً لحالة الطقس، يصنع من القماش المطرز الغالى (الكردي الخاص بى لونه أخضر وذهبي) وميطن بالفراء، وأكمامه تصل تحت الاكتاف لمسافة قصيرة. غطاء الرأس طربوش، فى الشتاء يصنع من القטיפه الجميلة المطرزة باللؤلؤ أو الماس، وفى الصيف يصنع من قماش فضى براق. وهذا الطربوش يثبت على أحد جانبي الرأس ويتدلى قليلاً بشرابة من الذهب، وملفوف بدائرة من الماس (مثلما رأيت العديد منه) أو وشاح مطرز للعنق. على الجانب الآخر من الرأس ينساب الشعر. وهنا لدى السيدات الحرية فى الابتكار، فبعضهن يضعن الزهور وأخريات يضعن مجموعة من ريش طائر مالك الحزين، وباختصار يضعن ما يطلو لهن، لكن الطراز الأكثر انتشاراً هو باقة من الجواهر تشبه الأزهار الحقيقية، مثلاً، البراعم من اللؤلؤ، الورود من الياقوت بألوانه المختلفة. الياسمين من الماس، النرجس من أحجار التويار، وغير ذلك. ترص زهور من

الأحجار الكريمة الملمعة ومطلية بعناية، من الصعب تصور شىء بمثل هذا الجمال. ينساب الشعر بطوله على الظهر، موزعاً فى جدائل رفيعة مجدولة باللؤلؤ أو الأشرطة عادة بكمية وفيرة.

لم أر فى حياتى شعوراً جميلاً على رؤوس النساء بهذه الغزارة. لقد أحصيت مائة وعشرين ضفيرة على رأس سيدة وكلها طبيعية، لكن على أن أعترف أن نسبة الجمال هنا أعلى من عندنا. أمر نادر رؤية سيدة شابة ليست شديدة الجمال. لديهن أجمل بشرة طبيعية فى العالم، وعيونهن غالباً سوداء وواسعة. أؤكد لك أن بلاط إنجلترا (رغم أنني أعتقد أن نساء هن الأجمال فى كل العالم المسيحى) لا يمكنه أن يضم مثل هذا العدد من الحسنات اللاتي يعيشن هنا تحت حمايتنا. هن يحققن حواجبهن، والتركيات واليونانيات لديهن عادة رسم العيون (من الداخل) بقلم أسود، وذلك يضيف من بعيد أو تحت ضوء الشموع جمالاً شديداً لسوادها. أتصور أن الكثيرات من سيداتنا سيبتهجن لو أتبع لهن معرفة هذا السر، إلا أنه يظهر بوضوح فى ضوء النهار. والنساء يصبغن أظافرهن بلون وردى. أعترف لم أستطع الاعتياد على هذه الطريقة لأنها لا تعجبني.

بالنسبة لأخلاقهن أو حسن سلوكهن أستطيع القول كما يقول المهرج أريكاً إنها مثل أخلاقنا، والسيدات التركيات لا يرتكبن ذنباً إلا لكونهن غير مسيحيات. وعندما عرفت أساليب حياتهن إلى حد ما، لا أطيق الحرية المسرفة ولا الغباء الشديد الذى اصطبغت به كتابات كل

من كتبوا عنهن. من السهل أن ترى أن لديهن حرية أكثر منّا. فلا توجد امرأة، مهما كانت طبقتها الاجتماعية، تخرج إلى الشوارع دون رداءين من المسلمين أحدهما يغطي وجهها كله فلا تظهر منه إلا عيناها، والآخر يخفى كل الغطاء الذى تضعه على رأسها ويتدلى إلى ظهرها، وتخفى جسدها كله بما يسمونه الفراجية التى لا تخرج أية امرأة من أية طبقة بدونها، ولها أكمّام ضيقة تصل إلى نهاية أصابعها، وتلتف حول جسدها فى شكل لا يبعد كثيرا عن رداء الفروسية. والفراجية التى يرتدينها فى الشتاء مصنوعة من الجوخ أما فى الصيف فتصنع من أقمشة بسيطة أو من الحرير. لك أن تتصورى إلى أى مدى يختفين تماماً وراء هذه الملابس فلا يمكنك أن تميزى السيدة من جاريتها. ومن المستحيل على أى زوج مهما كان شديد الغيرة أن يتعرف على زوجته عندما يلقاها، ولا يجرؤ أى رجل على لمس أو متابعة امرأة فى الشارع.

إلا أننى لا أجد سبباً واضحاً لمخاوف أولئك النسوة من غضب أزواجهن. فالثريات يضعن أيديهن على كل أموالهن ويأخذنها عند الطلاق، بالإضافة إلى ما يدفعه الزوج لهن عن طيب خاطر.

عموماً، أنا أعتبر النساء التركيات هن الوحيدات اللاتى يستمتعن بحريتهن من شعب هذه الإمبراطورية، فحتى رجال الديوان الخاص بمجلس السلطان يوليهن احتراماً وتبجيلاً كبيراً، والخليفة شخصياً عندما يتم حكم الإعدام على أحد الباشاوات لا يجرّد حريمه من الامتيازات التى يتمتعن بها إطلاقاً (ولا بيوتهن) التى تبقى بعيدة عن أى نقاش، وتؤول كلها للأرملة. وهن ملكات بالنسبة لجواريهن اللاتى

لا يسمح للزوج بالنظر إليهن حتى لا يثير رغبة الزوجة إلا واحدة أو اثنتان من العجائز تختارهما زوجته. ورغم أن قوانينهم تبيح للزوج الزواج بأربع زوجات، لم أر مثلاً واحداً لرجل من الطبقة الراقية استخدم هذا الحق، ولا هناك امرأة من الطبقة الراقية تقبل ذلك. وإذا حدث وكان الزوج متقلباً (وتلك أشياء تحدث) يبقى على عشيقته فى منزل مستقل ويزورها سرّاً كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، مثلما يحدث عندنا تماماً. من بين كل رجال الطبقة الأرستقراطية هنا، الدفتردار (وزير المالية) لديه عدد من الإماء تخصه هو شخصياً، يقمن فى الجزء الخاص به من المنزل (لأن الجارية إذا ذهبت لخدمة السيدة مرة واحدة صارت تحت تصرفها تماماً) ويقولون عنه إنه شخص فاسق خليع أو ما نسميه عندنا (منحل أخلاقياً)، وزوجته لا تلقاه بالمرّة رغم استمرارها فى العيش فى بيته.

هكذا ترين يا شقيقتى العريضة أن طبائع البشر لا تختلف كثيراً كما يريد كتابنا من الرحالة أن يقنعونا. ربما ازدادت رسائلنا تشويقاً وإمتاعاً لو أضفت إليها قصصاً عن العادات والتقاليد المدهشة من اختراعى الشخصى، لكن يبدو لى ليس هناك ما هو أروع من الحقيقة وأعتقد أنك لا تتقبلين ما يزيد على الحقيقة. أختتم خطابى بتكرار تأكيد الحقيقة الكبرى أننى على قيد الحياة حتى اليوم.

شقيقتك المخلصة

* * *

إلى السيد بوب

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

لعلك تتوقع على الأقل شيئاً بالغ الجدة والطرافة فى هذا الخطاب،
بعد أن قمت برحلة لم يقم بها مسيحي منذ ما يقرب من قرن من الزمان.
أما الحدث الذى وقع لى والأكثر جدارة بالذكر، فهو أننى أوشكت على
السقوط فى نهر هبروس (اسمه ماريسا ويصب فى بحر إيجه)، لو كان
لى اهتمام بالمجد الذى يلحق باسم المرء بعد وفاته، لكان مدعاة لشديد
أسفى أن فاتتنى تلك النهاية الرومانسية من السباحة فى نفس النهر
الذى قال فيه فرجيل أبياتاً شعرية على لسان أورفيس وموسيقاه منذ
عصور طويلة.

من يستطيع سبر أغوار تلك الكلمات والعثور فيها على موضوع
يصف العديد من التحولات السياسية، ويمكنه أن يعيد صياغتها للعالم
فى قالب شعرى بطولى؟

هل تتساوى أقدارنا كما تتساوى أرواحنا؟

وهذه الأبيات الزائفة التى لم أسمع مثلها من قبل تشعرنى بقنوط
لأنها أبيات غير عادية ولا تكتب إلا فى مناسبة غير عادية مثل الموت. فى
الوقت الحاضر الذى أكتب لك فيه أقيم فى منزل على ضفاف نهر
هبروس. تتدفق مياهه تحت نوافذ حجرتى. حديقتي مليئة بأشجار

السرو السامقة، على أغصانها أعداد كبيرة من أزواج الحمام الحقيقية،
التي تتناجى من الصباح للمساء. لا أعرف كيف أصف كيف تقتحم
رأسى فى تلك الساعة الفاظ وقوافى مثل أشجار وأغصان ونذور وبذور!
ألا يمكنك أن تعترف، حتى لمجرد تشجيعى، إن الأمر أكثر من مجرد
النضج العادى الذى يمكن أن نقاوم به الانسياق مع أفكار الشعر
الشريرة، فى مكان تمثل الحقيقة فيه كل أفكار الشعر الرعوى ولو مرة؟
الصيف تقدم بالفعل فى هذا الجزء من العالم، وعلى بعد عدة أميال حول
أدرنة تحولت الأرض كلها إلى حدائق، واصطفت أشجار الفاكهة على
ضفاف الأنهار، ينتزه كبار القوم من الأتراك تحتها كل مساء، ليس
سيراً على الأقدام، فهم لا يستمتعون بالمشى، لكنهم يأتون جماعات إلى
إحدى البقع الخضراء الظليلة، فيبسطون سجادة يجلسون عليها
يشربون قهوتهم، ويستمتعون بغناء جارية حسنة الصوت تغنى أو تعزف
على آلة موسيقية. كل عشرين خطوة تجد واحدة من هذه المجموعات
الصغيرة، جالسين يستمعون إلى خرير مياه النهر، وهذا النوق منتشر
بين الجميع فالحدائق تمتلئ بالمواطنين، غالباً أراهم بصحبة أطفالهم
يجلسون على الضفاف ويعزفون على آلات موسيقية بسيطة تطابق
وصف الفيسستولا (الشبابة) وهو مزمار قديم يصنع من قصبتين
مختلفتى المقاس، يصدر صوتاً بسيطاً لكنه عذب رخم.

ربما يكون السيد إديسون (مؤلف رحلات جليفر) قد قام هنا
بتجاربه التى يحكى عنها فى أسفاره، حيث لا توجد آلة موسيقية من تلك

المنحوتة فى تماثيل الإغريق أو الرومان لا تجدها فى أيدي أهل هذا البلد. يسلى صغار السن أنفسهم عادة بصنع أكاليل يزينون بها حملاتهم التى يحبونها، ومعظم ما رأيته منها جميل الألوان وملئ بالزهور، ملقاة تحت أقدامهم فى أثناء غنائهم أو عزفهم. وذلك ليس حصيلة قراءتهم للروايات العاطفية، إنما هى عادة قديمة هنا وطبيعية بالنسبة لهم، مثل المبارزة بالنابيت ومثل كرة القدم بالنسبة للقرويين الإنجليز، ولطف الطقس ودفؤه يمنعان الرياضات العنيفة، ذلك الطقس الذى لم يسمع به أحد بمثل هذا الجمال كما هو فى بلادهم، ومن الطبيعى أن يثير فيهم روح الكسل وبغض العمل التى يغمس فيها كثيرون منهم. أولئك البستانيون هم طبقة القرويين السعيدة الوحيدة فى بلاد الأتراك. وهم يمتلئون المدينة بأكملها بالفواكه والأعشاب العطرية ويعيشون حياة سهلة. ومعظمهم من اليونانيين يقيمون فى منازل صغيرة وسط حدائقهم، حيث تحظى زوجاتهم وبناتهم بقدر من الحرية لا يتاح فى المدينة، أقصد خروجهن سافرات دون حجاب. وهؤلاء النسوة شديداً النظافة والحسن ويقضين أوقاتهن يعملن على الأنوال تحت ظلال الشجر.

لم أعد أرى فى ثيوقراط كاتباً رومانسياً، فهو لم يقدم أكثر من صورة بسيطة لأسلوب حياة الفلاحين فى بلاده، ولعلمهم قبل أن يحيق بهم الظلم بالوقوع تحت الاحتلال كان لديهم الرغبة فى الترقى إلى الوظائف التى يعمل بها الجزء الأفضل منهم حالياً. ليس لدى شك أنه لو

ولد فى بريطانيا، لامتلأت أناشيده الرعوية بأوصاف درس الحنطة وخضّ اللّبن وهى أشياء غير معروفة هنا، فالحنطة كلها تسحقها الثيران تحت أقدامها، أما الزبدة فلم يسمعوها عنها. (أقول هذا وأنا أشعر بالأسى).

أعدت هنا قراءة ترجمتك لهوميروس، وقد استمتعت بها متعة لا حد لها، واتضح لى معنى كثير من المقطوعات الصغيرة، لم أكن أدرك قبل ذلك ما بها من جمال، كثير من الملابس والأزياء من الطراز السائد وقتها، ومازالت تستخدم اليوم، ولا أتعجب لوجود الكثير منها على الرغم من انتمائها لعصر موغل فى القدم، ولا توجد فى بلد آخر، فالأتراك لا يشغلهم كثيراً تقديم الأنماط الخاصة بهم كما يفعل غيرهم من الشعوب، ممن يتصورون أنفسهم أرقى من غيرهم. لن أطيل عليك بالحديث عن كل ما يتعلق بالأعراف المعاصرة. لكنى أؤكد لك أن الأميرات وسيدات عليّة القوم يمضين وقتهن فى النسيج على الأنوال وتطريز الطرح والأثواب تحيط بهن الوصيفات والخادومات وعادة فى أعداد كبيرة، بنفس الطريقة التى توصف بها أندروماك وهيلانة. ينطبق وصف الزنار الذى كان يرتديه مينالوس تماماً على الزنار الذى يرتديه كبار القوم من الرجال هذه الأيام، وهو يثبت بمشابك من الذهب ومشغول كله بتطريز فخم. والطرحة البيضاء التى كانت هيلين تلقىها على وجهها لا تزال شائعة، وكلما رأيت عدداً (وأنا أراهم كثيراً) من الباشاوات كبار السن بلحاهم الوقورة يجلسون يتشمسون، أتذكر أن الملك الطيب بريام

ومستشاريه كانوا يفعلون ذلك. طريقتهم فى الرقص هى نفس الطريقة التى كانت تغنى وترقص بها ديانا على ضفاف نهر الإيروتاس. حتى الآن مازالت السيدة الكبيرة تقود الرقص ثم تتبعها جماعات الشابات يقتفين خطواتها، وإذا غنت يتولين الرد عليها بنغمات الطرب والبهجة، ثمّة شىء عذب فيهن لدرجة مدهشة، فالخطوات متنوعة حسب رغبتها، لأنها تقود الرقص، لكن دائما فى إيقاع مضبوط، والرقص هنا أجمل من رقصنا كله، على الأقل من وجهة نظرى. أحيانا أقف معهن فى الصف، لكنى لست ماهرة بالدرجة التى تسمح لى بقيادتهن، قد أستطيع ذلك فى الرقصات اليونانية لكن الرقص التركى أمر مختلف تماما.

كان ينبغى أن أخبرك فى المقام الأول أن العادات الشرقية تلقى كثيرا من الضوء على عديد من مقطوعات الكتاب المقدس التى تبدو غريبة علينا، وتبدو محملة بما يمكن أن نطلق عليه لغة الكتاب المقدس. إن اللغة التى يتحدث بها العامة أو السوق من الأتراك شديدة الاختلاف عن تلك التى يتحدثها البلاط أو الشخصيات ذات المقام الرفيع الذين يخلطون كثيرا من الكلمات العربية أو الفارسية فى حديثهم لدرجة بحيث يمكننا أن نسميها لغة أخرى تماما. ومن السخيف استخدام التعبيرات السوقية فى الحديث مع نوى المقام الرفيع أو السيدات، وذلك شبيه بالحديث بلغة يوركشاير العامة أو سومرستشاير فى حفل استقبال رسمية. بالإضافة لهذا الاختلاف هناك ما يسمونه اللغة الرفيعة، وهو أسلوب خاص بكتابة الشعر، وهو نفس أسلوب الكتاب المقدس تماما.

لعلك تسعد للحصول على مثال أصيل لهذا، ويسرنى أن يكون فى استطاعتى إشباع فضولك فى هذا الصدد، وأن أرسل لك نسخة صحيحة أصلية من أشعار إبراهيم باشا، وجميع يحبونها، كتبها خصيصاً للأميرة الشابة التى كتب كتابه عليها، ولا يزال غير مسموح له بزيارتها بمفرده، رغم أنها توشك أن تقيم فى بيته. إنه رجل ذكى ومثقف، وسواء كانت أشعاره جيدة أو لا، لك أن تثق أنه فى تلك المناسبة ليس بحاجة لمساعدة أفضل شعراء الإمبراطورية، لأن أشعاره من الممكن اعتبارها عينة من أفضل الشعر الذى كُتب، ولا أشك أنك ستوافقنى الرأى بأنها من أروع القصائد التى تشبه نشيد الإنشاد الذى كتبه كذلك النبى سليمان خصيصاً لعروس ملكية.

أشعار تركية للسلطانة، كبرى بنات السلطان أحمد الثالث.

(١)

يطوف البلبل بين الكروم

يتوق بحثاً عن الورود

هبط إعجاباً بجمال الكروم

فعدوبتك وسحرك سلبا روحى

عيناك سوداوان وفانتان

لكن بهما شروداً وأنفة كعيون المها

(٢)

أتوق للوصل فيؤجل يوماً بعد يوم
فلن يسمح لى السلطان القاسى أحمد
أن أرى وجنتيك توردتا وفاقتا الورود
لا أجرؤ أن أقتطف منك قبلة
فعذوبتك وسحرك سلبا روحي
عينك سوداوان فاتنتان
لكن بهما جموح وأنفة كعيون المها

(٣)

تنهد إبراهيم باشا حزناً فى هذه القصيدة
أصاب قلبه سهم من عينيك
آه ! متى يحين وصالك ؟
هل سأنتظر طويلاً ؟

فعذوبتك وسحرك سلبا روحى

آه يا سلطنة ! يا لعيون العزلان عيونك - أنت ملاك بين

الملائكة !

أروم وصالك ووصالك لا يتحقق

ألا يسعدك أن تملكى قلبى وتسكنيه ؟

(٤)

نحيبى يشق عنان السماء !

وعيونى لا تنام !

التفتى إلى يا سلطنة - دعينى أمتع ناظرى بمحياك الجميل .

الوداع يا حبيبتى ! سأدفن فى قبرى

لو ناديتنى سأعود

قلبى مشتعل كالكبريت ، يوشك أن يحترق لهفة

يا تاج العمر ! ونور العين !

سلطانتى ! أميرتى !

أغمر وجهي في التراب

أغرق في دموعي الحارقة - أهذى

ألا رحمة لديك ؟ ألا تلقين لى بنظرة ؟

لقد عانيت كثيرا لأترجم هذه القصيدة ترجمة حرفية، ولو كنت ملماً بأسلوبى فى الترجمة لوفرت على مشقة التاكيد أنها تخلو من أية لمسة شعرية. فى رأى الشخصى أن الأصل به كم وافر من الجمال (السماح بأخطاء لا مفر منها فى ترجمة نثرية إلى لغة أخرى شديدة الاختلاف). التشبيه بعيون الغزلان أسعدنى للغاية (رغم أنه غير مطروق فى الأدب الإنجليزى) ولأنى أعتقد أنها صورة بلاغية عن توقد المشاعر والأنفة فى عيون حبيبته، علّق مسيو بوالو بعدل شديد أننا لا يجب أن نحكم إطلاقاً على إبداع مؤلف قديم بتقييم معاصر، فربما كان شاعراً رائعاً جداً فى عصره فى حين يبدو لنا اليوم ضعيفاً أو غير مألوف. أنت مطلع على أدب هوميروس وتستطيع ملاحظة نفس الشيء، ولا بد أن هذه هى نفس رؤيتك وأحاسيسك تجاه الشعر الشرقى.

تكرار نهاية المقطعين الأولين يقصد به شكل من أشكال الكورس، وهو مناسب لأسلوب الكتابة القديم حيث تغيرت موسيقى القصيدة بوضوح فى المقطع الثالث، وتغير قرار القصيدة، وأعتقد أنه بأسلوب فنى بارع زادت عاطفيته فى الخاتمة، لأنه من الطبيعى أن يدفى الناس أنفسهم بما يكتبون، خاصة الموضوعات المتعلقة بالقلوب والمشاعر

فتلمس المشاعر بشكل أكثر قرئاً من عاداتنا العصرية فى ختام الأغنية العاطفية بنهاية لا تتصل بموضوعها الأصلي. المقطع الأول وصف لموسم من مواسم السنة، حيث يمتلئ الريف بطيور العنديلين وشذا الورود، وهى صورة شعرية مقترنة بالأدب العربى، مألوفة هنا مثل ألفتنا بأى جزء من كتابات أوفيد، ويحدث نفس الشئ مع القصيدة الإنجليزية التى لابد أن تبدأ بقول: والآن تغنى فيلو ميلا، أوماذا إذا تحولت تماماً إلى أسلوب الشعر الإنجليزي فلنجرب ونرى الناتج.

المقطع الأول

الآن تردد فيلوميل لحنها الحنون

وقد قضت الليل بطوله تعاني ألمها الممتع :

طفت فى البساتين أروم سماع الأغنية الجامحة

. ورأيت هناك وجهاً أكثر جمالاً من الربيع

عيونك الراسعة كعيون المها تحيطها ألف هالة

كالمها متألقة مفعمة بالحياة وكالمها أيضاً شاردة

المقطع الثانى

عبثاً وعدونى بنوال نسيم الجنة

آه ! يا سلطانتى القاسية ! تؤجلين مسراتى !
بينما السحر يخز ويطعن فى قلبى العاشق
لا أجرؤ حتى على قبلة تسكن شوقى
لتلك العيون ! الواسعة كعيون المها
كالمها متألقة مفعمة بالحياة وكالمها أيضا شاردة

المقطع الثالث

يشكو عاشقك البائس فى هذه السطور
من جمالك العزيز يقتله ألما
متى يحين وصالك ؟
هل على أن أنتظر طويلا ؟
آه ! يا سلطانتى الجميلة ! البكر صاحبة الجمال السماوى !
هل لك أن تدركى مدى ألى دون رحمة ؟

المقطع الرابع

السماء ترق لنحيبى وعذابى

أعاف الضوء، والنوم هجر عيوني،
التفتى إلى يا أميرة وإلامات عاشقك
غارفاً فى الأرق، أتوق لآخر وداع
نادينى يا إلهتى لتعود لى الحياة
مليكتى! ملاكى! شعلة قلبى المفتون!
إنى أهذى - قلبى يحترق بنار سماوية!
ارحمى ألى الذى نفحته فى بسحرك."

أطلقت لنفسى الحرية فى القصيدة الثانية أن أتبع ما رأيت أنه
المعنى الحقيقى الذى قصده الشاعر، رغم أنه ليس ترجمة حرفية. فبقوله
إنه هبط إعجاباً بجمال الكروم وأن سحرها سلبه روحه، فهمت أنه يصور
خيالاً شعرياً لرؤيته إياها للمرة الأولى فى حديقة، حيث كان يستمتع
بجمال الربيع. لكن لم تعجبني مقارنه عينها بعيون المها، على الرغم من
أنه ربما يكون تجديدًا يمنحها ملمحاً ساخرًا فى لغتنا. ولم أستطع أن
أحدد إذا كنت قد نجحت فى الترجمة أم لا، كما لا أعتقد أن اللغة
الإنجليزية مناسبة للتعبير عن مثل تلك المشاعر الجامحة، التى من النادر
أن يشعر بها أحد منّا، أو عما إذا كنا نرغب فى استخدام تلك التعبيرات
المنتشرة بقوة فى اللغة التركية.

ها أنت ترى أنتى وصلت إلى مدى بعيد فى تعلمى للغات الشرقية،
وإذا أردت الحقيقة، أنا أدرس باجتهاد شديد. أتمنى أن تمنحنى
دراستى فرصة لإشباع فضولك الذى يمثل لى أقصى ميزة أملها من
هذه الدراسات.

* * *

إلى السيدة سارا شيسويل
أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

فى رأى يا عزيزتى سارا، كان ينبغى على أن أغضب منك لعدم
ردك على رسالتى المطولة من أغسطس حتى ديسمبر، بدلاً من أن
أعتذر عن عدم كتابتى حتى الآن. أنا لى عذر وجيه لصمتى، لأننى قمت
برحلة برية وعرة، إلا أنها لم تنته نهاية سيئة كما قد تتصورين. أنا هنا
على مايرام ولست فى العزلة التى تتخيلينها. هناك عدد كبير من
اليونانيين والفرنسيين والإنجليز والإيطاليين يعيشون فى حمايتنا،
يفتحون لى قصورهم من الصباح حتى المساء، وأؤكد لك أن كثيرات
منهن سيدات رائعات، فلا إمكانية لى مسيحيين أن يعيشوا بسهولة
تحت هذا الحكم إلا فى حماية سفير إنجليزى، وكلما ازداد ثراؤهم
ازداد الخطر المصدق بهم .

تلك الحكايات المروعة التى سمعتها، عن انتشار الطاعون، ليست صحيحة تماماً. أعترف لك أننى سمعت الكثير من اللفظ حول هذا الموضوع الذى أثار فى أفكاراً مرعبة، ومع ذلك أعتقد أن الأمر أكثر قليلاً من انتشار الحمى. والدليل على ذلك مرورنا على بلدين أو ثلاث بها إصابات شديدة بالعدوى. فى المنزل المجاور للبيت الذى كنت أقيم فيه (فى إحدى تلك الأماكن) مات شخصان بالعدوى. من حسن حظى لم أعرف شيئاً عن الأمر، وقد أقنعونى أن طباخنا الثانى الذى سقط مريضاً هنا كان مصاباً بمجرد برد شديد. على أى حال ، أرسلنا له طبيبنا يعتنى به، وبالأمر عاد الاثنان بصحة جيدة، وكشفوا لى ذلك السر، وأخبرونى أنه كان بالفعل مصاباً بالطاعون.

وهناك كثيرون نجوا منه وحتى الهواء ليس ملوثاً بالعدوى. وأقنعونى أنهم سيقضون على المرض تماماً مثلما حدث فى إيطاليا وفرنسا. ورغم أن الأمر لم يخل من الأضرار، فإنهم ليسوا شديدي الجزع بشأنه، وراضون بمعاناة هذه العلة، بدلاً من عدد الأمراض التى نعانيها نحن، وهم غير معتادين عليها إطلاقاً.

بخصوص الأمراض، سأحكى لك شيئاً أثق تماماً أنه سيجعلك تتمنين لو كنت هنا. تعرفين أن مرض الجدري، لا فرار منه، وهو منتشر جداً بيننا، أما هنا فهو لا يؤذى بالمرّة بسبب اختراعهم لنوع من التطعيم ضده، يتعاطونه كنواء له. هناك مجموعة من النسوة العجائز، أخذن على

عانتقهن إعداد تلك الوصفة الطيبة كل خريف فى شهر سبتمبر، عندما تنخفض درجة الحرارة. يرسل الناس أحدهم للآخر لمعرفة إذا كان أى فرد فى العائلة قد أصابه الجدرى، ويقيمون الحفلات لهذا الغرض وعندما يلتقون (عادة خمسة عشر أو ستة عشر فرداً) تأتى المرأة العجوز ومعها صدفة جوزة مليئة بذلك الدواء المضاد للجدرى، وتسالهم أى ورید يفضلون فتحه، وفى الحال تشق فتحة فى المكان الذى يحدثونه لها بإبرة طويلة (لا تسبب أى ألم أكثر من مجرد خدش عادى)، وتضع فى الورید مصلاً، بقدر ما يمكن لرأس إبرتها أن تحمل، وبعدما تضمد الجرح الصغير بقطعة صغيرة مجوفة من الصدفة، وبهذه الطريقة تفتح أربعة أو خمسة أوردة. لدى اليونانيين خرافة شائعة، بفتح فتحة فى منتصف الجبهة والذراعين والصدر كعلامة الصليب، لكن تأثير هذه الفتحات ضئيل، وهذه الجروح تترك ندوباً صغيرة، ومن لا يؤمن بهذه الخرافة لا يميل لهذه العملية، بل يختارون لها السيقان، أو ذلك الجزء المختفى من الذراع. يلعب الأطفال أو المرضى الصغار مع بقية اليوم، ويكونون بصحة جيدة حتى اليوم الثامن. ثم تمسك بهم الحمى فيلازمون الفراش لمدة يومين، نادراً ما يصل الأمر إلى ثلاثة أيام. ومن النادر لمن تجاوزوا العشرين أو الثلاثين من أعمارهم أن تجد أية آثار فى وجوههم، فبهذه الطريقة لا يترك المرض أى أثر على الإطلاق، وفى ثمانية أيام يعودون كما كانوا قبل الإصابة به تماماً. تبقى الجروح متقرحة فى أثناء الإصابة بالعدوى، وأظن ذلك يخفف من ألمها. يخضع

الآلاف كل عام لهذه العملية، ويقول السفير الفرنسي بلطف إنهم يأخذون التطعيم كنوع من اللهو، مثلما يتعامل الناس مع مستحضر تجميلي في البلاد الأخرى. لا يوجد دليل واحد على أن شخصاً مات بسبب الإصابة به، ولك أن تصديق، فأنا مقتنعة تماماً بأمان هذه التجربة، لأننى أنوى تجربة هذا المصل مع ابنى العزيز.

لدى من الإحساس الوطنى ما يدفعنى أن آخذ على عاتقى نشر هذا الاختراع المفيد فى إنجلترا، ولن تعيينى الحيل عن الكتابة لبعض أطبائنا بشكل خاص عنه، إذا عرفت أن أياً منهم لديه من الفضيلة وحب الخير ما يجعله يقضى على ذلك المرض اللعين لصالح الإنسانية. لكن هذا الوفاء يعود عليهم بالنفع ولن يدعهم يتحملون مشقة وضع نهاية له. ربما إذا بقيت على قيد الحياة إلى حين عودتى قد أشن عليهم الحرب. بهذه المناسبة أعجب ببطولة قلب صديقتك.

* * *

إلى السيدة ثيستيلثوايت

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

بمقدورى الآن أن أخبر سيدتى العزيزة أننى وصلت بسلام الله إلى نهاية رحلتى الطويلة. إن أضجرك بالحكى عن المتاعب التى عانيت بها. كان

لابد أن تشاهدى بعضاً مما رأيته هنا، لأن خطاباً من تركيا لا يحمل فى طياته شيئاً غير عادى يعادل خيبة الأمل الكبيرة التى سيستقبلنى لها بها زوارى فى لندن إذا عدت إلى هناك دون أن يكون فى جعبتى غرائب أقصّها عليهم.

ماذا أقول لك؟ مؤكد لم يحدث أن رأيت جمالاً فى حياتك، وربما سيكون وصفها جديداً عليك، أؤكد لك أننى أنا أيضاً استغربتها جداً للوهلة الأولى، ورغم أننى رأيت مئات اللوحات لتلك الحيوانات، فإننى لم أر لوحة واحدة تشبهها إلى الحد الذى يعطى فكرة حقيقية عنها. سأرسم لك صورة واضحة، وربما تكون غير دقيقة، حيث لم يقم بها أحد من قبل، اعتبرتها نوعاً من الغزلان، سيقانها وجذوعها ورقابها تشبهها تماماً، ولونها كذلك شديد الشبه بها. صحيح أنها أكبر حجماً بكثير لأنها أعلى من الحصان، وأكثر رشاقة، فبعد هزيمة بيتروارادين فاقت سرعتها سرعة الخيول، وجلبت أول أخبار عن خسارة المعركة فى بلجراد، ولم تكن على الإطلاق أليفة بكل معنى الكلمة واضطر سياسها لربط أحدها بالآخر بحبال متينة، كل خمسين جمل بحبل واحد، يقودها الحمار الذى يركبه قائدها. رأيت ثلاثمائة منها فى قافلة واحدة. كانت تحمل أكثر من أى حصان، لكن تحميلها يمثل فناً خاصاً بسبب السنام الموجود فى ظهرها. بدت لى مخلوقات دميمة، رءوسها ليست جميلة وغير متناسبة مع أجسادها. حملت تلك الحيوانات كل الأمتعة واستخدمت للحرق كالجاموس، والجاموس كذلك حيوانات لا تعرفينها،

فهي أكبر وأكثر فظاعة من الثيران، قصيرة ذات قرون سوداء قريبة من رءوسها تنمو للوراء، يقولون إنها تصبح جميلة جداً عندما يصقلونها. وشعر جلودها قصير جداً وعيونها بيضاء وضيقة كالشياطين. يصبغ الفلاحون ذيولها وشعور جبهتها باللون الأحمر الزينة.

أما الخيول هنا فلا توكل إليها أى أعمال مجهدة، ولا هى مناسبة لذلك على الإطلاق. فهي جميلة ومفعمة بالحياة لكنها بشكل عام قليلة العدد، وليست قوية كتلك التى تربي فى بلاد أكثر برودة، وهى شديدة الوداعة بكل حيوياتها ورقتها وثباتها. لدى حصان أبيض صغير أحبه، لدرجة أننى لا أجرؤ على ركوبه، فهو يتبختر تحتى بحيوية شديدة، ربما تعتقدين أننى شجاعة لدرجة الجراءة على امتطائه، لكنى أؤكد لك أننى لم أمتط حصاناً فى حياتى واستطعت السيطرة عليه. ويعد سرجى الأول من نوعه فى هذا الجزء من العالم، وهم يحملون فيه بكثير من الدهشة، مثلاً حدث مع سفينة كولومبوس فى أمريكا. هنا يربون بعض الطيور كنوع من التوقير الدينى، ولذا يعاملونها باستثناء شديد، والسلاحف لبراءتها، والقلق يعتبرونه فالاً حسناً للحج إلى مكة. والحقيقة هذه الكائنات أسعد مخلوقات تحت لواء الحكم التركى، وهى تعى تميزها فتسير فى الشارع دون خوف، وعموماً تشيد أماكنها فى الأنوار السفلى من المنازل. وهى مخلوقات سعيدة بتمييزها. أما العامة من الأتراك فمقتنعون تماماً أنهم لن يهاجموا هذا العام بالحرائق ولا الطاعون. حظيت بسعادة وجود حظيرة من حظائرها المقدسة تحت نافذة حجرتى مباشرة.

ولأحدثك الآن عن حجرتي، أظن أن وصف المنازل هنا سيكون جديدا عليك مثل وصف أعشاش الطيور وحظائر البهائم. أظن أنك قرأت في معظم حكاياتنا عن تركيا أن بناياتها بائسة أكثر من أى مكان فى العالم. أستطيع أن أتكلم عن ذلك الموضوع بمعرفة تامة لأننى واجت الكثير منها، وأؤكد لك أنها ليست كذلك بالمرّة . نحن نقطن الآن فى قصر يخص الخليفة . أعتقد حقاً أن طرز المعمار هنا متناغمة جداً ومناسبة للمكان. صحيح أنهم لا يهتمون كثيراً بالناحية الجمالية خارج بيوتهم، وأغلبها مبنى بالخشب، وفى ظنى أنه سبب كثير من الإزعاج، لكن هذا ليس نتيجة سوء نوق الشعب بل هو انصياع لأوامر الحكومة. فكل البيوت لدى موت صاحبها تؤول للملكية الخليفة، ولذلك لا يهتم أحد بالإنفاق الكثير. حيث إنهم غير واثقين أن ما سينفقونه سيؤول إلى عائلاتهم. وتكمن كل التصميمات فى مجرد بناء منزل واسع ملائم لغرضه، يمكن أن يفى بهذا الغرض فى حياتهم، ولا يهتمهم إذا سقط فى العام التالى.

كل البيوت، الكبير والصغير منها، مقسمة إلى جزءين منفصلين، يربط بينهما ممر ضيق. البيت الأول أمامه فناء كبير وتحيط به الشرفات المتقوذة التى تبدو لى رائعة. هذه الشرفة تؤدى إلى كل الحجرات، وهى عادة حجرات كبيرة، وبها صفاان من النوافذ ، الصف الأول مغطى بالزجاج الملون وفى المنازل القليلة المكونة من طابقين، كل منهما به نفس الشرفات،الدرج عريض ولا يتجاوز ثلاثين درجة. أحد المنزلين يخص

السيد والمنزل المجاور له يخص الحريم ويسمى الحرملك ويمثل الشقة التى تقيم فيها السيدات، وبه كذلك شرفة حوله تؤدى إلى الحديقة ، تفتح عليها كل النوافذ ونفس عدد الحجرات فى المنزل الثانى ، لكنها أكثر بهجة وروعة فى ألوان طلائها وأثاثها. الصف الثانى من النوافذ منخفض جدا وله قضبان كقضبان نوافذ الأديرة، الحجرات كلها مفروشة بالسجاجيد الفارسية، وهى مرفوعة من أحد طرفيها بارتفاع قدمين (سجادة حجرى مرفوعة من طرفيها الاثنين). توجد أريكة مغطاة بسجادة من نوع أكثر قيمة وثناء، ويحيط بها من الجانبين نوع من الأرائك المنخفضة بارتفاع قدم مغطى بحرير ثمين حسب ذوق صاحبها. سجادتى من القماش القرمزى بشراشيب ذهبية، حولها مقابل للحائط صفان من الوسائد، الصف الأول وسائد كبيرة جدا والتالى أصغر منها، ويتخذ الأتراك من هذه الوسائد طريقة لاستعراض الأبهة، فهى غالباً مقصبة أو مطرزة بسلوك الذهب فوق الحرير الأبيض، يفوق كل ما رأيت بهجة وروعة. مقاعدهم مريحة جدا، لن أحتمل بعد الآن الجلوس على الكراسى المتعبة. أسقف الحجرات منخفضة ولا أظن أن ذلك عيباً، والسقف دائماً من الخشب، وغالباً مطعم أو مطلى ومذهب. وهم لا يستخدمون الستائر، فتبدو الحجرات كلها مبطنة بخشب الأرض المثبت بمسامير من الفضة أو مزركش بالزهور، والحجرات مفتوحة على أماكن كثيرة بأبواب أوكورديون، وتؤدى إلى الخزائن، أعتقد أنها ملائمة أكثر من حجراتنا. وبين النوافذ عقود صغيرة لتوضع بها أوانى مليئة بالعطور

أو سلال الزهور. لكن أكثر ما أبهجنى هو طراز النوافير الرخام فى الجزء الأسفل من الحجرة التى تنتشر حولها عدة مزاريب مياه وتمنح فى الوقت نفسه بعض البرودة اللطيفة، وعذوبة صوت طرطشة المياه، وهى تسقط من حوض وتصب فى آخر. بعض هذه النوافير باهظ التكلفة. كل منزل به حمام تركى ويتكون عادة من حجرتين أو ثلاث حجرات صغيرة ، سطحها وأرضها مبلطة بالرخام وبها أحواض وصنابير مياه وجميعها مناسبة سواء لحمام بارد أو ساخن.

ربما تندمشتين لهذا الوصف، شديد الاختلاف عن كل ما سمعته واستمتعت به من كتب الرحالة عامة، فأغلبهم مولعون بالكلام عما لا يعرفونه. ربما لا يحظى بهذه المعرفة إلا الشخصيات المتميزة أو فى مناسبات خاصة جداً، أن يسمح لشخص مسيحى بالدخول لبית واحد من على القوم، فحجرات الحرمك لا يدخلها غريب، حيث لا يظهرن عليه ولا يراهن، وشقق النساء مبنية كلها فى الخلف، بعيدة عن العيان، وتطل فقط على الحدائق المسيجة بحوائط مرتفعة، وهى حدائق تخلو من الممرات الصغيرة المعهودة لدينا، مزروعة بأشجار سامقة تنشر ظلالها كبيرة على المكان، وتمثل بالنسبة لى مشهداً مبهجاً. فى منتصف الحديقة يقوم الكشك وهو عبارة عن قاعة كبيرة تزين عادة بنافورة لطيفة فى منتصفها. وترتفع عن الأرض بمقدار تسع أو عشر درجات، وتسج بالمشربيات المذهبة، يحيط بها الكروم والياسمين وأشجار الجدى ذات الزهور طيبة الرائحة المزبوجة كأنها حائط أخضر. الأشجار العالية

مزروعة حول هذه البقعة وهو منظر يثير البهجة ويمتع الناظرين، وتقضى السيدات معظم أوقاتهن فى ذلك المكان، يستمتعن بالعزف على الآلات الموسيقية أو أشغال الإبرة. وفى الحدائق العامة أكشاك عامة، يرتادها لشرب القهوة والشربات أولئك الذين لا يملكون مثل هذه الإمكانيات فى بيوتهم ، أو لم يهتموا ببناء بيوت متينة، ولا يهتم الأتراك ببناء بيوت متينة وأكبر دليل على ذلك ما نراه من مساجدهم ؛ فكلها مبنية من الحجر السلس، وقنادقهم أو خاناتهم شديدة الجمال وكثير منها به ساحة فسيحة حولها دكاكين تحت العقود الحجرية حيث يقيم الصناع الفقراء فيها مجاًناً. ودائماً يلحق بها مسجد، أما صحن الخان فغالباً يكون صالة فخمة تسع ثلاثمائة أو أربعمائة شخص، الفناء فسيح والأروقة المعمدة المسقوفة من حوله تشبه طابع مباني مدارسنا. أعترف أن هذا المعمار يعد قطعة رائعة من المنشآت أكثر من معمار الأديرة.

أعتقد أننى أخبرتك هذه المرة بالكثير . إذا لم تروقك الموضوعات التى اخترتها، أخبرينى عن الموضوعات التى تحبين أن أكتب لك عنها، فلا يوجد من هو أكثر منى رغبة فى تسليتك.

* * *

إلى السيدة هيويت

أدرنة فى ١ أبريل ١٧١٧

لعلك يا عزيزتى السيدة هيويت تظنين أننى أغبى كائن خلقه الله، لإهمالى مراسلتك، لكن حتى هذه اللحظة كان الأمر خارجاً عن إرادتى تماماً. تلك الشهور الثمانية الماضية كنت ألث جيئة وذهاباً، دون أن ألتقط أنفاسى. مأخوذة تماماً، إما فى سفر سريع أو حفل استقبال رسمى لا يمكن التنصل منه. رغم أن هذه الأمور كما تعلمين لا تبهجنى. فأتأ أحب الترحال ولا يمكننى الآن أن أشكو بأننى لم أحظ بالكثير منه، لأننى طفت الآن عبر كل الأراضى التركية فى أوروبا، ناهيك عن أسفارى عبر المجر وبوهيميا وجولتى فى ألمانيا، لكن كانت كلها تفاهات قياساً بالرحلة الأخيرة، لا يمكننى على أى حال (حمدا لله) أن أشكو من معاناة التعب لا بالنسب لصحتى ولا صحة عائلتى ، فابنى فى خير صحة وعافية. مؤكداً أن هذا البلد من أفضل بلاد العالم، فحتى الآن كل ما رأيته جديد على كائننى أشهد كل يوم مشهداً أوبرالياً جديداً. لن أضجرك بالحكى عن الأماكن وأنماط الحياة اليومية، وربما لا تشير فضولك، لكن سيكون لطيفاً أن أسمع منك بقدر ما تستطيعين عما يجرى فى ذلك الجزء الآخر من الأرض حيث تعيشين. قبل أن تتسلمى هذا الخطاب، لابد أن تخبرينى بكل ما رأيته فى الشهور الستة الماضية فى أى موضوع، وأنا متأكدة أنه سيكون جديداً على . فليدك مجال كبير

تكتبين لى عنه إذا اتسع صدرك لى ، لأن ذلك سيكون عطاءً كبيراً منك
وخالياً من التفاخر (أنا أقدر لك تعبك فى إرسال خطابات لى هنا)
وسيكون شديد النفع لروحك الكريمة التى أرجو من الله أن يلهمك التأمل
وعمل ما يمليه عليك ضميرك النقى.

* * *

إلى الكونتيسة مار

أدرنة فى ٨ أبريل ١٧١٧

كُتبت لك يا شقيقتي الغالية وإلى كل من يرسلوننى من أصدقائى
الإنجليز، من آخر سفينة سعدت إليها، ويعلم الله متى تحين لى فرصة
أخرى لأكتب لكم، لكنى لا أملك منع نفسى من الكتابة على الرغم من
أننى قد لا أتمكن من إرسال خطابى لك قبل شهرين. واعترافاً بالحقيقة
رأسى ملئ بالمسرات التى استمتعت بها بالأمس، ذلك أنه من
الضرورى والحتمى لراحتى أن أحظى ببعض الترويح. ودون إطالة فى
المقدمات سأحكى مباشرة.

كنت قد تلقيت دعوة على الغداء من حرم الوزير الأعظم،
ويكل ممنونية وسعادة أعددت نفسى لمتعة لم يحظ بها مسيحي من قبل.
وكان على أن أشبع فضولها قليلاً (لا أشك لحظة أنه سبب دعوتها لى)

فلا أذهب بثوب اعتادت رؤيته، وبناءً عليه ارتديت الزي الرسمي السائد فى بلاط فيينا، وهو يبدو أكثر بهاء وتألّقاً من أزيائنا الإنجليزية. على أى حال اخترت الذهب كسيدة عادية (غير معروفة) لتجنب أى إزعاج خاص بطقوس الحفل، فذهبت فى عربة تركية ولم يكن بصحبتى سوى المرأة التى تمثل حاشيتى والسيدة اليونانية التى تقوم بالترجمة. التقيت عند باب القصر بخصيها الأسود الذى ساعدنى على النزول من العربة باحترام شديد ، وقادنى خلال عدة غرف إلى حيث تقف جواريتها فى أبهى هندام مصفوفات على الجانبين. وجدت فى نهاية القاعة السيدة جالسة على كنبتها ترتدى صدرية من فراء السمور. تقدمت للقائى وقدمت لى اثنتى عشرة صديقة من صديقاتها بلطف شديد. إنها امرأة طيبة المعشر جداً، تقترب من الخمسين من عمرها. دهشتُ لملاحظة القليل من التآلق فى بيتها، فالأثاث متواضع للغاية، وفيما عدا مظهرها الشخصى وعدد جواريتها لاشئ يبدو باهظاً. خمنت ما أفكر فيه وقالت لى إنها لم تعد فى السن التى تجعلها تتفق وقتها أو مالها على المظاهر، ذلك أن كل نفقاتها تروح على البر والإحسان، وكل ما يشغلها الصلاة والدعاء لله، لم يكن فى حديثها أى تكلف أو ادعاء، فهى وزوجها يكرسان نفسيهما تماماً للتقوى وأعمال الخير. فهو لا يرفع عينيه إلى امرأة أخرى إطلاقاً، والأكثر غرابة أنه لا يلمس أية رشوة، على نقيض من سبقوه فى منصبه. وهو كثير الشكوك فى هذه النقطة، لدرجة أنه لم يتقبل هدية السيد ورتلى حتى تأكد تماماً أنها منحة معتادة خاصة بعمله يقدمها كل سفير.

لقد أمتعتنى بكل سبل اللطف والكرامات حتى وصل العشاء الذى قُدم طبقاً بعد آخر بعدد كبير، كلها أطعمة لذيذة حسب ذوقهم، ولا أعتقد أن ذلك سببى وربما سمعت عن تلك الطريقة فى تقديم الطعام. وأنا أستطيع الحكم على طعامهم، لأننى عشت ثلاثة أسابيع فى منزل أحد الأفندية فى بلجراد، وكان يقدم لنا أشهى الأطعمة بيد طهاته، مما أسعدنى فى الأسبوع الأول إلى أقصى درجة، لكنى أعترف أننى بدأت بعد ذلك أشعر بالقلق ورغبت أن يقوم طاهينا بتقديم طبق أو اثنين حسب ذوقنا نحن. لكنى أعزى ذلك للتعود. وأظن أنه من الطبيعى أن الشخص الهندى الذى لم يتذوق أطعمتنا يفضل عليها أطعمتهم. إن الصلصات التى يعدونها رائعة النكهة واللحم يشوى زيادة، وهم يضيفون لطعامهم قدرًا كبيراً من التوابل الحريفة. الحساء يُقدم فى آخر طبق، ولديهم عدد كبير من أطباق الخضروات المطهية مثلًا. أسفت جدا لضعف قدرتى أن أكل بالكثرة التى كانت السيدة تتمناها، وكانت جادة جدا فى تقديم كل الأطعمة لى. كان آخر شىء هو القهوة ثم الروانج العطرية القيّمة ، ركعت جاريّتان على ركبتيهما تطيبان شعرى وملابسى ومنديلى. بعد هذا الطقس أمرت جواريتها بالرقص والغناء ، فغنّين ورقصن وفى أيديهن آلات الجيتار، واعتذرت لى عن ضالة مواهبهن، قائلة إنها لم ترع مواهبهن فى ذلك الفن رعاية جيدة.

وأنا بالمقابل شكرتها، وعندما استأذنتها فى الانصراف، أعيدت لى نفس الطقوس التى تمت لدى دخولى، وكان المفترض أن أعود مباشرة

إلى منزلى، لكن السيدة اليونانية التي كانت بصحبتى رجعتى بإلحاح أن أؤد زوجة نائب الوزير الأعظم، قائلة إنه الضابط الثانى فى الإمبراطورية، ومن الواجب حقاً أن نلتقى به باعتباره الرجل الأول، لأن الوزير الأعظم واجهة فقط أما نائبه فهو صاحب السلطة الحقيقية. لم أجد كثيراً من التسلية فى منزل الحريم الذى غادرته وليس بى رغبة لدخول أى منزل آخر. لكنها أقنعتنى بإلحاحها وسعدت جداً لأننى وافقتها الرأى.

كل الأشياء هنا كانت على خلاف جو منزل الوزير الأعظم، والمنزل فى حد ذاته عبّر عن الاختلاف بين زهد المسنين وجمال الشباب؛ كان منزلاً لطيفاً وفخماً. قابلنى على الباب اثنان من الخصى السود قادانى عبر بهو طويل بين صفين من الفتيات الحسنات شعورهن مجدولة بشكل جميل، تصل تقريباً إلى أقدامهن، كلهن يرتدين الحرير الدمسقى الخفيف المشغول بالفضة. أسفت أن أصول اللياقة لم تسمح لى بالتطلع إليهن عن قرب أكثر، لكن هذه الفكرة تلاشت لدى دخولى إلى قاعة كبيرة تحيط بها شبابيك ضلفها مذهبة ومعظمها مفتوح على الحديقة، وتلقى الأشجار المزروعة بالقرب منها بظلالها الوارفة مانعة إزعاج أشعة الشمس. ويفوح الشذا الذكى من أشجار الياسمين والجدى الملتفة على جذوعها، تزيدها بهاء النافورة الرخامية البيضاء التى تنشر المياه العذبة فى الجزء الأسفل من الحجرة، وتصب فى ثلاثة أو أربعة أحواض بخيرها المبهج. والسقف مزدان بأشكال الزهور تنتهى بسلال ذهبية

تبدو كأنها ستسقط على الأرض. على الأريكة المرتفعة بمقدار ثلاثة أقدام ومغطاة بالسجاجيد الفارسية الجميلة تجلس زوجة نائب الوزير الأعظم، متكئة على وسائد من الحرير الأبيض المطرز ، تجلس عند قدميها فتاتان صغيرتان كبراهما فى حوالى الثانية عشرة من عمرها ، وديعة كالملائكة، ثيابهما تدل على الثراء وتكاد المجوهرات تغطيها. لكنهما لا يقارن إطلاقا بفاطيمة (هذا اسمها) ذات الجمال الباهر الذى لا يضاهى بكل من رأيتهن وكل من يطلق عليهن جميلات فى إنجلترا أو ألمانيا ، وينبغى أن أقر بأننى لم أر فى حياتى جمالاً بهذا البهاء الشديد ولا حتى أتذكر أننى رأيت وجهاً يقارب جمال وجهها. نهضت لاستقبالى وحيثنى حسب طريقتهم فوضعت يدها على قلبها بكل رقة وعظمة لا يجدها المرء فى أى بلاط، وأمرت بتقديم الوسائد لى واعتنت بمجلسى فى ركن متميز تعبيراً عن الحفاوة والتكريم . كانت السيدة اليونانية قد أعطتنى فكرة مسبقة عن جمالها لكن ذلك لم يمنع دهشتى بها المفعمة بالإعجاب ، لدرجة أن لسانى انعقد لحظات لم أستطع أن أنبس فى حضورها وأنا أحلق فيها مدهوشة. يا لتناغم قسماتها! يا لسحرها الأخاذ! يا لنسب قوامها المثالية! يا لنضارة بشرتها التى لم ترسمها يد فنان! يا لسحر ابتسامتها الذى لا يوصف! ويا لعيونها! واسعة وسوداء بها كل سمات الرقة النادرة! كل لفظة منها تبوح بسر جديد.

بعدما هدأت دهشتى الأولى حاولت التطلع إلى وجهها بلطف لاكتشاف أى عيب فيه فراحت جهودى هباء، واقتنعت بخطأ الفكرة

الشائعة أن الوجه إذا اكتمل جماله بشكل قياسي فقد بعضاً من حسنه، إذ إن الطبيعة حبتها المزيد من التآلق، ذلك التآلق الذى كتب عنه شعراء اليونان ، بملامح شديدة الدقة تكون وجهاً مثالياً وبالإضافة لذلك سلوك فى منتهى الرقة والعذوبة ، وخفة فى الحركة ، ومظهر ملكى يخلو من العنف والكلفة ، وأنا مقتنعة بأنها لو نقلت فجأة إلى أرقى عرش فى أوروبا لن يظن أحد سوى أنها ولدت وتربت لتصبح ملكة، رغم أنها تلقت تعليمها فى بلد ننعتة بالهمجية، والخلاصة فى كلمة واحدة ، أن أجمل جميالات الإنجليز بكل حسنهن لا يوازن جمالها وحسنها.

كانت ترتدى قفطاناً مقصباً بالذهب ومنقوشاً بورود من الفضة مناسباً لجسمها تماماً ويظهر جمال صدرها. وهو من نفس لون قميصها الذى ترتديه تحته، إلا أنه يختلف عنه درجة قليلة. سروالها من اللون الوردى الفاتح ممزوجاً بالأخضر والفضى، ترتدى خفاً أبيض مشغولاً بتطريز دقيق ، وذراعها تغطيها الأساور المطعمة بالماس ويزنارها العريض مرصع بالماس، على رأسها منديل تركى أنيق من اللون الوردى والفضى، وشعرها أسود طبيعى يتدلى على جسمها طويلاً فى ضفائر وعلى أحد جانبي رأسها بعض دبائيس الشعر المرصعة بالجواهر. أخشى أن تتهمينى بالمغالاة فى هذا الوصف، أظننى قرأت فى كتاب ما أن النساء دائماً يتحدثن فى نشوة عندما يتطرق الحديث إلى موضوعات تتعلق بالجمال، ولا أدرى ما المانع، على العكس أعتقد أنه من الفضيلة بمكان أن يعجب المرء بالجمال دون أن يصحب ذلك نوع من

الرغبة أو الحسد. إن أكثر الكتاب رزاة تحدثوا عن بعض اللوحات والتمائيل بدفء شديد وحفاوة بالغة. من المؤكد أن براعة الخلق السماوى تفوق كل محاكاتها البشرية الضعيفة، وينبغى أن نثنى عليها أكثر. من ذلك، وأنا لا أخجل من الاعتراف أنني سعدت سعادة بالغة برؤيتى لجمال فاطيمة، أكثر مما يمكن لأروع تمثال من الحجر أن يطبع فى أحاسيسى.

أخبرتني السيدة أن الفتاتين الجالستين عند قدميها ابتتاها، على الرغم من أنها تبو أصغر بكثير من أن تكون أمًا لهما. كانت جارياتها الجميلات يصطففن أسفل الأريكة ويصل عددهن إلى عشرين، مما ذكرنى بلوحات الحوريات القديمة. لا أعتقد أن الطبيعة برمتها يمكن أن تصنع مشهداً بهذا الجمال. أشارت إليهن ليبدأن العزف والرقص. فى التو بدأت أربع منهن بالعزف على بعض الآلات الموسيقية ما بين جيتار وعود مصحوباً بغنائهن، بينما تناوبت الأخريات على الرقص، كان رقصاً مختلفاً تماماً عن كل ما رأيته من قبل. فاق كل ذلك فتنة وتناغماً لإثارة أفكار بعينها. كانت النغمات شديدة العذوبة! والحركات بالغة الرشاقة! مصحوبة بلحظات من الصمت والعيون الناعسة! كن يرتمين على ظهورهن كأنهن يوشكن على الوقوع ثم يعتدلن فى حركات مفعمة بالفن، وأنا على يقين عميق أن أكثر البشر تحفظاً وبروداً على وجه الأرض لا يمكنهم رؤية هذا الرقص بون أن تجول بخواطرهم أفكار مسكوت عنها. أظنك قرأت أن الأتراك ليس عندهم موسيقى إلا ما ينفر الأذان، لكن هذا

لا ينطبق إلا على الذين يعزفون فى الشوارع ، وهذا مثله مثل الأجنبى عندما يسمع الموسيقى الإنجليزية من مثانة حيوان مملوءة بالهواء ومزودة ببعض الأوتار أو العظام المجوفة وساطور الجزار. بوسعى أنؤكد لك أن موسيقاهم شجية جدا ، صحيح أننى افضل الموسيقى الإيطالية لكن ربما أكون متحيزة. تعرفت على سيدة يونانية تغنى أفضل من مسز روبنسون(*) (فنانة شهيرة وقتها)، وهى ماهرة جدا فى الاثنين وحتمى تفضل الموسيقى التركية. من المؤكد أن لديهم أصواتاً رائعة، أولئك المغنيات كان صوتهن جميلاً. عندما انتهى الرقص دخلت إلى الحجرة أربع جوار جميلات يحملن فى أيديهن المباخر وبخرن المكان ببخور طيب الرائحة من خشب الألوّة (الصبر) وغيره. ثم قدمن لنا القهوة فى فناجين من الخزف الفاخر وأكواب صغيرة من الفضة والذهب وهن راكعات على ركبهن. حرصت فاطيمة طول الوقت على الترحيب بى بأسلوب شديد التهذيب والركة، وهى تنادينى جوزيل سلطنة أو السلطنة الجميلة، وأعربت عن رغبتها فى صداقتى بأرق أسلوب فى العالم، وهى تعتذر لأنها لا تستطيع أن ترحب بى بلغتى.

عندما استأذنت فى الانصراف أحضرت خادمتان مجموعة من المناديل المطرزة فى سلال فضية جميلة ، ورجتنى السيدة أن آخذ أفضل ما فيها لأجل خاطرها، وقدمت البقية للدرأة والمترجمة المصاحبتين لى.

(*) مسز روبنسون فنانة شهيرة وقتها .

عندما غادرت المكان وانتهت المقابلة بنفس الطقوس السابقة لدرجة أنني لم أتمالك إحساسى بأننى كنت أقضى بعض الوقت فى الفردوس، لقد افتتنت جدا بما رأيته. لا أعرف كيف يبدو لك سرد هذه القصة لكنى أتمنى أن تسعدك كما أسعدتني ولو قليلا، إننى أتمنى يا شقيقتى العزيزة أن تشاركني كل ما استمتعت به.

* * *

إلى الأب كونتى

أدرنة فى ١٧ مايو ١٧١٧

أزمع مغادرة أدرنة، ولن أفعل ذلك إلا بعد أن أحكى لك عن كل الغرائب التى توجد فيها والتى بذلت كثيرا من الجهد لأراها.

لن أضجرك برسالة مطولة حكيمة عما إذا كانت هذه المدينة هى نفسها مدينة أورست أو أورستيس قديما أم لا، فأنت تعرف ذلك أكثر منى. يسمونها الآن على اسم الإمبراطور أديان، وهى أول مدينة أوروبية تحتلها الإمبراطورية التركية، وكثير من السلاطين يفضلون الإقامة فيها. أغرم بها محمد الرابع ومصطفى شقيق الإمبراطور الحالى لدرجة أنهما أقاما فيها وتركيا القسطنطينية، ومن مدعاة السخرية أن ذلك أثار سخط الجراكسة جدا، ومثل دافعاً وحافزاً للتمرد الذى أدى

إلى خلعهما . ومع ذلك يبدو أن السلطان الحالى يحب إقامة بلاطه هنا . ولا أرى سبباً مقنعاً لهذا التحيز . صحيح أن الموقع لطيف والبلدة كلها جميلة جدا لكن الجو سيئ للغاية وسراى السلطان نفسه لا يخلو من آثاره السيئة . يقال إن البلدة محيطها ثمانية أميال ، وأظنهم يحسبون الحدائق ضمن هذه المساحة . هناك بعض المنازل المعقولة ، أقصد أنها كبيرة من حيث الحجم ، وحيث إن أسلوب البناء فى قصورهم لا يقدم معماراً فنياً ؛ فهي الآن مليئة جدا بالسكان ، لكن معظمهم يقيمون بنايات ملحقة بالقصر ، أو معسكرات ، وقيل لى إنهم يزيلونها بعد ذلك لأنها ليست مدينة سكنية . نهر ماريسا (كان يطلق عليه قديما نهر مبروس) يجف كل صيف مما يتسبب فى إلحاق كثير من الضرر بهم . فى الوقت الحالى يعتبر نهرا يبهج النفس ويسر العين . وقد شيد فوقه جسران فخمان .

حدا بى الفضول أن أذهب لرؤية السوق فى رداىى التركى الذى يخفى شخصيتى الحقيقية ، ومع ذلك شعرت بالقلق عند رؤيتى للزحام الذى يحدثه الجراكسة رغم أنهم لا يجرءون على التحرش بامرأة ، وقد أوسعوا لى الطريق باحترام شديد كما لو كنت أظهر بشخصيتى الحقيقية . ذلك السوق طوله نصف ميل والسقف مقبب ونظيف جدا ، به ثلاثمائة وخمسة وستون متجراً مفروشة بكل أنواع البضائع الثمينة المعروضة للبيع بنفس الطريقة التى تعرض بها المبيعات فى السوق الجديد فى لندن ، لكن أرصفة الشوارع أكثر نظافة ، وكل المتاجر نظيفة

كانها طليت حديثاً. العاطلون من كل الضروب يسировن هنا للتسلية أويمتعون أنفسهم بشرب القهوة أو المرطبات، وينادون عليها كما يحدث لدينا مع البرتقال والحلى فى المسارح.

لاحظت أن معظم التجار الأثرياء من اليهود، وهؤلاء القوم لهم قوة غير معقولة فى هذا البلد، لديهم من الامتيازات ما يفوق كل المواطنين الأتراك أنفسهم، وهم يشكلون كومونولث قوياً هنا، فيحاكمون بقوانينهم الخاصة ويمسكون بتجارة الإمبراطورية كلها بين أيديهم إلى حد كبير نتيجة لاتحادهم الشديد، وهم يعتمدون على مزاج الأتراك الميالين للكسل والتراخى ويفتقدون للمكات العمل. كل باشا لديه اليهودى الخاص به يعمل لديه بمثابة مدير لأعماله، فيطلع على كل أسرارهِ ويدير كل أعماله. لا يتم صفقة ولا يتسلم رشوة ولا تقام له عروض ترويجية لسلعه، إلا ما يمر من تحت أيديهم فقط. ومنهم الأطباء والقهرمانات^(٥) والمترجمون لكل عليّة القوم.

يمكنك الآن أن تدرك أية مميزات يستمتع بها أولئك القوم الذين لا يفشلون أبداً فى الاستفادة من أصغر ميزة تتاح لهم. لقد اكتشفوا سر أن يجعلوا وجودهم ضرورة، وهم بالطبع فى حماية البلاط، مهما اختلفت الوزارات القائمة، حتى التجار الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين الذين

(١) القهرمان وكيل مسئول عن إدارة القصر والإقطاعية .

يدركون مكرهم يضطرون للتفاوض معهم، فلا يمكن لأية تجارة أن تفلح دون تدخلهم، وأحقر شخص فيهم يمثل أهمية كبيرة لا يمكن معها إغضابه أو الامتناع عن مجاملته، لأن بقية أفراد الطائفة يولونه التقدير والاحترام الذى يولونه لأكبر شخص فيهم. كثيرون منهم على ثراء فاحش، لكنهم يحرصون على عدم إظهاره علانية بشكل واضح، رغم أنهم يعيشون فى بيوتهم فى أعلى درجات الرغد والرفاهية. هذا الموضوع المستفيض سحبنى من وصف السوق التجارى الذى أسسه على باشا، ويحمل اسمه . بالقرب من تكارتشى شارع طوله ميل، ملئ بالحوانيت الحافلة بكل أنواع البضائع الجميلة لكنها غالية الأثمان، وكلها مستوردة ومغطاة من أعلى بألواح خشبية تحميها من الأمطار، حيث يجد التجار راحتهم فى كل فصول السنة. يقع البيسيتان بالقرب منه؛ وهو سوق آخر مبنى على أعمدة يباع فيه كل لوازم الخيول، وكل الأشياء تبرق بالذهب والأشغال اليدوية الفخمة والمجوهرات فى عرض شديد البهاء.

ذهبت من هذا المكان فى عربتى التركية إلى المعسكر، الذى سينتقل بعد بضعة أيام إلى الحدود. كان السلطان قد وصل بالفعل إلى خيامه وبصحبته كل كبار رجاله، ومظهرهم حقيقة غاية فى العظمة. وخيام كبار رجال الدولة أقرب إلى القصور منها إلى الخيام، منصوبة على قطعة أرض كبيرة، ومقسمة إلى عدد كبير من الوحدات، كلها خضراء اللون، وخيام الباشا لها ثلاثة أطراف بها رايات ترمز لقوتها، موضوعة بطريقة رائعة أمام خيامهم، مزينة فى أعلاها بكرات

مذهبة تتفق كثيراً أو قليلاً مع اختلاف رتبهم. تذهب السيدات فى تركيبا لمشاهدة هذا المعسكر بنفس الرغبة التى تحبوسيداتنا للذهاب إلى حدائق هايدبارك، لكن من السهل على المرء أن يلحظ أن الجنود لا يبءون حملاتهم بأى إحساس ينم عن المرح أو البهجة، فالحرب تمثل ضيماً عظيماً على الشعب وتمثل صعوبة أكثر على التجار ، وقد تقرر أن يقوم الخليفة بقيادة جيشه، وعلى كل سرية منهم إزاء هذه المناسبة أن تقدم عرضاً يعبر عن قدراتها.

تكبدتُ عناء اليقظة فى السادسة صباحا لمشاهدة هذا الحفل الذى لم يبدأ مع ذلك إلا فى الثامنة. كان الخليفة يطل من نافذة سراى الحريم ليشارك الموكب الذى طاف بكل الشوارع الرئيسية، وكان يتقدم الموكب أفندى يمتطى جملاً مزداناً بأبهة وفخامة شديدة يتلو القرآن بصوت مرتفع، كان يقرأ من كتاب فاخر التجليد موضوع على وسادة، ومحاطاً بمجموعة من الصبية يرتدون ملابس بيضاء ويغنون يتبعهم رجل يلف نفسه بالأغصان الخضراء، يمثل مزارعاً نظيفاً ينثر البنور، ووراءه العديد من الحصادين يحملون أكاليل الزهور وسنابل القمح، مثل لوحة سيريس (إلهة الحصاد عند الإغريق)، وفى أيديهم المناجل كأنهم يحصدون بها، ثم مرت آلة صغيرة يجرها الثيران عليها طاحونة هواء وصبية يعملون فى طحن الحبوب ، تتبعهم آلة أخرى تجرها الجواميس تحمل موقداً وولدين أحدهما يعجن الخبز والآخر يسحبه من الفرن. كان الأولاد يلقون بقطع الكعك الصغيرة على الجانبين للجمهور، وتتبعهم

فرقة كاملة من الخبازين يسيرون على أقدامهم اثنين اثنين، مرتدين أفضل ملابسهم وهم يحملون على رؤوسهم كل أنواع الكعك والخبز والفطائر والعجائن ، ووراءهم مهرجان لطخا وجهيهما وملابسهما بالدقيق، ويبهجان الجماهير بإيماءاتهما وإشاراتهما الغريبة، وينفس الطريقة يتبعهم كل أصحاب الحرف فى الإمبراطورية، وأصحاب المهن الأرقى مثل الجواهرجية والبزازين وغيرهما يمرون ممتطين خيولهم، ووراءهم المواكب التى تمثل الحرف التى يعملون بها فى أبهة شديدة، ومن بينهم تجار الفراء وديباغوها الذين قدموا أفضل العروض، فقدموا آلة شديدة الفخامة مطوقة بفراء القاقوم والثعالب وغيرها، وقد تم حشوها جيدا حتى بدت كأن الحيوانات مازالت حية، ووراءهم الموسيقى والراقصون. أعتقد أن المشاركين فى هذا الموكب لا يقلون عن عشرين ألف فرد ، وكلهم على أتم استعداد لإطاعة جلالته، إذا طلب منهم أى شىء. وطوقت مؤخرة الجيش بالمتطوعين الذين قدموا يطلبون شرف الموت فى سبيله. بدا لى هذا الجزء من العرض شديد التوحش، فابتعدت عن النافذة منذ بدءوا فى الظهور. كانوا جميعاً عراة الصدور، بعضهم وخزوا أذرعهم بالسهم وتركوها مكانها، وآخرون وخزوا بها رؤوسهم والدم يقطر على وجوههم، وغيرهم شرطوا أذرعهم بنصال حادة تاركين الدم ينهمر منها ويلطخ الواقفين بجوارهم، ذلك كله تعبيراً عن حماسهم للمجد. قيل لى إن البعض يتخنون من هذه المظاهر تعبيراً عن الحب، وعندما يقتربون من نافذة المنزل الذى تقطن فيه المحبوبة يوخزون

أجسادهم بسهم جديد من أجلها، حتى تمنحهم علامة ما على الاستحسان والتشجيع لهذا التودد (كل النساء فى البلدة يختبئن خلف النوافذ لمشاهدة هذا المنظر). يستغرق هذا الاستعراض فى مجمله مايربو على ثمانى ساعات، لأسفى الشديد أصابنى تعب بالغ رغم أننى كنت فى منزل أرملة الأميرال التى قدمت لى القهوة لتنعشنى والحووى والمرطبات وغيرها، بكل ما أوتيت من لطف وكياسة.

بعد ذلك بيومين ذهبْتُ لرؤية جامع السلطان سليم الأول، وهو بناء جدير بإشباع فضول الرحالة بدرجة عالية جدا . ارتديت ملابسى التركية ودخلت دون تردد، مع ذلك خمنت أنهم أدركوا حقيقة شخصيتى، وقد بدا ذلك واضحاً فى معاملة البواب الذى عرض على خدماته دون طلب منى، وأرانى كل جزء من المسجد، والمسجد قائم فى وسط المدينة وهو موقع له فوائده، ففى أعلى جزء منه يُتاح للمرء رؤية ممتازة. الجزء الأمامى له أربع بوابات والداخلى ثلاث. وكل منها محاط بأروقة ذات أعمدة رخامية على الطراز الأيوبى، جميل الصقل وألوانه مفعمة بالحوية، وكل الأرضية من الرخام الأبيض، وسطح الأروقة مقسم إلى عدة قباب تنتهى بكرات مذهب من أعلى. فى وسط كل فناء نوافير جميلة من الرخام الأبيض، وأمام بوابة المسجد الكبيرة رواق معمد بأعمدة من الرخام الأخضر. المسجد له خمس بوابات، أما صحن المسجد نفسه فعلى شكل قبة هائلة.

على الرغم من أننى لا أفهم كثيراً فى فن العمارة، ولا يمكننى الكلام عن النسب، لكنى متأكدة من اتساقها، فالمسجد شديد الارتفاع، وفى اعتقادى أنه أروع بناء رأيت فى حياتى، به صفان من الأعمدة ذات الدرازين الرخامى، والأرضية الرخام مغطاة بسجاجيد عجمى، تمثل إضافة كبيرة لجمال المكان، ذلك أنها ليست مقسمة إلى صفوف من المقاعد، ولا مثقلة بأشكال وبنوك مثل الموجودة فى كنائسنا، ولا الأعمدة (معظمها من الرخام الأحمر والأبيض) مشوهة المنظر بالزخارف والأيقونات الصغيرة المبهرجة التى تكسو الكنائس الكاثوليكية بجو كأنجواء محال لعب الأطفال. والحوائط مطعمة بتلك الألوان المفعمة بالحوية بأسلوب الحفر التنزلى للزهور الصغيرة. لم أستطع تخمين أى نوع من الأحجار صنعت منها. لكن عندما اقتربت منها أكثر ودفقت النظر أدركت أنها مكسوة بالخزف اليابانى، الذى يعكس تأثيراً بالغ الجمال. فى المنتصف تتدلى ثريا ضخمة من الفضة مطلية بالذهب بالإضافة إلى ذلك أعتقد أن به ألفين غيرها بأحجام أصغر. يبدو لى المشهد شديد البهاء حين تضاء كل هذه الثريات، لكن هذا يحدث فى المساء ولا يمكن لامرأة أن تفكر فى دخوله فى ذلك الوقت. أسفل الثريا الضخمة منبر كبير من الخشب المنحوت مطلقى بالذهب وبجواره تماماً نافورة للوضوء ، وهو كما تعرف جزء أساسى من شعائر عبادتهم. فى أحد الأركان رواق صغير مسيح بمشرية مذهب خاص بالسلطان.

فى نهايته من جهة الشمال محراب فى الحائط شبيه بالمذبح يرتفع عن الأرض مقدار قدمين ومغطى بالقماش المطرز بالذهب وأمامه شمعدانان من الفضة المذهبة بارتفاع قامة رجل، وبهما شموع بيضاء فى حجم رجل. خارج المسجد أربعة أبراج عالية جدا قمتهـا مذهبة، يتلو منها المؤذن الأذان لدعوة الناس للصلاة. حدا بى الفضول أن أصعد إحداها ورسمت لذلك خطة رائعة، وكانت بمثابة مفاجأة للجميع أنى استطعت رؤيتها. لم يكن هناك سوى باب واحد يؤدى إلى ثلاثة سلالم مختلفة تؤدى بنورها إلى طوابق البرج الثلاثة ، حيث يصعد بتلك الطريقة ثلاثة شيوخ دون أن يلتقى أحدهم بالآخر، وهى حيلة تثير الإعجاب.

يقع وراء المسجد سوق ملء بالحوانيت يقطن فيه الحرفيون الفقراء مجاناً. رأيت كثيراً من الدراويش فى أثناء تأديتهم فروض الصلاة وهم يرتدون قطعاً صغيرة من الصوف ، عراة الأذرع وعلى رؤوسهم غطاء أشبه بقبعة عالية دون حواف. ذهبت لمشاهدة مساجد أخرى بنيت على نفس طراز مسجد السلطان سليم الأول، لكنها لا تقارن به فى العظمة أوالفخامة التى وصفقتها، والتى لا تضاهيها أية كنيسة فى ألمانيا أو إنجلترا، لن أتحدث عن بلدان أخرى لم أرها. لم يكن قصر السلطان شديد العظمة، لكن حدائقه فسيحة جدا وتصلها مياه الرى بوفرة ومليئة بالأشجار التى لم أعرف منها شيئاً.

لن أحكى لك عن اللقاءات الرسمية وحفلات الاستقبال التي حظى بها السيد ورتلى، فهذه الأمور كما هي عادة وقد وصفتها كثيراً من قبل ولن أضجرك بتكرارها. جلس الأمير الصغير وهو فى حوالى الحادية عشرة من عمره بقرب والده عندما بدأ الكلام ، وهو ولد وسيم لكن من المحتمل أنه لن يصبح سلطاناً بسرعة، فهناك ولدان غيره للسلطان مصطفى ، أكبر منه سناً، أكبرهما فى حوالى العشرين من عمره، والجماهير تعلق آمالها عليه. فالعهد الحالى تسيطر عليه الدموية والجشع. أميل للاعتقاد أن صبرهم قد نفذ فى انتظار نهايته.

سأكتب لك مرة أخرى من القسطنطينية.

* * *

إلى الأب كونتى

القسطنطينية فى ٢٩ مايو ١٧١٧

لقد حظيت بطقس رائع طوال رحلتى، والآن يبدو الصيف بجماله، استمتعت ببهجة مشاهدة مناظر جميلة، وتبدو المروج مليئة بكل أنواع الزهور والأعشاب الطيبة، حتى أن عربتى البرلينة^(٦) تفوح عطراً طيباً

(٦) البرلينة مركبة كبيرة مقفلة ذات أربع عجلات كانوا يستخدمونها فى السفر فى ذلك الوقت .

بمرورها عليها . وقد منحنا السلطان ثلاثين عربية مغطاة لنقل أمتعتنا وخمس حافلات من البلدة خاصة بالنساء المصاحبات لى. وجدنا الطريق مليئاً بفرسان السباهى الكبار، وما يتبعهم من خيل وسائقين وخدم قادمين من آسيا لأجل الحرب. وهم دائماً يسافرون ومعهم خيامهم، لكننى فضلت النوم فى بيوت طوال الطريق.

لن أضجرك بأسماء القرى التى مررنا بها، فلم يكن بها ما يستحق الذكر، لكن فى قرية تكوارلو، حيث أقمنا فى كوناك أو حرمك صغير بنى خصيصاً لإقامة السلطان عند مروره بهذه الناحية. استبد بى الفضول لرؤية كل الحجرات الخاصة بالسيدات. كانت مقامة فى وسط خميلة من الأشجار تنعشها النوافير، لكن ما أدهشنى كثيراً الحوائط المغطاة تقريبا بأبيات الشعر التركى مكتوبة بقلم دقيق. جعلت المترجم الخاص بى يشرح لى معناها، تأثرت بكثير منها، وعلى الرغم من أننى صدقتها، فإننى أظن أنها فقدت الكثير من رونقها فى الترجمة. كان معنى أحد أبياتها حرفياً باللغة الإنجليزية

نأتى إلى هذا العالم، نعيش فيه ونرحل عنه

لكنه لا يأتى إطلاقاً، إنه يسكن فى قلبى

مررنا فيما تبقى من رحلتنا عبر مروج رائعة الألوان، بجوار بحر مرمرة، برويونتيس قديماً. مكثنا الليلة التالية فى سيلفريا؛ وهى بلدة كانت ذائعة الصيت فيما مضى، والآن تعتبر ميناء شديد الأهمية

وبناياتها نظيفة للغاية وبها جسر به اثنان وثلاثون قنطرة. فى البلدة كنيسة يونانية قديمة مشهورة. أعطيت إحدى العربات الخاصة بالسيدات لسيده يونانية ، أعريت عن رغبتها فى الاستمتاع بالسفر معى، وقررت أداء طقوس الصلاة فى تلك الكنيسة وكنت سعيدة بالذهاب معها. وجدتھا مكاناً سيئ البناء، بنيت على غرار الكنائس الكاثوليكية، وبها نفس الزخارف لكنها أقل فخامة. أرونى جسداً لأحد القديسين، ألقيت أمامه علبة نقود. وأرونى كذلك صورة للعدراء مريم يقولون رسمها القديس لوقا، ليس بها كثير من سمات أعماله الفنية، ومع ذلك فحتى صورة المائونا الأكثر روعة فى إيطاليا لا تباريها فى شهرة معجزاتها. الليونانيين ذوق فظيع فيما يتعلق باللوحات الفنية، فهي كثيرة البهرجة وغالبا خلفيتها ذهبية. لك أن تتصور أى جو تبعثه حولها، لكن ليس بها أى تصور أو ظلال أو نسب مقبولة. لديهم أسقف هنا يقود صلاة القداس فى رداثه الأرجوانى. عندما وصلت إلى المكان الذى أقيم فيه وجدته قد أرسل لى شمعة هدية تصل إلى حجمى أنا شخصياً.

مكثنا الليلة التالية فى بلدة تدعى بوجوق (الجسر الكبير)، واللييلة التى تليها قضيناها فى بلدة الجسر الصغير، فى مكان مريح جداً، كان فيما مضى تكية للدراويش، أقيم أمامه قصر كبير مطوق بالأعمدة الرخامية ونافورة جميلة فى المنتصف، يبدو المشهد من هذا المكان بحدائقه التى تحيط به من أجمل المناظر التى رأيته فى حياتى، مما يؤكد لى أن الرهبان من كل الأديان يعرفون كيف يختارون خلواتهم .

وهذا المكان يخص الآن خوجة أو مدرس يعلم الأولاد هنا، عندما طلبتُ منه أن يريني بيته، دهشت لرؤيته يشير إلى شجرة سرو كبيرة فى الحديقة. أعد فى أعلاها مكاناً لنومه، وأسفل منه بقليل مكاناً لنوم زوجته وطفليه، ينامون جميعاً فى الشجرة كل ليلة. سررت كثيراً بذلك الابتكار وقررت معاينة عشه عن قرب، لكن بعد صعود خمسين خطوة وجدت أمامى خمسين خطوة أخرى على أن أصعدھا، ثم أتسلق للهبوط من غصن لغصن، ولن يخلو الأمر من بعض المجازفة بعنقى، فأدركت أن أسلم وسيلة هى الهبوط.

وصلنا الليلة التالية للقسطنطينية، لكن حتى الآن لا يمكننى أن أخبرك عنها الكثير، فكل وقتى أقضيه فى استقبال الزيارات، وهذا يمثل - على الأقل - متعة للعين، فكل الشابات هنا حسناوات، ويضفن حسناً إلى حسنهن بذوقهن الراقى فى اختيار الملابس. يقع القصر الذى نقيم فيه فى بير، وهى ضاحية من ضواحي القسطنطينية مثلما تعتبر وستمنستر ضاحية من ضواحي لندن. كل السفراء يقيمون قريباً من بعضهم بعضاً. هناك جزء من منزلنا يسمح لنا برؤية الميناء والمدينة وسراى السلطان وتلال أسيا البعيدة، ربما يعد المشهد برمته من أجمل المناظر فى العالم.

يقول أحد الكتّاب الفرنسيين إن القسطنطينية أكبر من باريس بما يساوى الضعف. والسيد ورتلى لا يريد الاعتراف أنها أكبر من لندن،

رغم أننى أقر أنها تبو لى كذلك، لكنى لا أعتقد أنها أهلة بالسكان مثلها، فأراضى المقابر التى تحيط بها أكبر من المدينة نفسها. من المدهش تلك المساحة الخربة من الأراضى فى تركيا. رأيت أكثر من مرة المقابر تمتد عدة أميال تتبع قرى غير ذات قيمة، كانت فيما مضى مدناً كبيرة ولم يبق منها أية علامة أخرى تدل على عظمة ماضيها. فهم يرفعون الأحجار التى تدل على أثر عتيق تحت أى ظرف من الظروف، بعضها نفيس لأنه مصنوع من رخام شديد البهاء، ويقيمون شاهداً منحوتا بنقوش فى أعلاه، نُحت على هيئة عمامة لذكرى شخص ما، ولأن تلك العمامم بأشكالها المختلفة توضح صفات ذلك الشخص أو طبيعة عمله، وهى طريقة توضح المنزللة الاجتماعية لأسرة الفقيد، بالإضافة لذلك يحمل الشاهد عادة كتابة بحروف كبيرة مكتوبة بالذهب. والسيدات أيضا لهن شواهد بسيطة، دون أية زُخارف عدا من توفيت دون زواج، حيث توضع لها فى أعلى الشواهد وردة. أضرحة العائلات الكبيرة مسيجة ومحاطة بالأشجار، و فى أضرحة السلاطين وبعض كبار رجال الدولة مصابيح دائمة الإضاءة .

عندما تحدثت عن معتقداتهم نسيت أن أذكر لك أمرين غريبين؛ أحدهما قرأت عنه وكان يبدو لى شديد الغرابة، لم أصدقه لكنى اكتشفت بعد ذلك مدى صحته! عندما يطلق رجل زوجته بطريقة شرعية يمكنه أن يعيدها إلى عصمته مرة أخرى دون أية شروط إلا السماح لرجل آخر بقضاء ليلة معها، وهناك أمثلة عديدة على من خضعوا لهذا

الإجراء، وإلا ما كان باستطاعتهم استعادة تلك المحبوبة. الموضوع الثانى غريب بالمرّة؛ أية امرأة تموت وهى غير متزوجة ينظر إليها على أنها ماتت وهى فى حالة خروج من زمرة الأبرار ، وللتأكيد على ذلك المعتقد يستخرجون له منطقاً، هو أن غاية خلق المرأة الوفرة والتعدد وأنها لا تصلح لشيء سوى العمل فى الوظيفة المعدة لها، وهى إنجاب الأطفال وتربيتهم (ليس أقل من أربعة)، وتلك هى الفضيلة الوحيدة التى يخصصها بها الخالق عز وجل.

وفى الواقع لايسمح نمط الحياة التى تحياها المرأة بعيدة كل البعد عن الأنشطة العامة بأى عمل آخر. أما الفكرة السوقية الشائعة لدينا بأنهم لا يقرون بأن النساء لهن أرواح، فهى فكرة خاطئة. صحيح أنهم يقولون إن جنس النساء أقل قيمة، ولذلك عليهن ألا يأملن فى دخول الجنة المعدة للرجال الذين سيستمتعون بكل الجنة والخلود، لكن هناك مكاناً للسعادة معد لأرواح الطبقات الأقل قيمة ستذهب إليه كل النساء اللاتى سيحظين بالخلود. وكثير من النساء تسيطر على فكرهن روح الخرافة بشكل غير عادى ، ولا ييقن أرامل عشرة أيام خوفاً من الموت فى حالة خروج من زمرة الأبرار ، أو كونهن مخلوقات لا فائدة منها، لكن أولئك اللاتى يفضلن حريتهن يسعدن أنفسهن بالزواج عندما يشعرن بخشية الموت. وهذه النظرية الفقهية تختلف عما تعلمناه، إنه لا شيء أكثر قبولاً للخالق من التكريس للتبتل الدائم، وأعتقد أنها نظرية أكثر منطقية تاركة لك الحكم فى ذلك.

استطعتُ بالفعل تكوين مجموعة من الميداليات اليونانية. فهنا يوجد كثير من الخبراء فى شئون الأنتيكات، وهم على أتم استعداد لخدمة أى شخص يرغب فى شراء هذه الأشياء. لكنك لا تستطيع تصور حملقتهم فى وجهى عندما أسأل عنها، كما لو كان غير مسموح لأى شخص بالبحث عن تلك الميداليات إلا إذا قدموها له بأنفسهم. لدى الآن مجموعة قيمة جدا من ميداليات الملوك مقدونيا خاصة ميدالية الملك برسيوس، وهى رائعة، أتصور أننى أرى كل مسالبه فى وجهه. لدى حجر سماقى لصورة رأس جميلة الصنع وهى تمثال يونانى أصلى، لكن خمن لمن هذه الصورة؟ أعتقد أننى سأعرف ذلك من أهل الخبرة عند عودتى. لا أظن أنك تعرف أى شىء عن تلك الأنتيكات (كلها يونانية). وهذه التجارة قائمة فقط على عمليات البيع، ولديهم علاقات تجارية مع حلب، والقاهرة الكبرى، والجزيرة العربية، وفلسطين، وهم يرسلون لهم كل ما يستطيعون العثور عليه، وغالباً أكوام كبيرة لا تصلح إلا للصهر والتحول إلى أوانى للقلى وغلايات. ويطلبون أعلى سعر يستطيعون الحصول عليه مقابل هذه التحف بون تمييز القيم من الردىء. أما من يتظاهرون بالمهارة فتجد لديهم عموماً صور القديسين على ميداليات للمدن اليونانية. أرانى أحدهم تمثالاً لأثينا تحمل فى يدها صولجان النصر مقلوباً وأكد لى أنها صورة العذراء مريم تحمل المسيح مصلوباً. هذا الرجل نفسه عرض على تمثالاً من العقيق لرأس سقراط، وإيزيد من قيمته ادعى أنه القديس أغسطين.

أوصيت على موميا، وأتمنى أن تصل إلى سليمة، ولا يصيبها سوء
الحظ الذى أصاب موميا، كانت قادمة خصيصاً لملك السويد. كان قد
دفع فيها ثمنًا غالياً ولكن الأتراك ظنوا أنه أعد مشروعاً مهماً يعتمد
عليها. تصوروها جسداً لشخص يعلم الله من هو، و أن قدر مملكتهم
يتوقف بشكل غامض على الاحتفاظ بها. تذكروا بعض النبوءات القديمة
فى تلك المناسبة وحبسوا الموميا فى الأبراج السبعة وبقيت منذ ذلك
الحين تحت حراسة مشددة. لم أجرق حتى على محاولة إرضاء فضولى
فى أمر شديد الأهمية مثل تحريرها من قبضتهم، لكنى أتمنى أن تصل
الموميا الخاصة بى دون فحوص.

لا يسعنى فى الوقت الحاضر أن أحكى لك المزيد عن هذه المدينة
الشهيرة. عندما أخلو إلى نفسى قليلاً ستسمع منى المزيد.

* * *

إلى السيد بوب (الشاعر ألكسندر بوب)

قرية بلجراد فى السابع عشر من يونيو ١٧١٧

أتمنى أن تكون وصلتك قبل هذه الرسالة رسالتان أو ثلاث غيرها.
لم أتلق رسالتك إلا بالأمس، برغم أنها مؤرخة بتاريخ الثالث من فبراير،
كنت تظننى مت ودفت. فلتعلم أننى ما زلت على قيد الحياة، لكن إذا

توخينا الحقيقة، أنا أتأمل ظروفى الحالية فأرانى أشبه تماماً من رحلوا
عنا بأرواحهم.

دفعتنى درجة حرارة القسطنطينية الملتهبة إلى هذا المكان الذى
تنطبق عليه أوصاف بساتين الفردوس. أعيش فى منتصف غابة من
أشجار الفواكه ، ترويه أعداد هائلة من ينابيع الماء الشهيرة بروعة
مياهاها، وتتفرع إلى عدة ممرات ظليلة مقامة على الكلا القصير الذى
يبدو كأنه من صنع الانسان، لكنهم أكدوا لى أنه من عمل الطبيعة البكر.
موقعنا يطل على البحر الأسود الذى يمتعنا بشكل دوماً بالنسيم العليل،
فلا نشعر بحرارة الصيف. القرية لا يسكنها إلا المسيحيون الأثرياء
الذين يلتقون كل مساء لدى نافورة على بعد أربعين قدماً من منزلى
فيرقصون ويغنون، ويطابق حسن النساء وملابسهن ما نعرفه عن
الحوريات فى قديم الزمان، كما وصفها لنا الشعراء والرسامون. لكن
أكثر ما يقنعنى أننى ميتة (وفى الجنة) موقف ذهنى الذى يتجلى فى
عدم اكتراثى بكل ما يجرى حولى بين الناس (وتأتينى أخبارهم
بالصدفة) والهدوء الشديد الذى أعيشه. ومع ذلك لا زال بى توق
لأصدقائى ومعارفى الذين خلفتهم فى العالم طبقاً للنص الذى قاله ذلك
المؤلف البار:

يا لطبيعة الأرواح الراحلة

تطوف بالأصدقاء والأقارب زائرة

الحقيقة المهيبة أنى مثال على ذلك الموت. وفى ظنى أن فرجيل كان له نفس الرأى بأن الأرواح البشرية تظل تحمل بعض الألم الإنسانى بعد الموت، ويلزمنا الوصول للفردوس المثالى، حيث نهر النسيان، لكنى لم أسعد بالعثور عليه.

للحقيقة، أحياناً يصيبنى الاكتئاب من هذا الغناء والرقص والشمس الساطعة، وأتوق لرائحة الدخان ووقاحة العالم الذى تشقى بالعمل فيه، إلا أننى أحاول إقناع نفسى أننى أعيش فى متعة أكثر منك، فيوم الاثنين نخرج للصيد، والثلاثاء أقرأ فى كتب الأدب الإنجليزى، والأربعاء أدرس اللغة التركية (بالمناسبة لقد أجدتها جداً) ، أما الخميس فأقرأ فى الأدب الكلاسيكى، والجمعة أقضيها فى الكتابة، والسبت فى أشغال الإبرة، والأحد أستقبل الزيارات وأستمع للموسيقى، وهى طريقة لقضاء أيام الأسبوع أفضل من تلك التى أقضى فيها الاثنين فى قاعة الاستقبال فى القصر، والثلاثاء لدى السيدة موهون، والأربعاء فى الأوبرا، والخميس فى العزف، والجمعة لدى السيدة شيتوايند إلى غير ذلك إنها دائرة من سماع نفس الفضائح ومشاهدة نفس الحماقات ترتكب مرات ومرات، ولا تؤثر فى أكثر مما تؤثر فى الأموات. فى وسعى الإصغاء إلى أمور مؤسفة فيعتربنى إحساس بالشفقة وبدون سخط. إن انعكاسات الهوة الكبيرة بينى وبينكم تفقدنى الحماس لأى أخبار تصلنى هنا، فلا تلمسنى مشاعر البهجة ولا مشاعر الحزن، وعندما أفكر أنه من المحتمل أن سبب ذلك كله ربما زال قبل أن يصل الخطاب إلى يدي، لكنى (كما

قلت لك من قبل) أكن لك ولستر كونجريف شعوراً طيباً، وأرغب أن
أحيا في ذاكرتك رغم موتى عن كل العالم حولى.

* * *

إلى ليدى —

قرية بلجراد فى السابع عشر من يونيو ١٧١٧

سيدتى أطلب مغفرتك من كل قلبى ، لكنى حقاً لم أتما لك نفسى من
الضحك من أعماقى لدى قراءة خطابك وإدراك المهام التى تشرفيننى بها
بكل ممنونية.

إن رغبتك أن أبتاع لك جارية يونانية وأن تكون فتاة تتمتع بألف من
الخصال الطيبة، تحتم على أن أخبرك أن اليونانيات تابعات ولسن
جوارى. أما من تباع بتلك الطريقة إما سلبت فى حرب ، أو سرقها
التتار من روسيا ، أو جراكسة أو من جورجيا، وجميعهن بآنسات
سمجات يثرن الشفقة ولن تفكرى إطلاقاً أن تعمل أى منهن خادمة فى
منزل. صحيح أن عدة آلاف منهن وقعن فى المورة ، لكن الغالبية تمت
إعادتهن بمساعدة المحسنين المسيحيين، أو دفع لهن الأقارب فدية فى البنقية،
أما تلك الجوارى اللاتى يعملن فى خدمة سيدات الطبقة الراقية أو ملذات
الرجال، فكلهن تم ابتياعهن فى سن الثامنة أو التاسعة ، وتلقين تعليمًا

رفيعاً باهتمام شديد ليُجدن الغناء والرقص وأشغال الإبرة وغير ذلك وهن غالباً جراكسة والسادة لا يبيعهن إطلاقاً إلا على سبيل العقاب لخطأ فادح، أو إذا زهد صاحب الجارية منها أو ملّها فإنه قد يهديها لأحد أصدقائه أو يعتقها، لكن أولئك اللاتي يعرضن للبيع فى الأسواق إما مرتكبات لجرم ما ، أو لا يجدن أى شىء بالمرة، فلا فائدة ترجى منهن إطلاقاً. أخشى أن ترتأى فى قولى الذى أعترف لك أنه يختلف تمام الاختلاف عن الأفكار الشائعة فى إنجلترا، لكن هذه هى الحقيقة.

إن خطابك ملىء بالأفكار الخاطئة من بدايته حتى نهايته. أرى أنك تبني أفكارك عن تركيا من الكاتب المعروف دومون، الذى كتب عن جهل لا يضاهيه إلا ثقته العمياء فى نفسه. أنا أستمع بقراءة كتاب الرحلات إلى الشرق، برغم أننى أرى أن تلك الرحلات بعيدة كل البعد عن الحقيقة، ومليئة بالسخافات. بالطبع هذه الكتابات تسلينى، فهى لا تخلو من وصف النساء اللاتي من المؤكد أنه لم يرهن البتة، وحديثه المطلع عن عبقرية الرجال الذين لم ولن يسمحوا بوجوده بينهم على الإطلاق، وغالباً ما يصف المساجد التى لا يجرؤ على اختلاس النظر إليها. إن الأتراك شعب معتد بنفسه جداً ، وهم لا يتحدثون مع شخص غريب إن لم يكونوا متأكدين أنه ذو أهمية ومكانة مرموقة فى بلاده. بالطبع أنا أتحدث عن أفراد الطبقات الراقية رفيعة المستوى، أما بالنسبة للعامة لك أن تتصورى أية أفكار يمكن للحديث معهم أن يفيدك عن عبقرية عامة ذلك الشعب.

أما بالنسبة لبلمم مكة، فبالتأكيد سأرسل لك بعضاً منه، لكنه ليس من السهل الحصول عليه كما تظنين، ولا أستطيع لما يمليه على ضميري أن أنصحك باستخدامه. لا أدري كيف يلقى مثل هذا الاستحسان العالمي؛ فكل السيدات اللاتي أعرفهن في لندن وفيينا توسلن لي أن أرسل لهن بعضاً منه. جاعني كمية صغيرة منه كهدية (أؤكد لك أنها ثمينة جداً) ومن أفضل نوع، وبمنتهى البهجة وضعتها على وجهي متوقعة بعض الأثر الرائع والفائدة. في الصباح التالي كان التغير بالفعل مدهشاً، انتفخ وجهي وتورم لدرجة غير عادية ، واكتسى بلون أحمر مثل وجه ليدى بي ، وبقي على هذه الحال المؤلة ثلاثة أيام، لك أن تتصورى ما عانيت فيها. لا أعتقد أن هناك طرائق أخرى لاستخدامه ولإضافة عذاب إلى عذابي، ظل السيد ورتلي يلومني على فعلتي الحمقاء دون توقف، ومع ذلك فوجهي كما هو، إلا أن السيدات هنا يقولون إنه يتحسن كثيراً، الأمر الذي أعترف أنني لا أستطيع إدراكه في مرآتي. حقيقة إذا كان على المرء أن يكون رأيه في هذا البلمم من خلال رؤيته لوجوه النساء هنا ، فالمؤكد أنه سيرى الأمر طيباً جداً. فالجميع يستخدمه، ليدهن ألطف بشرة متوردة في العالم. أما أنا فلا أنوي إطلاقاً أن أحمل ذلك الألم مرة أخرى، ولتأخذ بشرتي مجراها الطبيعي وتذبل في وقتها المناسب، فأننا لا أحبذ استخدام تلك الألبوية كثيراً، لكن افعل ما تشائين يا سيدتي، فقط تذكرى قبل أن تستخدميه أن وجهك لن يكون بالشكل الذي تريدينه في قاعة الاستقبال في البلاط لعدة أيام.

إذا كان على المرء أن يصدق النساء فى هذا البلد ، فهناك طريقة يدعين أنها مؤكدة لجذب الحبيب أكثر من الجمال، فهن يدعين معرفة أسرار خاصة بأمور السحر والشعوذة تمنحهن اليد العليا فى كافة ما يتعلق بالحب لدرجة تسعدهن فوق ما يتصورن. أما أنا فلا أميل للاعتقاد فى المعجزات ولا أملك إيماناً بمثل هذه الأمور. كنت أناقش هذا الأمر مساء أمس مع سيدة تتحدث حقيقة بشكل شديد الوعى فى أى موضوع آخر، لكنها غضبت منى بحق لأنى لم أقتنع بصدق الأربعين قصة التى حكتها لى من هذا القبيل، وفى نهاية الأمر ذكرت لى عدة زيجات غير منطقية، لم يكن من سبب غير السحر يمكن عزوها إليه. أكدت لها أنه فى إنجلترا حيث نجهل تماماً كل أمور السحر، والطقس ليس بمثل هذا الدفاء ، ولا النساء بنصف هذا الحسن، والأمر لا يخلو من زيجات غير منطقية، لكننا لا نعتبر ذلك خارقاً للطبيعة عندما يلعب الرجل دور الأحمق لأجل امرأة. لكن حديثى لم يقنعها (كما قالت) ضد معرفتها الأكيدة ، إلا أنها أضافت هى بنفسها أنها ترتاب فى استخدام السحر لكنها قد تلجأ إليه إذا اضطرتها الظروف لذلك، وقالت وهى تحمق فى وجهى (بأسلوب العارفين بالأمر) إن السحر لن يستطيع التأثير فى، وأن هناك أشخاص معفيين من تأثير تلك القوى، لكنهم قليلون جداً. وتخيلى أن كلامها هذا أضحكنى بشدة، لكن جميع النساء هنا يعتقدن فى هذه الأمور، إنهن لا يدعين التعامل مع الشيطان إلا أن هناك وصفات تأثير الحب، ولو أمكن أن أرسل حمولة سفينة من هذه

الوصفات ربما أمكنتى أن أشتري عذبة ، وتخيلي كيف سيكون إقبال بعض السيدات على هذه البضائع؟

عذرا يا سيدتى العزيزة ، لا يمكننى أن أختتم خطابى بموضوع يمنحك المزيد من المشاهد المبهجة للخيال. أتركك مع نفسك تتصورين مدى الحفاوة التى سأحظى بها لدى عودتى، إذا أمدتني أسفارى بمثل ذلك المجال النافع من العلم.

المخلصة

* * *

إلى السيد بوب

الأول من سبتمبر ١٧١٧

حين كتبت لك آخر خطاب، كانت بلجراد تحت سلطة الأتراك، لكن فى اللحظة الراهنة تغيرت الأمور وصارت بين يدي قوات إمبراطور النمسا. استغرق جندي من الإنكشارية تسعة أيام للوصول للقسطنطينية دون أية مساعدة سوى حالة الرعب الشديد المسيطرة عليه ، قادماً من الجيش التركى الموجود على أبواب بلجراد ، ليحمل الأخبار للسيد ورتلى عن النصر التام الذى أحرزته قوات الإمبراطور تحت قيادة الأمير يوجين

على القوات العثمانية. قيل إن الأمير كشف عن بسالة وبراعة شديدة. وبعد يومين من المعركة استسلمت المدينة ، وأثارت الهزيمة التي وقعت هنا رعباً شديداً فى النفوس، وأثار خوف السلطان نشوب ثورة لدى الشعب نبتعت من حنقهم وسخطهم، وقد أشعلها بعض القواد، بدأ السلطان احتياطاته بعد فترة حكمه الرغبة بإصدار الأوامر بشنق عدد من الشخصيات التي كانت موضع شك وريبة من جلالاته. أمر أيضا خازنه بدفع راتب شهر مقدماً للإنكشارية، ولم يبد ذلك الأمر ضرورياً لأن سلوكهم فى تلك الحملة كان على درجة من السوء، وأثارت وحشيتهم فى عدم الالتزام بالقواعد احتقار العامة. عاد بعضهم إلى العاصمة فى جماعات مشردة أو لاجئين، مفتقدين المقدرة النفسية أو الشجاعة الكافية للدفاع عن أنفسهم ضد إهانة العامة، حتى الأطفال الصغار يهينونهم بسخرية ، والجماهير تبصق عليهم عندما يمرون بهم. لقد رفضوا فى أثناء المعركة تقديم مساعداتهم لإنقاذ أمتعة وخزائن الجيش التي كان يدافع عنها الباشاوات وحاشيتهم، بينما كان الإنكشارية والمشاة والسباهى والفرسان يعملون بكل شرف ونبل فى نهب معسكراتهم.

ها أنت ترى أننى أردُّ على خطابك الرقيق بخطاب شديد الكرم. لقد أمتعتنى فى خطابك بما حكيت لى عن صلاتك اللطيفة بأهل الثقافة والكتّاب، وتلك اللحظات الجميلة التى قضيتها بينهم فى ظلال الريف، وأنا بالمقابل أحكى لك عن تلك المناظر البربرية للأتراك والألمان وهم

يسفكون دماء بعضهم بعضاً. لكن ماذا يمكنك أن تتوقع من بلد مثل هذا، هرب منه الإلهام وتلاشت منه الثقافة للأبد، ولا يسعون فى حياتهم الخاصة طلباً للسعادة لشيء أكثر من اللهو والشهوات الكسولة، ومن يهتمون بالقضايا العامة يعيشون فى قلق وريبة ورعب! ها هى المتعة هنا وأنا لست عدوة لها عندما تكون ملائمة وصادرة عن تكوين عقلى طيب، فمن المؤكد أنها ستكون مقبولة. إن النوق العام والحديث المذهب والصلات الإنسانية الطيبة أمور لا يعرفها الأتراك، ومع ذلك هم قادرون بالفعل على نيلها كلها، إذا توقفت روح الفساد فى حكوماتهم عن إعاقة العبقريات وتثبيط الاطلاع والمعرفة، وقمع منات الأفكار التى تنقى وتستنبط حياة أفضل. إن أهواء ورغبات القصر هى الوحيدة التى تشبع هنا غالباً، لكنها تمتزج كثيراً مع روح الطغيان المستبد من ناحية، والغم والحصار النفسى الناتج عنه من ناحية أخرى. المرأة هنا لا تعيش فى الواقع قيوداً شديدة كما يحكى الكثيرون، فهى تستمتع بدرجة عالية من الحرية حتى فى قلب العبودية، ولها طرق فى المراوغة والتخفى، مما يفضلن ممارستها فيما يخص العلاقات العاطفية، لكنها مع ذلك لاتزال ترزح تحت وطأة مخاوف ترقب الشر، فإذا اكتشف أمرها تتعرض لغضب، غيرة لا تعرف الرحمة، والأمر هنا لا ينتهى إلا بإراقة الدم. ويبدو أن هذا الأمر يمثل أحد أسباب المتعة الرئيسية لسيدات عليا القوم والأثرياء، فهن يرتبطن بحاشيتهن من الجوارى ويستمتعن بأدائهن للغناء والرقص وعزف الموسيقى والتزين بالملابس والحلى، لكن هناك كذلك جواً

من الشكليات الفارغة والجمود وسط هذه الأبهة يعوق شعورهن بالبهجة والسعادة على المدى الطويل، مع ذلك اعترانى إحساس بالانبهار لرؤيتي لهذه الأشكال فى المرة الأولى. هذا الأسلوب الجامد والشكى يحتل مكانة متميزة لدى السيدات التركيات، أما سحر المرأة اليونانية فيتجلى فى شخصية جد مختلفة، وطبيعة نفسية مختلفة، فمتعتهن تظهر فى أشكال أكثر حميمية وشخصياتهن وأسلوبهن وحديثهن ولهوهن، كلها أمور لا تخلو من الأناقة والبساطة.

لم يدهشنى خبر ترشيح مستر أديسون للوزارة، ذلك أننى أعلم أن ذلك المنصب عُرض عليه من قبل، وأنه رفضه، وأعتقد أنه كان يفعل خيراً لو رفضه اليوم. فمثل ذلك المنصب وتلك الكونتيسة كزوجة ليس من التعقل فى شىء. جدير برجل مصاب بالربو أن يتروى فى قبول هذه الأمور، وقد يأتى اليوم الذى نراه فيه سعيداً بتخليه عن الأمرين معاً. رائع أنه ركن جانباً فكرة معجمله الغزير، الذى سمعتك أنت أو غيرك يرددون ذكره كثيراً. لن أتحدث أكثر من هذا فى هذا الموضوع، ولا أريد أن أطيل فى هذا الشأن، لست واثقة إذا كان هذا الخطاب سيصل فى أمان ولن يقع فى يد من يفتحه. كم أشتاق للخطو على الأرض الإنجليزية، حتى تتاح لى رؤيتك ورؤية مستر كونجرىف، لقد أعدت ما لتلك الأرض كلاسيكيته، أم أنك ترفض حصول وزيرنا الحالى على جزء من تلك الميزة، مهما تكن الأسباب التى تدعوك للإحساس بعدم الرضا عنه لاعتبارات أخرى. أنتم الثلاثة أسعد الشعراء، أحدهم وزير، والآخر

يستمتع بقضاء وقت فراغه بكل مهابة فى وظيفتين مريحتين، وأنت برغم أن عقيدتك الدينية تمثل عقبة كأداء لرضا القصر وتحركك من شغل الوظائف الرفيعة، إلا أنك استطعت العثور على حجر الفلاسفة منذ ترجمت الإلياذة وحولتها إلى إبداع إنجليزى متميز دون أن تفقدها شيئاً من جمالها، لقد ساعدت على تدفق التيار الذهبى من باكتولوس إلى تويكنهام(*) فى نظرى تعد هذه بمثابة العثور على حجر الفلاسفة، لأنك وحدك من اكتشف السر ولا أحد سواك. لقد حاول ذلك كل من أديسون و تيكيل، لكن مساعيهما باءت بالفشل، وإن لم يكونا فقدوا أموالهما فعلى الأقل فقدوا جزءاً من سمعتهما فى تلك المحاولة، بينما استطعت أنت أن تلمس عن قرب عباءة الشاعر الذى بلغ عنان السماء، وتشربت روحه بها. أمل أن نحظى قريباً بترجمة للأوديسا من يدك الميمونة، وأظننى سأتابع بسعادة فريدة خطوات الرحالة عوليس، الذى كان يتمتع بقوة ملاحظة للبشر وأنماط سلوكهم فى أسفاره التى ترويها أبياتك الشعرية. أحبه أكثر بكثير من ابن بليوس المتهور الذى تمرد على قائده ، وبكى من أجل عشيقته ، وما إلى ذلك من أفعال... صحيح أن عظمة الإلياذة لا تعتمد على مزاياه الشخصية أو مكانته، لكننى أتمنى مع ذلك لو أن هوميروس اختار بطلاً أقل انفعالاً وجنوحاً للخيال، فالبطل المثالى ينزع للخيال وهو ليس طبيعياً، فلا يمكن أن يصبح قدوة أو يعلم درساً بينما ينبغى

(*) تويكنهام : مقر إقامة يوب .

تصوير بطل الملحمة محفوفًا بالنقائض الموجودة بكثرة في الطبيعة الإنسانية، إلا أنه لا ينبغي إطلاقاً أن يصور على أنه مناف للعقل تماماً. لكن من السخيف أن ألعب دور الناقدة، لذلك أستأذّنك في الختام هذه المرة، وأرجو أن تصدقنى، مع احترامى الشديد.

* * *

إلى السيدة ثيستيلثوايت

بيرا / القسطنطينية ، فى الرابع من يناير ١٨١٧

عزيزتى السيدة ثيستيلثوايت، أنا ممتنة لك بشدة على خطابك المشوق. أنت الوحيدة فيمن أرسلهم التى حكمت حكماً صائباً لأنك فكرت أننى سأسعد بتلقى أخباركم. أما من كتبوا لى فقد أخبرونى (تقريباً بنفس الأخبار) أنهم يفترضون أننى أعرف كل شىء. لماذا يفترضون هذا؟ بالطبع لا يمكننى تخمين السبب.

أتمنى أن أستطيع رد كرمك معى بما يمتعك ويسليك ببعض ما يحدث هنا. لكنى لا أعرف أى جانب من المناظر يشبع فضولك، أو إذا كان لديك فضول بالمرّة لأشياء بعيدة عنك. للحقيقة أقول لك إن متاعب الحمل التى أمر بها هذه الفترة لا تجعلنى أجد أية متعة فيما أراه حولى، فأرأسى مشحون تماماً بالاستعدادات الضرورية لاستقبال الوافد الجديد

والذى أتوقع قدمه كل يوم. تستطيعين بسهولة تخمين حالة القلق التى أعيشها. لكنى هادئة بعض الشيء بسبب البهجة التى أحسها لانتظار طفل جديد، وإلا لوصلت إلى حالة من الازدراء وأصبحت فريسة لحالة القلق والتوتر. لن تعرفى ما الذى يمكنك عمله حيال هذا الكلام، لكن فى هذا البلد إذا تزوجت المرأة ولم تنجب أطفالاً تصبح أكثر ازدراء من المرأة التى تنجب أطفالاً دون زواج لدينا. فلديهم تصور أن المرأة حين تكف عن إنجاب الأطفال فذلك لأنها تجاوزت سن الإنجاب مهما كان مظهرها ينبئ عن عكس ذلك، وهذا الرأى يجعل السيدات هنا على أقصى استعداد لإثبات شبابهن (وهو أمر شديد الأهمية لحسن استقبالهن، مثل إثبات حسن الحسب والدماء النبيلة للحصول على لقب فارس مالطا) فلا يكتفين باستخدام الوسائل الطبيعية، بل يجرين وراء كل أنواع الدجل والشعوذة لتجنب فضيحة تجاوز سن القدرة على إنجاب الأطفال، وغالباً يعرضن أنفسهن للموت بهذه الوسائل. وبدون أية مبالغة، كل النساء اللاتى أعرفهن والتى مضى على زواجهن عشر سنوات لديهن اثنا عشر أو ثلاثة عشر طفلاً، أما الكبيرات اللاتى تجاوزن سن الإنجاب فيتباهين بأنهن أنجن خمسة وعشرين أو ثلاثين طفلاً، وهن يلقين احتراماً بقدر عدد الذرية التى ينجبنها. عندما يكون لدى المرأة طفل واحد فالتعبير الشائع الذى يقال فى هذه المناسبة أنهم يأملون أن يكون الله رحيماً فيرسل لهم اثنين هذه المرة، وعندما سألت كيف يتوقعن النهوض بأعباء مثل هذا القطيع الذى يرغبن فى إنجابه؟ كانت الإجابة أن الطاعون سيتولى قتل نصفهم، وهو ما يحدث حقاً،

والوالدان لا يباليان به كثيراً ؛ لأنهما راضيان بغرور أن بإمكانهما الإنجاب مرات أخرى عديدة.

تضطر زوجة السفير الفرنسي أن تواجه هذا النمط من السلوك مثلى تماما . فلم يمر على وجودها هنا عام بعد ، لكنها عانت من ذلك . والجميل أن الحصانة التي تتمتع بها المرأة الولود أنقذتها من لعنة انتمائها لجنس النساء . فهن يتلقين الصديقات يوم الولادة ، وفي نهاية الأسبوعين الأولين يقمن برد الزيارات مرتديات حليهن ومجوهراتهن وملابس جديدة . أتمنى اكتشاف تأثير الطقس علىّ في هذه المناسبة . لكنني أخشى أنني سأظل امرأة إنجليزية فيما يتعلق بالولادة ، كما أفعل بصدد خوفاً من الحرائق والطاعون ، وهما أمران لا يثيران الكثير من الفرع هنا ، فمعظم العائلات احترق منزلها مرة أو مرتين ، وذلك بسبب طريقتهن الغريبة في التدفئة ، التي لا يستخدمون فيها لا مواقد ولا مدافئ ، بل آلة معينة تسمى (تندور) بارتفاع قدمين في شكل منضدة مغطاة بسجادة جميلة أو قطعة قماش مطرزة . وهي تصنع فقط من الخشب ويضعون فيها كمية ضئيلة من الرماد الساخن ، ويجلسون واضعين أقدامهم تحت هذه السجادة . وعلى هذه المنضدة يعملون ويقرءون وغالباً ينامون أيضاً ، وإذا استغرقوا في النوم وراحوا في الأحلام يرفسون التندور ، فتشتعل النار ويحترق المنزل . هناك خمسمائة منزل احترقت بهذه الطريقة منذ أسبوعين ، وقد رأيت عديداً من أصحاب تلك البيوت لا يبدو عليهم أقل تأثير بما حدث أكثر من اعتباره سوء حظ .

وهم يضعون أمتعتهم فى مركب صغير ذى ثلاثة صواري، ويقفون لمشاهدة بيوتهم تحترق بفلسفة عظيمة، فنادراً ما يصاب أحد بأى أذى حيث لا توجد لديهم سلالم يهبطونها.

أنا أحاول أن أقص عليك ما يسليك ويشوقك، فأحكى لك أموراً لا تروقنى، بينما ينبغى أن أحكى لك شيئاً مما يسرنى. الطقس هنا هذه الأيام رائع جداً. اليوم الرابع من يناير وأنا أجلس والنوافذ مفتوحة أستمتع بأشعة الشمس ، بينما تتجمدين أنت من البرد أمام مدفأة الفحم البائسة، وتزدان حجرة نومى بزهور القرنفل والورود والنرجس النضرة التى قطفتها من حديقتى. ويعجبنى كذلك بعض نقاط فى القانون التركى ولا بد من الاعتراف أن تخطيطها وتنفيذها أفضل من قوانيننا؛ وبالذات العقوبة المفروضة على من يثبت كذبهم (يعلم الله أنهم فى بلادنا مجرمون منتصرون) حيث تكوى جباههم بقضيب من حديد محمى مما يثبت افتراءهم بكذب فاضح. كم من الجباه البيضاء يمكننا أن نراها مشوهة، وكم من السادة المرموقين النبلاء قد يضطرون لارتداء شعورهم المستعارة حتى تغطى حواجبهم. هل يمكن لهذه القوانين أن تطبق لدينا! سأرسل لك تباعاً الكثير من أشكال العدل هنا، لكن على الآن أن أستدعى القابلة.

* * *

إلى الكونتيسة مار

بيرا/ القسطنطينية ، فى العاشر من مارس ١٧١٨

لم أكتب لك يا شقيقتى العزيزة طيلة هذه الشهور، وفى هذا قدر وافٍ من إنكار الذات. فلم أكن أعرف إلى أين أرسل خطابى، ولا فى أى جزء من العالم أنت. فلم أتلق منك رسالة منذ تلك الرسالة القصيرة فى أبريل الماضى حين أخبرتيني بعزمك على مغادرة إنجلترا ، ووعدتى بإبلاغى بالمكان الذى ستكونين فيه، لكنى انتظرت ذلك دون جدوى حتى هذه اللحظة. والآن فقط عرفت من جريدة الجازيت أنك عدت إلى إنجلترا، مما حدا بى أن أخاطر وأرسل لك هذه الرسالة إلى منزلك فى لندن. أرجح أن الخطابات العشرة التى أرسلتها لك قد فقدت، بينما تتصورين أننى لم أكتب لك ، وسيكون من حسن الحظ إذا كانت واحدة من تلك الرسائل قد وصلت. على أى حال، أنا أحتفظ بنسخة من كل رسالة كشهادة على رغبتى فى الكتابة لك من أعماق قلبى ، أكثر من كل الأمور المشوقة والمسلية التى استمتعت بها فى أسفارى، وأعفيك من الاستماع لما لقيته من متاعب وعوائق مزعجة.

فى المقام الأول أتمنى أن تكونى مستمتعة بصحبة ابنة أختك، فمنذ خمسة أسابيع اضطررت أن ألزم بيتى وأرقد فى الفراش بسبب الولادة. لا أحكى هذا كنوع من المغامرات المسلية، على الرغم من أننى ينبغى أن أعترف أن هذا ليس مخزياً نصف قدر ما يحدث فى إنجلترا

فهناك اختلاف كالفرق بين الإصابة بنزلة برد التى تحدث هنا كثيرا ، والإصابة بالداء المنتشر فى لندن. فلا ينبغي هنا لأحد أن يبقى راقداً فى منزله لمدة شهر، وأنا لست مغرمة بأى من عاداتنا لأتذكرها بلا داعى. قمت برد الزيارات التى تلقيتها فى نهايات الأسابيع الثلاثة الماضية، ومنذ أربعة أيام تقريباً عبرت البحر الذى يفصل المكان هنا عن القسطنطينية، لأقوم بزيارة أخرى حيث حظيت بفرصة طيبة للإلام بكثير من الطرائف.

ذهبت لزيارة السلطانة هافيتان التى كانت أثيرة لدى الإمبراطور السابق مصطفى، ذلك الذى كما تعلمين (وقد لا تعلمين) قد خلعه من العرش أخوه أحمد وهو السلطان الحالى، وقد مات مسموماً بعدها بعدة أسابيع قليلة، كما يعتقد الناس هنا عامة. تعرضت هذه السيدة على أثر وفاته مباشرة للإهانة الشديدة بتلقيها أمراً صارماً أن تترك سراى السلطان وتختار لنفسها زوجاً من كبار رجال الباب العالى. لعلك تتصورينها شديدة البهجة بعرض هذا الزواج. إلا أن الأمر على النقيض تماماً، فأولئك النساء اللاتى يسمين أنفسهن ملكات ويقدرن أنفسهن على هذا الأساس، ينظرن إلى تلك الحرية باعتبارها أكبر احتقار وإهانة يمكن أن تصيبهن. أُلقت بنفسها تحت قدمى السلطان وتوسلت إليه أن يقتلها بخنجره ؛ ويعاملها باعتبارها أرملة شقيقه فلا يهينها بهذا الشكل. ارتمت أمامه بكل أحزانها وبما أصابها من ذلك الحظ العاثر، وذكّرتة أنها قد أنجبت لعائلة السلطان خمسة أمراء، ماتوا جميعاً ولم

يبقى منهم إلا فتاة واحدة، ولم يلق هذا العذر صدقاً لديه، وأرغمت أن تختار، فاختارت بكير أفندي الذي يعمل وزيراً، ويبلغ الثمانين من عمره، لتقنع العالم أنها عازمة بحسم على تكريس ذاتها لما نذرت، بالأ تسمع لزواج آخر أن يقترب من فراشها، ولكن لأن عليها أن ترضى عليه شرقاً كبيراً لتستحق لقب زوجة له، اختارته كتعبير عن امتنانها ؛ لأنه هو نفسه الشخص الذي قدمها وهي في العاشرة من عمرها لزوجها وسيدها السابق. لكنها لم تسمح له إطلاقاً أن يزورها ولو مرة واحدة، على الرغم من أنها قضت حتى الآن خمسة عشر عاماً في بيته حيث تمضي وقتها في حداد دائم، وذلك أمر شديد الندرة في البيوت المسيحية، خاصة على أرملة في الحادية والعشرين من عمرها، فهي الآن في السادسة والثلاثين. ليس لديها خصيان لحراستها، وزوجها يعاملها بكل احترام كملكة، ولا يسأل إطلاقاً عما يجري من أمور في شقتها، حيث اقتابوني إلى غرفة فسيحة، بها كنبه بطولها، مزدانة بأعمدة من الرخام الأبيض مصطفة بانتظام، مغطاة بقطيفة مشجرة من اللون الأزرق الباهت على أرضية فضية، ووسائد من نفس الطراز، ودعوني للجلوس والاسترخاء حتى حضرت السلطانة التي ابتكرت هذا الأسلوب في الاستقبال لتتجنب النهوض لدى دخولي، رغم أنها أحنّت لى رأسها بالتحية عندما نهضت لاستقبالها. كنت سعيدة جداً لرؤية سيدة كانت متميزة ومفضلة لدى إمبراطور يرى الجميلات والحسنات من كل بقاع العالم كل يوم. لكنى لم أر فيها نصف حسن وبهاء فاطيمة التي رأيته

فى أدرنه، ومع ذلك تبدو على سماتها آثار جمالها اللطيف، الذى حطّمه
 الحزن وليس العمر. كان ثوبها رائع الفخامة، لا يمكننى أن أتمالك
 نفسى من وصفه لك. كانت ترتدى صدره، تختلف عن القفطان بإكمامها
 الطويلة، المثنية فى نهاياتها، أرجوانية اللون، على مقاس جسمها
 العريض من الجانبين، وتصل إلى قدميها، ومزينة حول أكمامها باللؤلؤ
 من أفضل الأنواع بنفس الحجم الذى صنعت منه الأزوار. لا تظنى أنها
 فى مثل حجم اللآلىء الكبيرة التى يستخدمها لورداتنا، لكنها تقارب
 حجم حبة البازلاء، وعلى هذه الأزوار تثبت عُرى من الماس، على شكل
 تلك العُرى الذهبية التى تستخدم عادة فى المعاطف التى يرتديها الرجال
 كزى رسمى لحضور أعياد الميلاد. كان هذا الرداء مربوطاً عند الخصر
 بشرابطين كبيرتين من لآلىء أصغر حجماً، وحول الذراعين تطريز بأحجار
 ماس كبيرة على شكل المعين، وحزامها عريض مثل أعرض شريط
 إنجليزى، ومغطى تماماً بأحجار الماس. ترتدى حول عنقها ثلاث سلاسل
 تصل إلى ركبتيها: واحدة من اللآلىء الكبيرة تتدلى منها زمردة ملونة
 رائعة فى مثل حجم بيضة أنثى الديك الرومى، والثانية مكونة من مائتى
 زمردة من اللون الأخضر الزاهى ملضومة معاً. وكل واحدة كبيرة فى
 مثل حجم نصف كراون وفى سمك ثلاثة كراونات، والثالثة من حجر
 الزمرد صغير الحجم كاملة الاستدارة. أما القرط الذى تضعه فى أذنيها
 فيفوق كل حليها، وهو عبارة عن ماستين تشبهان تماماً ثمرة الكمثرى
 وفى حجم بندقة كبيرة. ترتدى قلنسوة تلفها أربعة عقود من اللؤلؤ،

بباضها وكمالها من أروع ما صنّع فى العالم، وهى على الأقل تكفى لصنع أربع قلادات، كل واحدة منها كبيرة كالتى ترتديها دوقة مالبورو، ومثبتة بوردين ، تتوسط كل وردة ياقوتة كبيرة تحيطها عشرون ماسة نقية. بالإضافة لهذا، كان غطاء رأسها مغطى بدبابيس شعر من الزمرد والماس. كانت ترتدى سواراً كبيراً من أحجار الماس، وخمسة خواتم فى أصابعها، كل خاتم به ماسة كبيرة لم أر فى حياتى حجماً كبيراً مثلها (إلا ما يرتديه مستر بيت رئيس الوزراء). تجار المجوهرات فقط يستطيعون تقدير قيمة ما تترزين به من حلى، لكن وفقاً للتقدير العام للمجوهرات فى بلادنا فإن ما ترتديه لابد أن يساوى ثروة نقدية بمائة ألف جنيه إسترلينى. وأنا على يقين أنه ولا ملكة أوروبية تتحلى بنصف هذا الكم، وحتى مجوهرات إمبراطورة النمسا رغم روعتها تبدو مقارنة بذلك القدر شديدة التواضع.

قُدم لى الغداء فى خمسين طبقاً من اللحوم و (طبقاً لنمط حياتهم) وُضعت كلها على المائدة طبقاً بعد طبق، وقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً. لكن عظمة مائدتها كانت متفقة تماماً مع ما ترتديه من زينة وحلى. فالسكاكين من الذهب ، ومقابضها مرصعة بأحجار الماس، لكن أمانة الرفاهية والفخامة التى خطفت أبصارى كانت فى المفرش الذى يغطى المائدة ، ومناديل المائدة التى كانت كلها مصنوعة من الحرير ، ومشغولة بالذهب والفضة على هيئة زهور طبيعية فى أحلى أشكالها. شعرت بالأسف لاضطرارى لاستخدام هذه المناديل رائعة الصنع التى تماثل

أروع مناديل يد دخلت هذا البلد. و ثقى أنها اتسخت تماماً قبل أن ينتهى الغداء. قُدم الشربات (وهو المشروب الذى يشربونه مع الوجبات) فى سلاطين من الخزف، لكن الأغطية والصوانى من الذهب الثقيل. بعد الغداء أحضر الماء فى طسوت من الذهب ومناشف من نفس نوع مناديل المائدة، فترددت فى تجفيف يديّ بها، وقُدمت القهوة فى فناجين من الخزف وأطباق من الذهب.

بدأت السلطنة شديدة المرح وتحدثت معى بكل كياسة ولطف. ولم أغفل هذه المناسبة لأتعلم من خلالها كل ما يمكن أن أعرفه عن سراى السلطان، وهى أمور غير معروفة لدينا إطلاقاً. أكدت لى أن قصة إلقاء السلطان لمنذيله خرافة تماماً، وأن الأسلوب المتبع فى هذه المناسبة يقتصر على إرسال الكسلى أغانى لينقل للسيدة الشرف الذى يزمع إضفاءه عليها. وفى الحال بدأ الآخرون فى تهنئتها على ذلك وقادوها إلى حمام الاغتسال حيث عطروها وألبسوها أفضل الأثواب.

تبع السلطان ذلك بزيارته لها ومعه هدية ملكية ثم دخل شقتها. وأراد السلطان ذات مرة التعبير عن بهجته مصطحباً معه كل نساءه اللاتى وقفن فى دائرة حوله، وهى تعرف أنهن فى تلك اللحظة يمتن غيرة وحسداً من تلك السعيدة التى اختارها وميزها بتفضيلها عليهن بأى شكل، لكن هذا يبدو لى لا أفضل ولا أسوأ مما يدور فى معظم القصور

حيث يراقب الجميع نظرة الملك وكل ابتسامة منه تنتظر بفارغ الصبر وتلاقى حسد أولئك اللاتي لم يحظين بها.

لم تذكر السلطان مرة واحدة دون أن تتدفق الدموع من عينيها، ومع ذلك تبدو مولعة بالحديث عنه. فنقول : سعادتي الماضية التي " تبدو لي كحلم ومع ذلك لا يمكنني أن أنسى أنني حظيت يوماً بحب أعظم وأرق رجل في العالم. لقد اختارني دون الأخريات لأصاحبه في كل حملاته العسكرية، لم أكن لأحظى بدوام ذكراه لو لم أكن مغرمة بالأميرة ابنتي. ومع ذلك فكل حنانى لها بالكاد يجعلنى أبقى على حياتي. عندما فقدته قضيت اثني عشر شهراً لا أرى النور، لكن الزمن خفف من يأسي وأحزاني، ومع ذلك الآن لا يمر يومان أو ثلاثة من كل أسبوع دون أن أسبح في دموعي بكاء على ذكرى سلطاني".

لم يكن ثمة تصنع أو زيف في هذه الكلمات ؛ فقد كان من السهل رؤية أحزانها العميقة برغم أن روحها المرحية جعلتها ترغب في التسمية عنى.

دعنتى أن نتمشى في حديقتهما، وفي الحال أحضرت لها إحدى جواربها حرملة رقيقة من القماش المطرز المبطن بالفراء. انتظرتها في الحديقة ولم يكن بها شيء يستحق الذكر سوى النافورات، ومن هناك أرتنى كل شقتها، كان الحمام الخاص بحجرة نومها ظاهراً للعيان، وبه مرأتان مؤطرتان باللؤلؤ، وكان التولبوك الذى تضعه على رأسها

فى المساء معلقاً على مقبض من المجوهرات ، وبالقرب منه ثلاث صدریات من الفراء الجمیل تساوى كل واحدة منها ما لا یقل عن ألف دولار (مئتا جنيه إسترلینى). لیس لدى أدنى شك أن هذه الملابس الفخمة قد وُضعت بادية للعیان عن قصد، برغم أنها كانت تبدو كأنها ملقاة على الكنبه بلا مبالاة. عندما استأذنتها فى المغادرة طیبتنى بالعطور كما حدث فى منزل كبير الوزراء ، وأهدتنى منديل يد مشغولاً شديد الروعة. یبلغ عدد جواریها ثلاثین، بالإضافة لعشر صغیرات لا تتجاوز كبراهن سبع سنوات. كن أجمل فتيات رأیتهن فى حیاتی، یرتدين جميعا أفخر الثیاب، وقد لاحظت أن السلطانة تبتهج جدا بوجود أولئك الصغیرات الجمیلات، وهن یكلفنها كثيراً، حیث لا تباع الطفلة الجمیلة فى مثل هذا العمر بأقل من مائة جنيه إسترلینى. كن یضعن على رؤوسهن أكالیل الزهور، وكانت شعورهن المجدولة هى كل ما یغطى رؤوسهن، وأثوابهن مشغولة بالذهب. قدمن لها القهوة راكعات ، وأحضرن لها الماء عندما اغتسلت وما إلى ذلك... ویکمن قدر كبير من عمل الجوارى اللاتی یكبرنهن سنّاً فى العنایة بأولئك الفتيات، فیعلمنهن أشغال الإبرة ویدمنهن بعنایة كما لو كن أطفال العائلة.

والآن ، هل لى أن أتصور أنك تتخیلین أننى أسلیك بكل هذا وأحكى لك حكاية عربية من حكايات ألف لیله ولیله؟ حقاً إنها تشبه كثيراً (كما تقولین) الحوادیت العربیة. تلك المنادیل المطرزة! والجوهره التى تصل لحجم بیضة أنثى الدیک الرومى! لقد نسیت یا شقیقتى العزیزة أن

تلك القصص كتبها مؤلف من هذه البلاد، (فيما عدا موضوعات السحر) وهى أمور حقيقية بالنسبة لنمط العيش هنا. نحن الرحالة نعانى كثيرا، إذا لم نقل شيئا إلا ما قيل قبلنا نبدو مملين وكأننا لم نر شيئا، أما إذا حكينا عن أى شيء جديد يسخر منه الآخرون، باعتباره خرافيا ورومانسيا، وغير مسموح بمراعاة الظروف الاجتماعية التى ينتج عنها فروق فى البشر الذين يتاح لك لقاءهم، والمزيد من الأمور القريبة أو اختلاف العادات التى تحدث كل عشرين سنة فى كل البلاد. لكن الناس يحكمون على الرحالة بنفس الحياد تماما ونفس الطبيعة الطيبة والنزاهة، التى يحكمون بها على جيرانهم فى كل المناسبات. بالنسبة لى إذا عشت لحين العودة بينكم، ولأننى ملمة جيدا بأخلاق كل أصدقائى ومعارفى الأعزاء، قررت ألا أحكى لهم أى شيء إطلاقا لتجنب إلصاق أية حكايات مبالغ فيها بى (تلك التى من المؤكد أن خصالهم الطيبة ستدفعهم لتوريطى فيها). لكنى أعتمد على معرفتك بى بما يكفى لتصديقى مهما يكن ما أذاع عنه كحقيقة جادة، إلا أنتى سأتارك تندهشين بحكاية جديدة جدا عليك.

ماذا ستقولين إذا قلت لك إننى دخلت جناح الحريم ، حيث الشقة الشتوية جدرانها من خشب السنديان المرصع بالنقوش ومطعم بالصدف والعاج بألوانه المختلفة ومن شجر الزيتون، تماما مثل تلك الصناديق الصغيرة التى يحضرونها من هذه البلاد، والحجرات الصيفية حوائطها مكسوة بقشرة من الخزف اليابانى، والأسقف مذهبة والأرضيات

مفروشة بأروع سجاجيد فارسية؟ ومع ذلك لا شيء أكثر حقيقة مما أرويه لك، وهذا ما ينطبق على قصر صديقتي العزيزة الجميلة فاطيمة، التي تعرفت عليها في أدرنة. ذهبت بالأمس لزيارتها، وإذا كان من الممكن أن أقول إنها بدت لي أكثر روعة وبهاء مما رأيته من قبل، واستقبلتني عند باب حجرة نومها وصافحتني بأرق وألطف مصافحة في العالم، وعلى محياها ابتسامة بدت في رقة للال مليح، وهي تقول لي : "أنتن آيتهن السيدات المسيحيات يقال عنكن أنكن متقلبات ، ولم أتوقع برغم كل الطيبة التي عبرت عنها نحوى في أدرنة أننى سأراك مرة أخرى إطلاقاً، لكنى الآن مقتنعة بأننى حظيت بسعادة إرضائك، ولو تعلمين كيف أتحدث عنك بين سيداتنا، تأكدى أنك ستوفينى حق قدرى إذا صدقت أننى صديقتك." أجلستنى فى ركن على الأريكة وقضيت وقت الظهيرة فى حديث طلى معها منحنى أكبر سعادة فى العالم.

أما السلطانة هافيتان ، تلك السيدة التى يتوقع المرء بطبيعة الحال أن يجد خصالها فى السيدة التركية، ترغب فى المجاملة، لكنها لا تعرف كيف تفعل ذلك! ومن السهل أن تدركى من تصرفاتها أنها عاشت حياتها بمعزل عن العالم، لكن فاطيمة لديها كل التهذيب والتربية الطيبة التى يحظى بها من يتربى فى القصور، ويبدو ذلك من الجو الذى تبعته روحها فيمن حولها مباشرة، من احترام ورقة، والآن عندما أتقنت فهم لغتها وجدتها ذكية ذكاءً يماثل جمالها، فهى شديدة التطلع لمعرفة ما يجرى من أمور فى البلاد الأخرى وليست متعصبة لبلدها، وهو الأمر الشائع بين

صغار العقول. السيدة اليونانية التى صحبتنى لزيارتها ولم تكن رأتها من قبل (ولم يكن باستطاعتها أن تراها يوماً إن لم تكن بصحبتى) عبّرت عن دهشتها لجمالها وأسلوبها مما لا تخطئه العين من النظرة الأولى، وقالت لى بالإيطالية : " هذه لا يمكن أن تكون تركية، مؤكد أنها مسيحية" خمنت فاطيمة ما قالته المرأة ، وسألتنى فلم أصرح لها بما قالته اعتقاداً منى أنها لن تسعد بتلك المجاملة أكثر من سعادة إحدى جميلات قصورنا إذا قال لها أحدهم أن ملامحها تركية، لكن السيدة اليونانية أخبرتها بذلك، فابتسمت قائلة : " ليست المرة الأولى التى أسمع فيها هذا الكلام، فأمى بولندية أسرت فى حصار مدينة كامينيس ، وقد اعتاد أبى مداعبتى بقوله إنه يعتقد أن زوجته المسيحية وجدت شاباً أنيقاً مسيحياً أنجبتنى منه، لأن ملامحى لا تشبه ملامح الفتيات التركيات". أكدت لها أنه لو كانت كل السيدات التركيات مثلها لكان من الضروري بلا جدال أن نمنعهن من أن يراهن أحد، من أجل راحة الجنس البشرى، وأضفت شارحة لها الضجة التى يمكن إثارتها لمراى وجه مثل وجهها فى لندن أو باريس، أجابت بلطف : " لا أستطيع أن أصدقك، فلو أن الجمال له كل هذا التقدير فى بلادك كما تقولين لمنعوك من مغادرتها"، ربما يا شقيقتى الغالية تسخرين من غرورى بهذه المجاملة. أنا أحكى لك ذلك لأننى أعتقد أنها مؤثرة جداً كمثال على الروح التى يتصف بها حوارها.

كان منزلها مؤثثاً بفخامة وبيعث الراحة فى النفس، حجراتها الشتوية مفروشة بالقطيفة المشجرة على أرضية ذهبية، والحجرات الصيفية مفروشة بضرايبات هندية جميلة مشغولة بالذهب. إن منازل السيدات التركيات الأرستقراطيات نظيفة جداً مثل منازل الهولنديات. كان منزلها يقع على جزء مرتفع من البلدة، ومن مزايا الشقة الصيفية أنها ترى البحر والجزر وجبال آسيا.

طال خطابى دون أن أدري وأنا خجلة من ذلك. هذه علامة سيئة جداً. وهذا مقبول إذا لم أنحدر إلى مستوى الحكاء (الكاذبة). ربما ينطبق على ذلك مثلنا الشعبى الذى يقول : " قد لا تكون المعرفة عبئاً على صاحبها، لكنها حين تزيد عن الحد تكون سبباً فى إزعاج الآخرين".

* * *

إلى السيدة —

بيرا/ القسطنطينية ، فى السادس عشر من مارس ١٧١٨

أشعر بأقصى درجات السعادة يا سيدتى العزيزة لأنك أخيراً عثرت على مهمة تكلفيننى بها، وباستطاعتى تليتها دون إحباط لتوقعاتك، على الرغم أننى لابد أن أقول لك إنها ليست شديدة السهولة

كما قد تظنين، إن لم يكن فضولى يفوق فضول أى رحالة آخر حتى هذه اللحظة، وإلا كنت اضطررت للاعتذار كما حدث عندما طلبت منى ابتياع جارية يونانية، لكنى هذه المرة استطعت أن أفى بطلبك وأكتب لك قصيدة غرامية من الأدب التركى، ووضعتها فى علبة صغيرة وأمريت قبطان سفينة سميرنيوت أن يسلمها لك مع الخطاب. وقد قمت بترجمتها ترجمة حرفية، القطعة الأولى التى ينبغى أن تسحبها من الكيس هى أولؤة صغيرة، وهم بالتركية يسمونها إنجى:

يا أروع فتاة فى العالم

رقية كالقرنفلة

نقية كالوردة

أعشقك منذ زمن طويل

وأنت لاتدرين

أطلب منك أن ترقى لى

سارعى نحوى

وإلا سارع الموت

أو حتى المجدينى بكلمة

كما ترين، هذا الخطاب كله قصائد، وبإمكانى أن أؤكد لك أن هذا الشعر به من الخيال فى اختيار الألفاظ والجمل ما يوازى أجمل وأرق تعبيراتنا فى الإنجليزية. أعتقد أن هناك ملايين القصائد كُتبت فى هذا الغرض لا يوجد بها لون ، ولا زهرة ، ولا عشب ضارة ، ولا ثمرة ولا عشب ، نافعة ولا حصاة ، ولا ريشة طائر، إنها قصائد تخلو من رائحة الشعر تماماً، وقد تتشاجررين ، أو توبخين أحدهم أو ترسلين خطابات عاطفية أو خطابات صداقة وود أو لطف ومجاملة ، أو حتى أخبار دون أن تلوثى أصابعك بالحبر.

أتصور أنك تتعجبين الآن من ثقافتى العميقة، لكن واحسرتاه! يا سيدتى العزيزة ، لقد أصبت تقريبا بسوء الحظ الذى يشيع حدوثه بين أصحاب الطموح عندما توظف طاقاتهم فى غزو أشياء بعيدة، تافهة ، خارج أوطانهم. الثائر ينهض فى وطنه، أنا فى خطر شديد أن أفقد إنجليزيتى، فأنا لا أستطيع الكتابة بنصف السهولة التى كنت أكتب بها منذ اثنتى عشرة سنة مضت. وأرغم على الدرس لأستطيع التعبير عن نفسى بشكل جيد، بينما يجب أن أترك كل اللغات الأخرى وأحاول تعلم لغتى الأم. إن الفهم الإنسانى شديد المحدودية مثل القوى الإنسانية تماماً، أو الكفاءة الإنسانية. يمكن للذاكرة أن تبقى لكنها فقط مجموعة من الصور، ولأنه من المستحيل على مخلوق بشرى أن يتقن عشر لغات مختلفة إتقاناً تاماً، كما يستحيل أن يكون حاكماً مثالياً لعشرة ممالك، أو يقاتل عشرة رجال فى وقت واحد، أخشى فى النهاية ألا أجيد أية لغة

كما ينبغي. أنا أعيش فى مكان يشبه جدا برج بابل، فى بيرا يتحدثون التركية، واليونانية، والعبرية، والأرمنية، والعربية، والفارسية، والروسية، والسلافية، والهندية، والألمانية، والهولندية، والفرنسية، والإنجليزية، والإيطالية، والمجرية، والأسوأ من ذلك هناك عشر من هذه اللغات تنطق داخل بيتى. فسائسو الخيل الذين يعملون لدى عرب، وحرس المشاة فرنسيون وإنجليز وألمان، والممرضة أرمنية، والخادمات روسيات، ونصف دسته أخرى من الخدم يونانيون، والقهرمان إيطالى، والجنود الإنكشارية أترك، وهكذا تجديتنى أحيا استماعاً أبدياً لهذا المزيج من الأصوات التى ينتج عنها تأثير غير معقول لمن يعيشون هنا، فهم يتعلمون كل هذه اللغات فى آن واحد، ودون معرفة كافية للقراءة والكتابة. القليل جدا من الرجال والنساء أو حتى الأطفال من لا ينطقون بجملة واحدة من خمس أو ست من هذه اللغات . أنا شخصياً أعرف عديداً من الأطفال الذين يبلغون الثالثة أو الرابعة من أعمارهم ويتحدثون الإيطالية ، والفرنسية ، واليونانية ، والتركية ، والروسية، وهم يتعلمونها من مربياتهم اللاتى ينتمين عموماً لهذه البلاد. يبدو لك هذا غير معقول، لكنه بالنسبة لى واحد من أغرب الأشياء فى هذا البلد، وهو أمر ينزع الكثير من أصالة سيداتنا اللاتى يوقع الغرور فى أنفسهن الطموح لاكتساب تلك العبقريات غير العادية و ضمان المعرفة السطحية للفرنسية والإيطالية.

ولأننى أفضل الإنجليزية عما عداها من كل هذه اللغات، فأنا مشوشة إلى أقصى درجة بسبب هذا التدهور اليومى الذى يحدث فى رأسى، بينما أؤكد لك (بحزن من عمق قلبى) أن هذا الانحطاط يقلل من عدد كلماتى لدرجة أننى لا أستطيع أن أتذكر جملة ممكنة لأختم بها رسالتى، وأضطر أن أقول لسيادتك بكل صدق إننى خادمك المخلصة المتواضعة.

* * *

إلى الكونتيسة بريستول

العاشر من أبريل ١٧١٨

أخيراً وصلتني منك أخبار لأول مرة يا سيدتى العزيزة. أنا مقتنعة بالطبع أنك تكرمت و كتبت لى من قبل، لكن حظى العاثر أفقدنى خطاباتك. منذ خطابى الأخير وأنا أعيش فى هدوء فى القسطنطينية، ولعل من واجبى أن أقدم عنها لسيادتك فكرة صائبة لأننى أعرف أنه لم يتج لك عنها إلا تلك الفكرة الضئيلة والمغلوبة التى وردت فى كتابات الرحالة. مؤكد أن هناك كثيرين قضوا سنوات هنا فى بيررا دون أن يروا القسطنطينية، ومع ذلك كان لديهم من الجرأة أن يصفوها.

بيررا ، وتوفانا ، وغلطة تمتلئ تماماً بسكان من الأوروبيين المسيحيين (وهى مدن ذات مظهر جميل جدا) ويفصل بينها البحر،

إنما لا يصل إلى نصف عرض نهر التيمس. لكن الرجال المسيحيين يشمنزون من المخاطرة بالمجازفة ، والمخاطرة التي يواجهونها أحياناً من المراكبية أو الملاحين (أفزع من المراكبية لدينا)، ويتحتم على النساء أن يغطين وجوههن إذا ذهبن إلى القسطنطينية، وهو أمر بغيض في نظرهن. صحيح أنهن يرتدين الحجاب فى بيرا لكن ذلك فقط بهدف إظهار جمالهن أكثر، مما لا يسمح به فى القسطنطينية. والأخذ بهذه الأسباب يمنع تقريباً كل المخلوقات من الاقتراب من العاصمة، ويخيل إلى أن حرم سفير فرنسا ستعود إلى فرنسا دون أن تذهب هناك إطلاقاً.

ستتعجبين سيدتى عندما تسمعيننى أضيف أننى أتردد هناك كثيراً. فاليشمك أو الحجاب التركى سهل جدا وكذلك يروقنى، وإن لم يكن الأمر كذلك لرضيت بتحمل بعض الإزعاج لإرضاء عاطفة قوية فى نفسى وهى الفضول. وفى الواقع ، إن متعة الذهاب إلى تشلسى فى زورق لا تقارن برحلة التجديف فى القناة البحرية طوال عشرين ميلاً فى البسفور، حيث تطل عليك أجمل مناظر فى العالم . فالضفة الآسيوية مغطاة بأشجار الفواكه والقرى وأجمل مناظر طبيعية فى العالم. أما على الضفة الأوروبية على نهر التيمس فتقوم مدينة القسطنطينية فوق سبعة تلال. وذلك الارتفاع يظهرها كبيرة كما هى فى حقيقتها. (فهى بالفعل من أكبر المدن فى العالم) ويشمل منظرها خليطاً رائعاً من الحدائق، وأشجار الصنوبر ، والسرو ، والقصور ، والمساجد ، والبنائيات العامة تصطف وراء بعضها بعضاً بأروع ما يمكن أن يعرضه مشهد جميل ومتناغم رأيتة فى حياتك.

عنيت بمشاهدة أكبر قدر يمكن رؤيته من سراى القصر. إنه مقام على أرض تمتد فوق البحر على مساحة شاسعة، لكنه غير متناسق، فالحدائق تحتل مساحة كبيرة من الأرض مليئة بأشجار السرو العالية، وهى الأشجار الوحيدة التى أعرفها من بين أشجاره، البنايات كلها من الأحجار البيضاء ، فى أعلاها أبراج صغيرة وقمم مستدقة تبدو شديدة الفخامة، وحقيقة لا أعتقد أن هناك قصرًا ملك مسيحي فى نصف اتساعه، حيث يتكون من ستة قصور كبيرة كلها مستديرة ومحاطة بالأشجار والأروقة الحجرية المعمدة؛ واحد لإقامة الحرس ، والآخر للخدم والثالث للطهارة ، والرابع لإسطبلات الخيول ، والخامس للديوان السلطاني والسادس للمقابلات الرسمية. فى الجناح الخاص بالسيدات هناك قصور على الأقل أكبر مما سبق، بل وهناك أيضا قصور تخص خسيانتهن وخدمتهن ومطابخهن وما إلى ذلك ...

البناء الآخر الجدير بالذكر هو كنيسة سانت صوفيا، وهى من الصعب دخولها. اضطررت أن أرسل ثلاث مرات إلى القائم مقام (حاكم البلدة) وقام باستشارة الأفندية الكبار أو رجال القانون وسأل المفتى إذا كان التصريح لى بدخولها يعد أمراً قانونياً أم لا. مرت عدة أيام فى هذا النقاش المهم ، كنى ألححت فى طلبى، فسمح لى بما طلبت. يقال إن قبة سانت صوفيا يصل قطرها إلى مائة وثلاثين قدماً، وتقوم على أقواس مدعمة بأعمدة كبيرة من الرخام، والأروقة والسلالم من

الرخام أيضا، وفيها صفان من الأعمدة مدعمة بأعمدة أصغر منها من الرخام الملون، والسقف كله من الفسيفساء. هناك جزء تهدم بسرعة وسقط، أهدوني حفنة من أطلاله، بدا لى البناء برمته وكأته نوع من الزجاج أو معجون بالمجوهرات المقلدة. شاهدت مقبرة الإمبراطور قسطنطين، وهم يولونها توقيراً شديداً. بالطبع هذا وصف ممل لا يفى ذلك البناء العظيم حقه، لكنى لا أفهم الكثير فى المعمار، لذلك أخشى أن أتفوه بهراء إذا حاولت الحديث بشكل متخصص. ربما أكون مخطئة لكن بعض المساجد التركية بعثت فى نفسى بهجة أكثر، مثل جامع السلطان سليمان وهو مربع تماما وله أربع مآذن فى زواياه الأربع، وفى منتصفه قبة ضخمة مدعمة بأعمدة رخامية جميلة، وقبتان أصغر على طرفيه مدعمتان بنفس الطريقة، الأروقة والأبهاء حول المسجد من الرخام، تحت القبة الكبيرة نافورة مزينة بأعمدة ملونة بالغة الجمال لا أكاد أصدق أنها من الرخام الأبيض، وفى الجانب الآخر الرواق الصغير الخاص بالخليفة يؤدى إليها سلم جميل مبنى من المشربيات المذهبة. فى نهايته من أعلى نوع من المذبح مكتوب عليه اسم الله، وأمامه شمعدانان بارتفاع قامه رجل، بهما شمعتان فى سمك ثلاثة مشاعل. الأرضية مفروشة بسجاجيد جميلة والمسجد مضاء بعدد كبير من المصابيح، والفناء المؤدى إليه رحب جدا وبه أعمدة من الرخام وأعمدة خضراء مغطاة بثمانى وعشرين قبة تسير فى اتجاهين، ونافورة جميلة فى منتصفها ثلاثة أحواض.

هذا الوصف قد ينطبق على كل مساجد القسطنطينية، فهى على نفس النموذج بالضبط، والاختلاف الوحيد يكمن فقط فى المساحة وثراء

الخامات. مسجد الوالدة أكبرها جميعاً ومبنى كله بالرخام وهو أروع منها جميعاً، وأعتقد أنه أجمل بناء رأيته فى حياتى، ويقال إنه مكرمة لجنسنا لأن من أسسته والدة محمد الرابع. ويمكننا - لصداقتنا - أن نقول بيننا بصراحة إن كنيسة سانت بول ليست سوى بناء يثير الشفقة مقارنة به، مثل أى ميدان من مياديننا بالنسبة لميدان أتليردان ، أو إسطنبول الخيل (آت بالتركية تعنى حصاناً) . كان هذا مضماراً لسباق الخيل فى عصر الأباطرة اليونانيين العظام، فى منتصفه عمود نحاسى مكون من ثلاث حيات ملتفة على بعضها وأفواهها مفتوحة. ومن المستحيل أن تعرفى سبب إقامة مثل هذا العمود الغريب فى ذلك المكان، حتى اليونانيين ليس لديهم ما يقولونه فى هذا الصدد إلا بعض الأساطير الخرافية إذا سألهم أحد عن معناه، ولا توجد عليه أية علامة أو حتى نقش يوضح وظيفته، فى نهاية المضمار توجد مسلة من الرخام السماقى ربما جلبت من مصر، مغطاة كلها بالكتابة الهيروغليفية، لا أرى فيها أكثر من مجرد كتابة قديمة. وهى مقامة على أربعة أعمدة نحاسية صغيرة، تحتها قاعدة مربعة من الحجر السلس مليئة بنقوش ضئيلة البروز على الجانبين، أحد المربعات يمثل معركة ، والثانى يشبهه والآخران بهما كتابة منقوشة باليونانية واللاتينية. دونت الكتابة اللاتينية فى مفكرتى وهى أنا أنقلها لك ويمكن أن يفسرها لك زوجك. لا تظنى أنها رسالة حب منى إليه! فجميع التماثيل تحمل رءوسها سليمة، وقد سبق لى القول إن الرحالة الذين ذكروا قطع رءوس التماثيل هنا كاذبون

ولم يشاهدوا شيئاً بأنفسهم، وكل كتاباتهم مقتبسة من اليونانيين الذين يقاومون بشدة ما يرونه بعيونهم، فى حين يلفقون الأكاذيب للحط من شأن أعدائهم. فيقولون لك إذا سألتهم إنه ليس فى القسطنطينية ما يستحق المشاهدة سوى سانت صوفيا رغم وجود العديد من المساجد الأكثر اتساعاً وضخامة، ومنها جامع السلطان أحمد الذى يتميز بخصوصية شديدة، فبواباته من النحاس الأصفر. وفى كل هذه المساجد يوجد مصلى صغير، وبها مقابر مؤسسيها وعائلاتهم، حولها الشموع الكبيرة.

والأسواق تقوم فى مبانٍ فخمة مليئة بالممرات الكبيرة الجميلة، المدعمة فى أغلبها بالأعمدة وهى نظيفة نظافة مذهشة. كل سلعة تجارية لها ممرها الخاص بها، والتجار يعرضون بضاعتهم بنفس طريقة نيو ماركت فى لندن. والبيزستان أو القسم الخاص ببيع المجوهرات يعرض كثيراً من الحلى النفيسة جداً، وكميات هائلة من أحجار الماس وكل أنواع الأحجار الكريمة التى تخطف الأبصار. وكذلك تتألق محلات بيع الأقمشة المطرزة فى بهاء، والناس يتجولون للفرجة والشراء معاً. الحوانيت فى أغلبها مربعة الشكل جميلة، وتثير الإعجاب ربما أكثر من أى سوق فى أى مكان آخر فى العالم.

أعرف أنك تتوقعين أن أحكى لك طرائف عن الجوارى، ربما يخيل إليك أننى أصبحت نصف تركية؛ إذ لا أتحدث بنفس الطريقة التى تحدثت بها المسيحيات من قبلى. لكنى لا أستطيع أن أمنع نفسى من

الثناء على الانسانية التى يتعامل بها الأتراك مع هذه الكائنات، فهم لا يسيئون معاملتهم إطلاقاً، وفى رأى ليست عبوديتهن أسوأ من معاملة خادمت البيوت فى أى مكان فى العالم. صحيح أنهن لا يتقاضين رواتب لكنهن يحصلن سنوياً على ملابس أكثر قيمة من الرواتب التى تمنحها لخادمتنا العاديات. لكنك ستعترضين على أن الرجال يبتاعون للنساء وعيّنهم الأخرى على المقابل. فى نظرى، أرى أنهم يبيعون ويشتررون علناً ويلاقون على ذلك سمعة أسوأ مما يستحقون مقارنة بما يحدث فى كل مدننا المسيحية الكبرى.

لابد أن أضيف إلى وصف القسطنطينية أن العمود التاريخى الشهير لم يعد له وجود، فقد سقط قبل وصولى بعامين. لم أر آثاراً للعصور القديمة عدا قناطر المياه، وهى شديدة الاتساع وأميل للاعتقاد أنها شديدة القدم عن عصور الإمبراطورية اليونانية، رغم أن الأتراك لصقوا عليها بعض الأحجار المنقوشة بكتابات تركية، ليضيفوا على قوميتهم مجد الأعمال العظيمة - لكن هذه الحيلة - سهلة الكشف.

من البنايات العامة الأخرى الحانات و الأديرة (تكايا الدراويش)، الأولى كثيرة جداً، والثانية قليلة فى العدد ولا تتميز بالفخامة. حدا بى الفضول أن أزور إحداها وأرى شعائر العبادة التى تتم فيها، وهى غريبة كمثيلاتها فى روما. أولئك الأشخاص لديهم تصريح بالزواج لكنهم

يرتدون ملابس غريبة وهى ليست أكثر من قطعة قماش أبيض خشن يلتفون بها، وأذرعهم وسيقانهم عارية. وهذا النظام له قوانين قليلة أخرى فيما عدا ذلك يقيمون شعائر الصلاة كل أربعاء وجمعة بالطريقة التالية: يلتفون جميعا فى قاعة كبيرة يقفون مثبتين عيونهم على الأرض، وأذرعهم مربعة، ويقرأ الإمام جزءاً من القرآن الموضوع على منبر فى المنتصف، وعندما ينتهى من القراءة يبدأ ثمانية أو عشرة منهم فى العزف على المزمار (وهى آلة موسيقية) عزفاً حزيناً. ثم يترأسهم مرة أخرى ويقوم بشرح موجز لما قرأه فيعودون للعزف والغناء حتى ينهض كبيرهم (الوحيد الذى يرتدى اللون الأخضر) ويبدأ فى رقصة وقورة. يلتفون حوله فى دائرة منتظمة، بينما يعزف بعضهم ، ويربط الآخرون ثيابهم (وهى شديدة الاتساع) ويلصقونها بشدة على صدورهم ويبدأون فى التمايل حوله فى نعومة مدهشة وهم يسايرون الموسيقى فيتحركون أبطأ وأسرع حسب الأنغام التى تعزف. يستمر هذا لمدة تتجاوز الساعة دون أن يبدي أى منهم أقل مظاهر الدوار، وهو أمر لا يثير عجبك عندما تعرفين أنهم يمارسون هذا الطقس منذ طفولتهم، فمعظمهم مكرسون لطريقة العيش هذه منذ ميلادهم، وهم أبناء لدرأويش. ويتحرك بينهم درأويش صغار فى السادسة أو السابعة من العمر، ويبدون متناغمين مع الحركة التى يؤديها الجميع. فى نهاية إتمام الطقس يصيحون بصوت عال لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم يقبلون كبيرهم وينصرفون. يتم الحفل كله فى وقار وسمو شديد. ليس هناك درجة

تقشف أكثر من تلك التى يحياها أولئك الأشخاص، فهم لا يرفعون
عيونهم عن الأرض إطلاقاً، ويبسو عليهم التفانى فى التأمل الروحانى، وغرابة
هذا الوصف ترجع لشيء مؤثر فى جو الخضوع والتفانى الذى يبديونه.
طال هذا الخطاب بشكل مروع وتستطيعين إحراقه عندما تنتهين
من قراءته.

* * *

إلى الكونتيسة — العاشر من أبريل

أستعد الآن لمغادرة القسطنطينية، وقد تتهميننى بالرياء والنفاق
عندما أقول لك إننى أشعر بالأسف لمغادرتى إياها، وقد اعتدت عليها
وأتقنت لغتها، وأشعر بالراحة فيها، وعلى الرغم من حبى الشديد
للترحال فقد أرانى ارتعش لفكرة القلق المصاحبة لرحلة كبيرة بها هذا
العدد الكبير من الأتباع، وطفل صغير فى مرحلة الرضاع. فإننى أسعى
أن تمر هذه المناسبة مثلما مر غيرها من تلك التنقلات الغريبة التى
حدثت فى حياتى، وأحولها بقدر استطاعتى لمصدر للبهجة، ولذلك
أخرج كل يوم ملتفة بالفراجية واليشمك فى دروب القسطنطينية وأسعد
نفسى برؤية كل ما هو غريب فيها.

أعرف أنك تتوقعين أن يصحب هذا التصريح بعض الحكايات مما أشاهده. لكنى لست فى حال مزاجية تسمح لى بكتابة ما كتبته وكررتة من قبل. فلأى غرض مثلاً أقول لك إن القسطنطينية هى بيزنطة القديمة؟ وإنها فى الوقت الحاضر محل غزو سلالة من البشر المفترض أنهم سفاحون؟ وإن بها خمسة أو ستة آلاف مسجد؟ وإن مسجد القديسة صوفيا بناه الإمبراطور قسطنطين؟ وما إلى ذلك ... أؤكد لك أنها ليست مجرد رغبة فى العلم أن أتعهد بكتابة كل هذه الأشياء الجميلة. أستطيع أيضا بيع بعض المعاناة أن أقرأ لك كل ما كتبه نولز وسير بول ريكوت لأقدم لك قائمة بالأباطرة الأتراك، لكنى إن أحكى لك عما يمكن أن تعثرى عليه لدى المؤلفين الذين كتبوا عن هذا البلد. أنا أهتم أكثر بتناقضات أحوال المرأة لأخبرك عن زيف جزء كبير مما قرأته لدى أولئك المؤلفين، مثلاً، فى كتب السيد هيل التى تحوز الإعجاب يروى بجسارة أنه رأى فى كنيسة القديسة صوفيا عموداً ينضح بالزيت يشفى أوجاع الرأس. ليس هناك إطلاقاً أى شىء من هذا القبيل، وأظن أنه رآه فى رؤية أثناء إقامته فى سراديب المقابر المصرية، لأنى واثقة تمام الثقة أنه لم يسمع حتى بمثل هذه المعجزات هنا.

ومن المثير كذلك أن تشهدى كيف يميل هو وغيره من كتّاب الرحلات لثناء حالة المرأة التركية التى ترسف فى القيود، ربما تكون فى واقع الأمر أكثر النساء تحرراً فى الكون، والمرأة الوحيدة فى العالم التى تستمتع بمباهج الحياة دون تدخل أو خشية، فهن يقضين أوقاتهن

فى تبادل الزيارات وارتياح الحمامات، واللهو والإنفاق، ويخترعن أيضا أسباباً جديدة للبهجة ، وقد يظن البعض أن رجالهن مجانيين إذ يدعوهن ينفقن بهذا البذخ الذى لا يحده إلا ماتراه هى نفسها. إن مسئولية الرجل تكمن فى الحصول على المال وهى تنفقه، وهذا الكرم لا يقتصر على طبقة بعينها، بل إنه يسع حتى الطبقات الدنيا، فالرجل الذى يحمل على ظهره صرة المناديل المشغولة ليبيعهها، وهو شخص فقير لا يزيد عن أقل بائع متجول، يؤكد لك أن زوجته تخجل أن ترتدى شيئاً أقل من الملابس المرصعة بالذهب ولديها ملابس من الفراء، وعلى رأسها مجموعة رائعة من الحلى والمجوهرات. صحيح أنهم ليس لديهم أماكن عامة سوى الحمامات التركية وهناك لا يمكن اختلاط الجنسين، ومع ذلك فهى تمثل نوعاً من اللهو يستمتعن به كثيراً.

منذ ثلاثة أيام كنت فى واحد من أزوع حمامات المدينة، وحظيت بفرصة مشاهدة عروس تركية يستقبلونها هناك، وشهدت كل الطقوس التى تتم فى تلك المناسبة، مما جعل عقلتى يستحضر قصيدة زفاف هيلين لثيوقراط، ويبدو لى أن تلك العادات لا زالت مستمرة هنا. كان الجمع من النساء من الصديقات والقريبات والمعارف من كلا العائلتين مندمجين معا بعد هذا التعارف الجديد ، ولقائهن فى الحمام، وجاءت أخريات من باب الفضول وأعتقد أن ذلك اليوم كان بالحمام ما لا يقل عن مائتى امرأة. أولئك المتزوجات أو اللاتى كن متزوجات من قبل جلسن معا فى الحجرة ذات الأرائك الرخام، أما العذارى فخلعن ملابسهن بسرعة وظهرن دون

أية أردية عدا شعورهن الطويلة المجدولة باللؤلؤ والأشرطة. اثنتان منهن استقبلتا العروس عند الباب، ترافقها أمها وواحدة من قريباتها. كانت العروس فتاة جميلة فى السابعة عشرة من عمرها ترتدى ملابس فخمة وتبرق بالمجوهرات، لكنها بدت أقل جمالاً بعد ذلك بطبيعتها عندما تجردت من الحلى. امرأتان أخريان تحملان أنية فضية مذهبة مليئة بالعصير، بدأتا الطقوس وتبعتهما الباقيات اثنتان اثنتان حتى وصل عددهن إلى ثلاثين امرأة. وأولئك اللاتي يقدن الأمور كن يغنين أغاني الزفاف والباقيات يرددن خلفهن فى كورس، وآخر اثنتين قادتا العروس الجميلة وهى خافضة البصر وجهها يتورد حياءً وسحراً، طفن حول قاعات الحمام الثلاث الكبيرة. ليس من السهل أن أصور لك جمال هذا المنظر، معظمهن رشيقات وبيضاوات وكلهن ناعمات البشرة تماماً، وأجسادهن المصقولة تلمع من كثرة استخدام الحمام، بعد انتهاء الجولة الأولى أقتيدت العروس مرة أخرى إلى العقيلات فى الحجرات الأخرى، فحيينها بلطف ورقة وقدمت لها كل واحدة هدية، البعض قدمنها من المجوهرات ، والبعض قدمن قطعاً من القماش أو المناديل المطرزة أو أشياء لطيفة من هذا القبيل، وقد عبّرت عن شكرها لهن بتقبيل أيديهن.

سعدت جداً برؤية هذا الحفل، وصدقيني أن السيدات التركيات شدييدات الذكاء والكياسة وكذلك متحررات الفكر والثقافة مثل كثيرات من سيداتنا. صحيح أن هذه العادات نفسها هى التى منحتهن الفرص

لتوريط أنفسهن فى نزوات (إذا كان منهن من يقتترف هذه النزوات) وهذا أيضا يعرضهن لانتقام أزواجهن عندما يكتشفون مثل تلك الأمور ، وليس لدى أدنى شك أنهن أحياناً يعانين بشدة جزاء أعمالهن الحمقاء وينلن عقاباً قاسياً جداً .

منذ شهرين عثر ساعة الفجر - ليس بعيدا عن بيتى - على جثة امرأة شابة دامية وعارية إلا من قطعة قماش ملفوفة حولها ، بها جرحان أثر طعنات سكين ، إحداهما فى جنبها ، والأخرى فى صدرها . لم تكن جثتها قد بردت بعد وكانت شديدة الجمال لدرجة أن أغلب رجال بيرا ذهبوا لمشاهدتها ، ولكن لم يستطع أحد التعرف عليها ، فوجوه النساء غير معروفة لهم ، وسرت الظنون بأنها لقيت حتفها فى القسطنطينية وتم إحضارها فى جُنج الليل وإلقاؤها فى ذلك المكان . كان التحقيق الذى تم إجراؤه حول جريمة القتل تلك تحقيقاً ضعيفاً للغاية ، وتم دفن الجثة بسرية وبدون ضجة تذكر . جرائم القتل هنا لا يتم استقصاؤها من قبل ضباط الملك كما يحدث لدينا ، ومن شأن أهل القتل أن يأخذوا بثأره ، وإذا فضلوا تسوية الموقف مقابل المال (وهم غالبا يفعلون ذلك) ينتهى الأمر عند ذاك الحد . قد يتخيل المرء أن هذه نقيصة تتسم بها حكومتهم تسهل من تكرار حدوث هذه المأسى ، ومع ذلك فهى نادرة الحدوث ، وهذا يؤكد بشدة أن هؤلاء القوم ليست القسوة من طبعهم ، ولا أعتقد كذلك أنهم يستحقون الأوصاف البربرية التى نصفهم بها . أنا على معرفة جيدة بامرأة مسيحية من الطبقة الراقية اختارت بنفسها

الزواج من رجل تركى ، وهى سيدة لطيفة ومتقفة. أما قصتها فشديدة العجب، لا يمكننى إلا أن أحكيها لك، لكن أعدك أننى سأؤجز بقدر استطاعتى.

إنها إسبانية وكانت تعيش فى نابلس مع أسرتها حين كانت تلك المملكة تحت سيطرة الإسبان. أتت إلى هنا فى فلوكة وبصحبتها شقيقها، قبض عليها الأميرال التركى وهاجم قاربها الشراعى وأخذه. والآن، كيف لى أن أحكى لك بكل تواضع بقية مغامرتها؟ لقد حدثت نفس الحادثة مع الجميلة لوكريتيا قبلها بسنين طويلة، لكنها كانت متمسكة بدينها المسيحى لدرجة أنها قتلت نفسها، كما فعلت تلك الرومانية الوثنية. كان الأميرال شديد السحر، حريصاً على أسيرته الجميلة التى عانت طويلاً من قبل، وكان أول موقف دمى منه أنه منح شقيقها ومرافقيه حريتهم، فأسرع بالرحيل إلى إسبانيا وفى غضون عدة شهور قليلة أرسل أربعة آلاف جنيه إسترليني كفدية لشقيقته. أخذ التركى النقود بعد أن أخبرها بها ومنحها حريتها، لكن السيدة بمنتهى الحكمة والتعقل فكرت فى المعاملة التى ستلقاها إذا عادت لوطنها ؛ لأن أقاربها الكاثوليك من المؤكد سيحبسونها فى دير حتى نهاية عمرها (حيث إن هذا أفضل شئ يمكن أن يصنعوه بها فى ظروفها الحالية). كان حبيبها التركى شديد الوسامة والحنو، مغرماً بها، يلقى بسخاء تحت قدميها بكل عظمتة التركية. فأجابته عن عزم وتصميم أن حريتها ليست أغلى عليها من شرفها، وليس أمامه من سبيل لاستبقائها غير الزواج منها،

أقنعتة أن يقبل فديتها كدوطة لزواجه منها، حتى يعرف الجميع أنه لا يمكن لرجل أن يتشرف بوصالها دون زواج. انتشى الأميرال لهذا العرض الطيب وأعاد النقود لأهلها قائلاً إنه سعيد بالارتباط بها دون دوطة. تزوجها ولم يتزوج غيرها إطلاقاً. و (كما تقول هي نفسها) لأنها لم تشعر إطلاقاً بالندم على اختيارها. بعد ذلك بعدة سنوات تركها سعيًا وراء أرملة من أغنى نساء القسطنطينية، ولأنه لا ينبغي للمرأة هنا أن تبقى بلا زواج، دفعتها هذه الاعتبارات للزواج من الباشقبطان الحالي (الأميرال)، أى سلف زوجها فى عمله - أخشى أن تظنى أن صديقتى وقعت فى غرام مغتصبها، لكنى أكثر ميلًا لتصديق ما روته بنفسها، أنها تصرفت تمامًا بكل ما يمليه الشرف والكرامة على الرغم من أننى أرى منطقيًا أنها تأثرت بكرمه معها وهى صفة يتميز بها أهل هذه الطبقة من الأتراك.

والحقيقة هى درجة من الكرم، ومن النادر جدا أن تجدى تركيًا يتصف بالزيف. أنا لا أحدث عن الطبقات الدنيا لأن الإهمال ينتشر بينهم بشكل كبير ولا يتمسكون إلا بقليل من الفضيلة، والحيل والمكائد عندهم أرخص مما يحدث فى المسيحية، وهؤلاء البؤساء لا يعاقبون بالقسوة التى يستحقونها حتى لو انفضح أمرهم علانية.

الآن أحدثك عن قوانينهم، لا أعرف إذا كنت قد ذكرت لك من قبل إحدى العادات المعروفة فى بلادهم، أقصد التبنى، وهو أمر شائع جدا لدى الأتراك وأكثر شيوعاً بين اليونانيين والأرمن. وهم لا يفعلون ذلك مع

أخذ الأصدقاء أو نوى القرابة عن بعد لتجنب الوقوع فى خيانة الخليفة، عندما يئأسون من إنجاب أطفال بأنفسهم يختارون طفلاً جميلاً ولداً أو بنتاً من أكثر الناس وضاعة ، ويأخذون الطفل ووالديه إلى القاضى ويعلنون أنهم يستأجرونه. فى نفس الوقت يتبرأ الوالدان من المطالبة به مستقبلاً ، وتكتب وثيقة بذلك ، ويوقع عليها الشهود ، وهكذا لا يحرم هذا الطفل من حقوقه الطبيعية فى حياة أفضل. ومع ذلك رأيت بعض المتسولين الذين يرفضون ترك أولادهم بهذه الطريقة لأغنى العائلات اليونانية (غريزة ارتباط الوالدين بالأطفال غريزة شديدة القوة لديهم مع أن الآباء الذين يتبنون الأطفال يعاملونهم بحنو شديد ويطلقون عليهم أبناءهم بالروح. وأشهد أن تلك العادة تسعدنى أكثر بكثير مما يحدث لدينا من عبث الانتماء بالاسم. ففى ظنى أنه أكثر معقولة أن تجعل طفلاً يتيماً سعيداً وثرىاً وتمنحه تعليمًا يرضيك، وينشأ على ركبتك (على حد التعبير التركى) فيتعلم كيف يتطلع إليك باحترام نابع من شعوره بالبنوة تجاهك ، أكثر من أن تمنح ضيعة بحالها لمخلوق دون أية ميزة أخرى أو علاقة سوى قليل من الخطابات. ومع ذلك فهذا العبث كثيراً ما يحدث بيننا .

لقد ذكرت لك الأرمن ، وربما يكون من المناسب أن أحكى لك عن هؤلاء القوم الذين لا أظنك تعرفين شيئاً عنهم. لن أزعجك بالحكى فى الأمور الجغرافية لموقع هذا البلد، تستطيعين أن ترى ذلك فى الخريطة، ولن أحكى لك عن عظمتهم فى الأزمان السحيقة، تستطيعين أن تقرنى

ذلك فى كتب التاريخ الرومانى، وهم من رعايا الأتراك وهم متفوقون فى شئون التجارة، وعدد سكانهم كبير حيث ينتشرون فى كل بقاع الدولة التركية، يحكى أنهم تبعوا الديانة المسيحية على يد القديس جريجورى وربما يكونون أكثر المسيحيين تقوى فى العالم أجمع. تقتضى التعاليم الدينية لكهننتهم فرض الحفاظ الشديد على فترات الصيام الدينية، وهى لا تقل بأى حال عن سبعة شهور فى العام، ولا يعفى منها أى شخص حتى فى أقصى حالات الضرورة، ولا توجد مناسبة مهما كانت يمكنها أن تقصيهم عن ذلك ، فلا يمسون شيئاً أكثر من بعض الأعشاب أو جذور النباتات والخبز الجاف (دون استخدام الزيوت). ذلك هو نظام الصوم عندهم. والمستر ورتلى لديه مترجم منهم، وذلك الشخص البائس نشأ على ممارسة هذه الأصوام القاسية لدرجة اليأس من الحياة. ومع ذلك فلا أوامر سيده ولا توسلات طبيبه (الذى أعلنها صراحة أنه أمر ضرورى لإنقاذ حياته) أفلحت فى إقناعه أن يأخذ ملعقتين أو ثلاث من الحساء، وهو ما يمكن أن يطلق عليه تعود ، أكثر من كونه نوعاً من الدين لا أرى كثيراً من الاختلاف العقائدى بيننا وبينهم.

يتميز الزواج بالغربة الشديدة فى عاداتهم ، وهو طقس لا أعتقد أن له مثيلاً فى كل المعمورة؛ فهم عادة يخطبون الفتيات فى سن صغيرة جداً، وعندما يتزوجون لا يرى العريس عروسه إلا بعد ثلاثة أيام من عقد القران، يحملون العروس إلى الكنيسة وعلى رأسها قبة على طراز معين من الخشب العريض وفوقها حجاب حريرى أحمر يغطيها تماماً

من رأسها حتى أخمص قدميها. يسأل الكاهن العريس إذا كان يقبل الزواج من تلك المرأة، حتى إذا كانت بكماء أو عمياء، هذه هي الكلمات حرفياً التي يجيب عليها بالموافقة، فيقودونها إلى منزله، يرافقها كل أصدقاء وأقارب الطرفين، يغنون ويرقصون، ويجلسونها على وسادة فى ركن من كنية، لكن حجابها لا يرفعه أحد إطلاقاً ولا حتى زوجها، حتى تتم ثلاثة أيام بعد عقد القران. ثمّة شىء شديد الغرابة والبشاعة فى هذا الأسلوب لدرجة أننى لم أصدق هذا حتى رأيته بنفسى فى كثير من أفراح أولئك الأرمن الذين أكنوا لى حقيقة الأمر، خاصة أحد الشباب الذى بكى وهو يحدثنى لأن والدته خطبت له فتاة يتحتم عليه أن يتزوجها بهذه الطريقة رغم أنه صرّح لى باعتراضه على الأمر ، لدرجة أنه يفضل الموت على الخضوع لهذه العبودية، خاصة أنه رأى عروسه بالفعل وهى فى عينيه شائهة إلى أبعد حد.

أتصورك تحسدين نفسك على نعمة الله الذى لم يضعك فى مثل هذا الموقف. لا يسعنى أن أختم خطابى بالمزيد من هذه القصص المشوقة، ومع ذلك فهى حقيقية جداً مثل وجودى أنا شخصياً على قيد الحياة.

شقيقتك —

* * *

إلى الأب كونتى

القسطنطينية فى التاسع عشر من مايو ١٧١٨

أنا فى أقصى حالات السعادة لسماعى أخبارك، وقد ركبنى غير قليل من الغرور لتلك الأسئلة الطريفة التى سألتنى إياها، على الرغم من عدم قدرتى على إجابتها إجابة وافية. فى الواقع حتى لو كانت لى مقدرة إقليدس الرياضية، فالأمر يتطلب عمراً لملاحظة الهواء والبخار. وأنا لم أكمل عاماً هنا بعد، بالإضافة إلى أننى دائمة التنقل. فقدرى أن أهيم على وجه الأرض. ولو أن ذلك سيدهشك ويدهش أى شخص فإنه يدهشنى أنا أيضاً بنفس القدر.

ربما تتهمنى بالكسل أو البلادة أو الاثنين معا لأننى من الممكن أن أغادر هذا المكان دون أن أمنحك بعض المعلومات عن البلاط التركى. لكنى أستطيع فقط أن أقول لك إنه إذا كان يسعدك أن تقرأ كتب السير بول ريكوت ستجد فيها موضوعات مشبعة وصادقة عن الوزراء والبكوات والحكومة المدنية ، والحكومة الدينية ، والقصر الحاكم وغير ذلك من الأمور التى من السهل جدا أن تجدها مدونة فى قائمة وتعتمد عليها فى استيقاء معلوماتك، أما غير ذلك من القصص فאלه وحده يعلم - لا أقول أكثر من ذلك - مدى الحرية فى كتابة ما يروونه من ملاحظات، لكن أنماط العيش لدى البشر قابلة للتغيير ، بل إن بعضها لا يسعى الرحالة أن يلمسوه أو حتى يلاحظوه، لكن الأمر ليس بهذا الشكل فيما يتعلق بالحكومة ولأننى لا يمكننى إضافة أى جديد لن أقول شيئاً فى هذا الصدد.

وبنفس منطق الصمت هذا سنمر على ترسانة صناعة الأسلحة والأبراج السبعة، أما المساجد فقد وصفت لك سابقاً واحداً من أرقى المساجد التي رأيته بتفصيل شديد. لكنى لا أستطيع السكوت عما ورد من أخطاء فى كتابات الرحالة الجملى (لأننى أوقره أكثر من أى كاتب رحلات آخر) فهو يقول إنه لا توجد أية آثار لكالكيدونية ، وهذا خطأ حقيقى، كنت هناك بالأمس وعبرت المضيق على متن سفينتى ذات المجاديف، والبحر شديد الضيق بين تلك المدينة والقسطنطينية. لا زالت بلدة كبيرة وبها كثير من المساجد. والمسيحيون يطلقون عليها كالكيدونيا، أما الأتراك فيسمونها اسماً آخر نسيته، إلا أنه مجرد تحريف لنفس الاسم. وأظن أن خطأ الرحالة يرجع للمرشد الذى كان يصاحبه وأن إقامته القصيرة عاقته عن تصحيح ذلك الخطأ، لأننى أقدره للغاية لتقييمه العادل لموضوعات كثيرة وأقدر صدقه ودقته فيها. إن المضيق هنا يثير البهجة، والأتراك يستمتعون تماماً بجماله، فكل أماكن اللهو والترفيه أقاموها على ضفتيه، ويحظون فى الوقت نفسه بأروع مشهد فى أوروبا وآسيا، وبالقرب منه مئات القصور الفخمة.

إلا أن العظمة البشرية لا تزال هناك أكثر قلقاً من أى مكان آخر، فمن الشائع أن الورثة من بطانة الباشاوات الكبار ليسوا على درجة الثراء التى تخول لهم إصلاح المنازل، وفى غضون أعوام قليلة تتحول إلى خرائب. كنت بالأمس أشاهد منزل الصدر الأعظم السابق الذى قُتل فى بيتروارادين. قد بنى القصر لاستقبال عروسه الملكية، وهى ابنة

السلطان الحالي، لكنه لم يعيش حتى يراها فيه. تمنيت أن أصفه لك لكنى راجعت نفسى لإدراكى أننى لن أملك الوصف المرجو، فهو مقام على قمة أروع مناطق المضيق، ومبنى من أخشاب جميلة على جانب تل وراءه. وشديد الاتساع ، وأكد لى الحارس أنه يحتوى على ثمانمائة غرفة، لكنى لن أؤكد لك عدد هذه الغرف لأننى لم أعدها بنفسى، لكن من المؤكد أن عددها كبير جداً، وكلها من الرخام والذهب وبأروع الرسوم والنقوش فى شكل فواكه وزهور. والنوافذ كلها من أرقى أنواع الكريستال المطلوب من إنجلترا، وكل مظاهر الفخامة والأبهة التى يمكن أن تتوقعها فى قصر مؤسس لشاب مرفه مختال بثرائه. لكن ولا جزء منه أسرنى كما أسرتنى الحجرات المصممة للحمامات. هناك اثنتان مبنيتان على نفس الطريقة، متطابقتان تماماً، والحمامات والنافورات والأروقة كلها من المرمر الأبيض ، والأسقف مطلية بالذهب والجدران مغطاة بالخزف، لكن هناك حجرتان ملحقتان بهما، الجزء العلوى منهما مقسم إلى كنبه من المرمر الأبيض، حتى نهاية الحجرة من أسفل، حيث ينتهى إلى حوض كبير محاط بالأنابيب التى توصل المياه إلى أعلى بارتفاع الحجرة. و الحوائط لها طبيعة المشربية، مزروع خارجها الكروم ونباتات متعرشة تشكل نوعاً من النسيج الأخضر وتضفى على هذه الحجرات الجميلة غموضاً ساحراً.

يخيل إلى أن أستمروا وأحكى لك عن حجرات كثيرة (كلها جديدة بفضولك) لكن الأمر كثير الصعوبة عندما تتصدى لوصف قصر تركى

قح، مبنى كله بشكل غير منتظم بالمرّة. فلا شيء يمكن وصفه بأنه واجهة المبنى أو جوانبه ، والمربك والمحير فى ظنى أنه الأجل عندما تقع عليه عينك إلا أنه لا يمكن أن يوصف فى خطاب لشدة غموضه. بإمكانى أن أقتصر على وصف القاعة المصممة للسلطان عندما يكون فى زيارة ابنته، الأجزاء السفلى للجدران مغطاة بالصدف المثبت بالزمرّد بدلاً من المسامير. هناك حجرات أخرى مزدانة بالصدف وخشب الزيتون، والكثير من الخزف اليابانى. الأروقة - وهى كثيرة العدد وطويلة - عامرة بأوانى الزهور والأطباق البورسلين المليئة بالفاكهة من كل صنف، مصنوعة من الجص الأملس المتقن ، وملون بأسلوب بهى ، مما يترك فى النفس أثراً ساحراً. والحديقة متلائمة مع المنزل، بها الأشجار والنافورات والممرات المتناسقة فى وجودها معاً بشكل يحير الأبواب. إنه قصر لا ينقصه شيء من أمور الزينة إلا التماثيل، وهكذا ترى يا سيدى أن هؤلاء القوم ليسوا على درجة قليلة من الثقافة والرقى كما تتصورهم. حقاً إن ذوقهم يختلف عن ذوقنا وربما يفوقه، وفى رأى الشخصى أنهم يمتلكون حساً مرهفاً للحياة، يتضح ذلك فى موسيقاهم وحدائقهم وكرومهم وأطعمتهم الشهية بينما نحن نعذب عقولنا بالخطط السياسية أو دراسة علوم لن نستطيع بلوغها إطلاقاً، وحتى إذا بلغناها لن نستطيع إقناع الناس بإرساء تلك القيم المستقاة منها والتي نقتنع بها. من المؤكد أن ما نستشعره ونراه هو مجرد شعور ورؤى توافق أمرجتنا الشخصية (هذا إن كان هناك أصلاً توافق)، لكن السمعة الطيبة وحماس الإطراء من الصعب شراؤها

وحتى حين تحصل عليها لا تكافأ بما تستحق من ثواب بسبب ضياع الوقت والصحة. نحن نموت أو نشيخ فى العمر ونعجز قبل حصد ثمار جهودنا. إذا أدركنا إلى أى مدى يعتبر الإنسان حيواناً ضعيفاً قصير العمر. هل هناك من علم ينفعنا مثل تأمل متعة وسعادة الحاضر؟ لكنى لا أجرؤ على مواصلة الخوض فى هذا الموضوع، ربما لأننى بالفعل تحدثت أكثر من اللازم، لكنى أعتد على معرفتك الحقيقية بأعماق قلبى وأستبعد نهائياً المرح السخيف الذى قد ألقاه كرد على هذا الخطاب من شخص سواك. فأنت قادر على تمييز فكرة السعادة عن فكرة الحزم مما يختلط فى أذهان الحمقى وحدهم. لكنى أسمح لك أن تسخر منى لتفضيلى ذلك الأفندى والمثقف التركى بكل جهله على سير إسحق نيوتن بكل علمه.

* * *

إلى الأب كونتى

تونس فى الحادى والثلاثين من يوليو ١٧١٨

غادرت القسطنطينية فى السادس من الشهر الماضى، وهذا أول خطاب أبعث به من هنا، رغم أننى تمنيت طويلاً أن تسنح لى الفرصة بنقل بعض من متعتى بهذه الرحلة عبر أجمل بقاع العالم، وكل منظر أراه يبعث فى نفسى أبياتاً شعرية.

يلتهب خيالاً ينبض الشـــــــــــــعر

تطالع عيناى تلك الجزر الخالدة والبحر الشهير

فطالما عزفت عروس الشعر على أوتار قيثارها

فلم يبق جبــــــــــــــــــــل أو قمة لم تتغن به

أعتذر لك عن هذه الطفرة، وسأكمل لك حكايتى نثراً. فى اليوم
التالى بعد إبحارنا مررنا بجاليبولى وهى مدينة جميلة على خليج
كيرسنسيس والأتراك يولونها كثيراً من الأهمية كونها أول بلد غزوها فى
أوروبا. فى الخامسة من صباح اليوم التالى رسونا فى هيلسبونت بين
قلاع سيستوس وأبيدوس، ويسموننا الآن الدردنيل، وبها حالياً قلعتان
قديمتان بلا قوة، لأنهما أسفل أرض مرتفعة خلفهم، وكان من الممكن
ألا ألحظهما إطلاقاً لو لم أسمع تعليقات قبطاننا وضباطه، وراح
عقلى يسبح فى خيالاته حول تلك القصة المأساوية ومن المؤكد أنك
تعرفها جيداً:

ذلك العاشق السابح، وعروس الأماسى

كيف عشقت هيرو، وكيف مات لياندر غرقاً

ها أنا أعود للشعر مرة أخرى! مؤكد أننى تأثرت تأثراً شديداً بهذا
الجو الشاعرى المحيط بى. ذلك أن المكان فى أبيدوس بلا أدنى شك يثير

العواطف، لدرجة أن تلك العواطف الناعمة أُلقت بالقلعة فى أيدى الأتراك فى عهد الملك أوركانونس الذى حاصرها. رأت ابنة الحاكم فى رؤية فى منامها زوج المستقبل (وأشك أنها نامت فوق كعكة العروس أو صامت صيام القديسة أجنس) فتصورت أنها رأت صورته العزيزة فى شكل واحد من محاصريها، ولرغبتها فى الانقياد لقدرها أُلقت إليه بورقة من فوق السور، تعرض فيها نفسها والقلعة عليه، فقدمها لرئيسه الذى حاول اختبار إخلاص نواياها ، فتراجع بجيشه وكُف الشاب بالعودة بصحبة مجموعة منتقاة فى منتصف الليل. قابلته فى الموعد المتفق عليه، فما كان منه إلا أن حطم الحامية العسكرية وأخذ والدها أسيراً وتزوجها. تقع هذه المدينة فى آسيا، وكان أول من أسسها مجموعة جنود مارقين. أما سيتسوس فتقع فى قارة أوروبا، وكانت ذات يوم أهم مدينة فى كورنثوس. منذ رأيت ذلك البوغان لم أجد غرابة فى مغامرة ذلك العاشق ليندر، أو جسر قوارب إكسپيرسيز. إنه بوغان ضيق جدا لا يثير الدهشة أن يحاول عاشق شاب عبوره سباحة أو أن يحاول ملك طموح عبوره بجيشه. وهذا البوغان عرضة للعواصف مما يجعل هلاك ذلك العاشق وتحطم جسر الملك الغازى أمراً عادياً. ومن ذلك المكان يمكنك التطلع لجبل إيدا لتراه بأكمله.

هناك ذات مرة لاطفت جونو حبيبها — روبيتر

ووقع سيد العالم أسيراً لهذا الغرام المشـبـوب

لا يقبل الناس على الإبحار من هذا المكان، وقد رأيت المكان الذى دُفنت فيه المسكينة هيكوبا (الأرملة التعسة التى فقدت زوجها وأبناءها فى حرب طروادة)، لا يبعد عدة فراسخ بحراً عن هنا، وبعد حوالى فرسخ من ذلك المكان تقع رأس الإنكشارية الناتئة فى عرض البحر، الشهيرة بسيجاي حيث رسونا وأمدنى الفضول بقوة جعلتنى أتسلق قمة ذلك الجبل البارز على سطح البحر لأرى المكان الذى دُفن فيه أخيل، وجرى فيه الإسكندر الأكبر عارياً حول مقبرته تبجيلاً له، ومما لا شك فيه أن هذا التبجيل أسعد روح أخيل. رأيت هناك أطلال مدينة كبيرة جداً ووجدنا قطعة حجر استطاع المستر ورتلى أن يميز عليها كلمات ساجان بولين. طلبنا بعد ذلك رفعها إلى ظهر السفينة، لكن كاهنا يونانيا أرانا أحجاراً كثيرة غيرها أكثر غرابية، على الرغم من أنه رجل جاهل لم يستطع أن يقدم لنا أية معلومات ممكنة. فعلى جانبى كنيسة الصغيرة يوجد حجران ضخمان يبلغ طول كل منهما عشرة أقدام وعرضه خمسة أقدام وسمكه ثلاثة. الحجر الوحيد على يمين الباب من الممر الأبيض شديد البهاء جانبه مكسو بنقوش منمنمة رائعة تصور امرأة تبدو أنها تمثل إلهة ما، جالسة على مقعد بمسند تحت قدميها وأمامها امرأة أخرى تبكى وتقدم لها طفلاً صغيراً تحمله على ذراعيها، يتبعها موكب من النساء يحملن أطفالاً بنفس الطريقة. من المؤكد أن هذا جزء من مقبرة قديمة، لكنى لا أجد تفسيراً واضحاً لها. أما الحجر القائم على الجانب الأيسر من الباب فعليه نقوش شديدة الجمال وأنا واثقة أنى

نقلتها بالضبط، لكن اللغة اليونانية أقدم ما يعرفه المستر ورتلى، وهو يظن أنه اشتراها من أحد المواطنين الفقراء، وأنها مجرد نسخة مقلدة، ويؤسفنى أنها تطابق النسخة التى يمتلكها أحد معارفنا، وفى رأيه يمكن الحصول على النسخة الأصلية من أحد المواطنين الفقراء بمبلغ ضئيل من المال. لكن قبطاننا أكد لى أنه دون وجود ماكينات مصنوعة خصيصاً لحمل مثل هذه الأحجار الثقيلة يستحيل نقلها إلى الشاطئ، وحتى لدى وصولها للشاطئ فإن قاربه الطويل ليس كبيراً بما يسمح بحمل هذه الأحجار.

أطلال هذه المدينة يسكنها الآن فقراء الفلاحين اليونانيين الذين يرتدون ملابس الفلاحين البسيطة، وترتدى نساؤهم جونلات قصيرة مثبتة برباط يلتف حول أكتافهن وقميصاً ذا أكمام طويلة من الكتان الأبيض وأحذية وجوارب نظيفة، وعلى رؤوسهن قطعة كبيرة من المسلمين تهبط على أكتافهن فى طيات طويلة - أحد أبناء وطنى وهو السيد ساندريز (لا شك أنك قرأت كتابه كواحد من أفضل الكتب فى مجاله) يتحدث عن هذه الأطلال زاعماً أنها أسس مدينة بناها قسطنطين قبل ميلاد بيزنطة لكنى لا أرى سبباً وجيهاً لهذا الخيال، وأميل للاعتقاد أنها أكثر قدماً من ذلك بكثير.

رأينا من ذلك الجرف الصخرى الناتى على وجه البحر نهر سيموس نابعاً من جبل إيدا ، متدفقاً عبر واد شديد الاتساع. وقد أصبح الآن نهراً على أهمية كبيرة ويسمى سيموريس، يلتقى عبر الوادى

بنهر سكماندر الذى يبدو جدولاً مختنقاً بالوحل، لكنه ربما يكون أكثر طولاً فى الشتاء. كان هذا زانوس بين الآلهة كما يحكى لنا هوميروس وبذلك الاسم السماى استحضرتة الحورية أونوت إلى باريس واعتادت عذارى طروادة منحه عذريتهن باسم سكماندر، إلى أن حدثت المغامرة التى حكاها مسيو دى لا فونتين فقضت على ذلك الطقس الوثنى. حين اتحد الجبل مع نهر السيموار وسارا معا حتى صبا فى البحر.

كل ما بقى من طروادة الآن مجرد الأرض التى كانت تقوم عليها، ومهما كانت الآثار القديمة التى يعثرون عليها هناك فهى أكثر حداثة، وأعتقد أن سترابون يقول نفس الشئ: على أى حال ثمة بعض المتعة فى رؤية الوادى ؛ حيث أتخيل المبارزة بين مينلوس وباريس، وحيث قامت ذات يوم أعظم مدينة فى العالم، ومن المؤكد أنه أروع موقع فى الوجود لعاصمة إمبراطورية عظيمة، وأنا أجدها تفوق القسطنطينية بمراحل، الميناء هنا ملائم دائماً لترسو عليه السفن من كل بقاع العالم، أما ميناء القسطنطينية فلا يتاح العمل به إلا ستة شهور فى السنة حيث تسيطر عليه رياح الشمال.

إلى الشمال من رأس سيجاي رأينا رأس راتو المشهور بضريح آجاكس. بينما كنت أطلع إلى تلك الحقول والأنهار الشهيرة أعجبت بمعلومات هوميروس الجغرافية ودقتها، وكانت فى يدي. تقريباً كل وصف أطلقه على جبل أو سهل لا يزال كما هو، وقضيت عدة ساعات فى التأمل مثلما فعل دون كيشوت فى جبل مونتسيوس. أبحرنا ذلك

المساء إلى الشاطئ حيث يشيع خطأ أن الطرواديين حلوا هنا، وبذلك جهداً كبيراً لأكون هناك في الثانية صباحاً وأرى في تلك الأطلال التي يشهدها عادة الغرباء والتي يطلق عليها الأتراك إسكى استانبول أو القسطنطينية القديمة. لذلك السبب ولأسباب أخرى خمنت أنها بقايا مدينة بدأت بها القسطنطينية. استأجرت حماراً (وسيلة النقل الوحيدة المتاحة في المكان) لاستطيع التوغل داخل البلدة ، وقمت بجولة حول الجدران القديمة التي تمتد في أطوال كبيرة. عثرنا على أطلال قلعة على تل، وأخرى في وادٍ ، وكثير من الأعمدة المهتمة، وقاعدتي تماثيل نقلت من عليها بعض النقوش اللاتينية.

لا يعتريني أدنى شك أن أطلال ذلك المعبد الذي وجدناه بالقرب من ذلك المكان هي خرائب متبقية عن أحد معابد الإمبراطور أغسطس، ولا أدري لماذا يدعوها مستر سانديز معبداً مسيحياً، فمن المؤكد أن الرومان بنوا معابد في هذا الجوار. هناك الكثير من المقابر المبنية من المرمر الجميل والتماثيل الكبيرة من الجرانيت يتضاؤل حجمها يوماً بعد يوم بسبب القذائف الضخمة التي يصنعها الأتراك منها لدافعهم. مررنا ذلك المساء بجزيرة تنيدوس التي كانت ذات يوم تحت رعاية أبوللو لكنه تركها بنفسه عن طيب خاطر تودداً إلى دافني ، ومحيط قطرها لا يزيد على عشرة أميال. لكنها في تلك الأيام كانت شديدة الثراء وأهلة بالسكان ولا تزال حتى اليوم مشهورة بخمرها الجيد. لم أقل شيئاً عن تينيس الذي تنسب إليه ، لكنى سأحدثك عن ميتايلين التي مررنا بها بعد

ذلك، لا يمكننى أن أسكت عن الحديث عن ليسبوس ، حيث غنت سافو
وحكم بيتاكوس ، وهى مشهورة بمولد ألكوس وثيوفراستوس وأريون،
وهم سادة الشعر والفلسفة والموسيقى. هذه واحدة من آخر الجزر التى
بقيت تحت السيطرة المسيحية بعد غزو الأتراك للقسطنطينية. شعرت
بالأسى ونحن نبحر بسرعة من هذه الجزيرة فى بحر إيجا، ثم الأرخبيل
تاركين وراءنا سسيو (ثيوس القديمة) على يسارنا، وهى أكثر هذه
الجزر ثراءً وعمراناً بالسكان، معروفة بقطنها الجيد ، وقمحها ،
وحريرها، وزراعتها لأشجار البرتقال والليمون، ولا يزال جبل أرفيس
معروفاً بالعصائر التى تنتجها محاصيل هذه الجزيرة كما ذكرها
فيرجيل. وهنا يُصنع أفضل حرير فى كل تركيا. البلدة جميلة العمارة،
وتعرف نساؤها بجمالهن وهن يسرن سافرات الوجوه مثل المسيحيات.
وتوجد بها عائلات كثيرة ثرية، رغم ذلك يحرصون على اقتصار بهائهم
وغناهم داخل بيوتهم تجنباً لغيرة الأتراك الذين يولون باشا حاكماً هنا،
على أى حال هم يستمتعون بحرية معقولة ، وهم منغمسون فى روح بلادهم.

يأكلون ويغنون ويرقصون كل أوقاتهم

يستمتعون بنضارة بســــــــــــــــاتينهم

ـــــــــــــــــعداء مستبشرون بمناخهم

تحكمهم قيود خفيفة على الرغم من أنه ليس يبعد كانوا يرحلون
تحت أغلال شديدة ، فلم يقعوا تحت سيطرة الحكم التركى إلا فى عام

١٥٦٦ . لكن ربما من السهل عليهم الخضوع لحكم السلطان التركي مثل أهل جنوة الذين باعهم لها الإمبراطور اليوناني، لكنني نسيت نفسي في هذه اللمسات التاريخية الخارجة عن سياق الموضوع الذي أكتب لك عنه. بمرورنا عبر البوغاز الواصل بين جزر أندروس وآكايا وصلنا إلى ليباديا، فرأينا رأس سونيام الجبلى على سطح البحر ويطلق عليه الآن رأس كولونا حيث تنتصب أعمدة معبد منيرفا الهائلة. هذا المشهد المهيّب جعلنى أفكر بأسف مزدوج فى معبد شسيوس الجميل والذي أكد لى محدثى أنه كان موجوداً بأكمله فى أثينا حتى آخر حملة عسكرية فى اليونان ، ذلك أن الأتراك حشوه عن آخره بالبارود وحدث أن انفجر. فكرت كثيراً فى النزول إلى شبه جزيرة بيلوبونس المعروفة حالياً باسمها الحديث(موريا) لا لشيء سوى رؤية أنهار إيسوبوس، وبيننيوس، وإيناكوس ، وإيروتاس، وحقول أركاديا ، وغيرها من المشاهد المرتبطة بالميثولوجيا القديمة. لكن بدلاً من أنصاف الآلهة والأبطال قيل لى بتأكيد شديد إنها الآن معقل للصوف وأنه من الخطر الجسيم أن أضع نفسى بين أيديهم بالقيام بمثل هذه الرحلة عبر مناطق مهجورة، وعلى أى حال . ناك ما يمنعنى شخصياً من إزعاجك بحكى تفاصيل ذلك التاريخ بداية من تأسيس نيكانا وكورينث حتى آخر حملة عسكرية غزت المكان، أبحرنا فى هدوء عن طريق رأس أنجيليو(كان اسمها ماليا) ولم تعد هناك أية آثار لمعبد أبوللو الشهير. رأينا ذلك المساء على مرمى البصر كانديا، وهى أرض جبلية وعرة، استطعنا بسهولة تمييزها عن إيذا،

لدينا نص فيرجيل الذى يقول: كانت هناك مائة مدينة، أكبرها مدينة جنوسىوس ، التى شهدت الآلام العظيمة، كان ميتيلوس أول من غزا ذلك المكان، مكان ميلاد إلهه جوبيتر وقد وقع ذلك النص فيما بعد بين يديّ ، أو اصل السعى وراء حكاية حصار كانديا غاضبة من نفسى لأننى سأمر بكل تلك الجزر الأخرى بهذا الإحساس المسيطر علىّ، ذلك أنه من المستحيل أن تتصور أروع من هذه الرحلة لو حدثت منذ ألفين أو ثلاثة آلاف سنة، بعدما أشرب كوب شاي قريبا من مقبرة سافور ربما أذهب فى نفس الأمسية لزيارة معبد هوميروس فى كيوس وأقضى هذه الزيارة فى المعابد العظيمة، وتوصيف تلك التماثيل، وتسجيل المعجزات، وأتبادل أطراف الحديث مع أكثر البشر تهذيباً وأطيبهم خلقاً. واحسرتاه! انقرض الفن هنا ولم تبق إلا العجائب الطبيعية، وقد سعدت برؤية جبل إتنا سعادة كبيرة، الذى ينشر أضواءه وبركاته ليلاً لعدة فراسخ فى البحر، ويملاً دخانه الرأس بالآلاف التخمينات، مررنا بترينا كريا دون أن نسمع أى شىء عن السيرانة^(١) التى يصفها هوميروس، ووصلنا بأمان إلى مالطا التى كانت تسمى مليتا بسبب وفرة عسل النحل بها، وهى صخرة كبيرة مغطاة بطبقة من التراب، يعيش رئيس الفرسان هنا كأمر حاكم، لكن قوته فى البحر الآن ضئيلة جداً، والحصون حول الجزيرة أقوى تحصينات فى العالم، كلها من الحجر الصلد المصنوع بجهد وتكاليف

(١) السيرانة واحدة من مجموعة كائنات أسطورية عند الإغريق، لها رموس نساء وأجساد طيور كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك .

غير محدودة. لدى خروجنا من هذه الجزيرة اصطدنا بعاصفة شديدة، وأسعدنا ثانية قضاء ثمانية أيام فى البحر، وأن تلقى مراسينا فى بورثامارينا على الشاطئ الإفريقى، حيث ترسو الآن سفينتنا. التقينا هنا بالقنصل الإنجليزى الذى يعمل فى تونس. قبلت عن طيب خاطر دعوته لزيارة منزله والبقاء فيه لبضعة أيام، لأننى أتوق لرؤية هذا الجزء من العالم، خاصة أطلال قرطاج. خرجت فى عربته فى التاسعة مساء. كان القمر بدرًا تمامًا، رأيت البلدة كلها تقريبًا كأنها فى وضوح النهار، وحرارة الشمس هذه الأيام لا تطاق، من المستحيل التجوال فى أى وقت آخر. أغلب التربة رملية، لكنها مثمرة فى كل مكان، ومليئة بالنخيل وأشجار الزيتون والتين التى تنبت بلا عناء ومع ذلك تنتج أفضل ثمار فى العالم، وحقول الكروم، والبطيخ مطوقة بسياج من الشجيرات التى تسمى التين الهندى، وهى جميلة المنظر لا يستطيع أى حيوان اختراقها، وهى مرتفعة الأطوال شديدة الكثافة وأشواكها طويلة وحادة مثل الخناجر، وتنتج ثماراً يتغذى عليها فلاحو المنطقة، وهى طيبة المذاق.

حل الآن موسم رمضان، أو فترة الصوم. والجميع هنا يصومونه، على الأقل المسلمون، فهم يصومون حتى مغيب الشمس، ويقضون المساء فى الاستمتاع بالولائم. رأينا تحت الأشجار فى أماكن كثيرة جماعات من الفلاحين يأكلون ويغنون ويرقصون على موسيقاهم العاصفة. وهم ليسوا سود البشرة تمامًا بل سمر، وتقريباً يسировن عراة، يرتدون فقط قطعة من الصوف الخشن يلفونها حول أجسادهم،

لكن النساء يزين أجسادهن من الذراع حتى الاكتاف وأعناقهن ووجوههن بالزهور والنجوم المرصعة وغير ذلك من الأشكال المتنوعة التي يطبعونها بالبارود، ورغم أن ذلك النوع من الزينة يلقي تقديراً كبيراً بينهن إلا أنني أعتقد أنهن يعانين منه وأنه يسبب لهن ألماً كبيراً.

على مبعدة ستة أميال من تونس رأينا القناة الرائعة التي تحمل المياه إلى قرطاج فوق عدد من الجبال المرتفعة بارتفاع يصل إلى أربعين ميلاً. لاتزال بعض القناطر كما هي. قضينا ساعتين نتفحصها بانتباه شديد، وقد أكد لي مستر ورتلى أن قناطر روما أقل شأنًا منها. والأحجار هائلة الأحجام، ومع ذلك كلها مصقولة ومتلائمة أحدها مع الآخر، مع القليل جدا من الأسمنت للصقها معاً. ومن المحتمل أن تظل كما هي لألف سنة قادمة، إن لم تمتد إليها يد. بعد بزوغ الفجر مباشرة وصلنا إلى تونس وهي بلدة جميلة مبنية من الأحجار البيضاء، لكنها تخلو تماماً من الحدائق التي يقولون إنها تعرضت للخراب واقتطفت بساقيتها من الأرض على إثر دخول الأتراك إليها، ولم يبق أحد بزراعتها منذ ذلك الحين، وكان منظر الرمال الجافة مؤذياً للعين، كما تزداد الحاجة للظل بسبب شدة حرارة الطقس، كان من الصعب على احتمالها. صحيح أنه بعد الظهر ينتشى الجو بفعل نسيم البحر إلا كان من المستحيل العيش في المكان، ولا توجد مياه عذبة صالحة للشرب إلا ما يحفظونه في صهاريج من مياه الأمطار التي تسقط في شهر سبتمبر، وتخرج نساء البلدة محجبات من رؤوسهن إلى أخمص أقدامهن

فى رداء من الكريب الأسود، ولاختلاط أنسابهن يقال إن كثيرات منهن جميلات وشقراوات. فى عام ١٢٧٠ حاصر الملك لويس ملك فرنسا هذه المدينة ومات تحت جدرانها بوباء الحمى. بعد موته رفع كل من ابنه فيليب وأميرنا إوارد بأمر من الملك هنرى الثالث الحصار عنها تحت شروط مشرفة، وبقيت تحت الحكم الطبيعى للوكها الأفارقة حتى تعرضت لمؤمرات الخيانة على يد القائد البربرى الذى كان يعمل أميرالاي تحت إمرة سليمان الأكبر. طرد الإمبراطور تشارلز الخامس القائد البربرى لكن الأتراك أعادوه بأوامر سنان باشا فى عصر سليم الثانى. منذ ذلك الوقت وإلى الآن بقيت تونس تابعة للخليفة ويحكمها بيه يعتبر من رعايا الأتراك ، لكنه أعلن رفضه لتلك التبعية وحكمها حكماً مطلقاً، ومن النادر أن يدفع أية جزية. وكانت مدينة بغداد فى ذلك الوقت تمر بنفس الظروف ، ويتغاضى الخليفة عن فقد هذه الأموال خشية أن يصل الأمر لفقد تبعيتها الشككية له.

ذهبت أمس فى الصباح الباكر (بعد نوم ساعة واحدة فقط) لرؤية أطلال قرطاج. وتعرضت للمشى تحت وقدة الشمس، لكنى استمتعت بذهابى إلى واحدة من الأماكن السرية تحت الأرض ويسمونها إسطليل الأفيال، لكنى لا أعتقد إطلاقاً أنها صُممت لهذا الغرض. وجدت فى الكثير منها قطعاً محطمة من آثار أعمدة رخامية جميلة وبعض الرخام السماقى. يعجزنى التفكير أنه يمكن لأى شخص أن يتحمل معاناة حملها إلى هذا المكان، ولا أتصور أن مثل تلك الأعمدة الجميلة صُممت

لتزيين إسطنبول. أميل للاعتقاد أنها كانت أماكن إقامة صيفية تحت قصورهم، واقتضت حرارة الطقس الشديدة إقامتها تحت الأرض، والآن يستخدمها الفلاحون مخازن للقمح. عندما جلست فى ذلك المكان أتت من مدينة الخيام - والتي لا تبعد كثيرا عن المكان - كثير من نسوة تلك البلدة لرؤيتي وقد استمتعنا بمشاهدة بعضنا بعضا.

عندما انتعشت قليلاً بعد الراحة القصيرة ، وشرب بعض اللبن، وأكل الفاكهة الطازجة التى أحضروها ، لى صعدت التل الصغير حيث تقف قلعة بيرسا ، ومن هناك استطعت رؤية مدينة قرطاج الشهيرة التى تقف على برزخ من البحر يحيطها من كل جانب، وبها الآن مستنقع فى أحد جوانبها به ملاحات. وسترابون يقول إن قطر قرطاج أربعون ميلاً. لم يبق منها الآن سوى ما وصفته لك، وتاريخها معروف جيداً ولا يحتاج منى لإطالة. أنت ترى أننى أقدر الطاعة أكثر من التذمر، فقد أجبته على خطابك وقدمت لك ما طلبته منى، وعلى أن أختتم الآن. أنوى أن أغادر هذا المكان غدا وأواصل رحلتى عبر إيطاليا وفرنسا. أمل أن أخبرك من أحد هذين المكانين وأرسل لك خطاباً كل شهر.

خادمتك المطيعة.

* * *

إلى الكونتيسة —

تورين فى الثانى عشر من سبتمبر ١٧١٨

وصلت من جنوة خلال يومين، ومررت بطرق جميلة حتى وصلت إلى مكانى هذا. رأيت بالفعل كل ما يدعون الغرباء يرونه فى البلدة، وهو فى الواقع لا يستحق وصفاً خاصاً. الكنيسة جميلة وكذلك قصر الملك، لكنى رأيت مؤخراً مثل ذلك المعمار المثالى، لذلك لم أهتم كثيراً بتلك البنايات. المدينة نفسها جميلة البناء، مقامة على سهل جميل على ضفاف نهر البو. على مسافة قليلة منها رأينا قصور لافينرى ولافالانتيان وكلاهما منتجع جميل. أقمنا فى بياتزا رويال وهو واحد من أروع الميادين التى رأيتها، وحوله رواق دائرى جميل من الأحجار البيضاء، وسرعان ما زارنا الفارس شيفالى الذى سبق لك أن تعرفت عليه فى إنجلترا، وبتهذيب وكياسة شديدة رجانا أن يقدمنا فى البلاط، وتقيم الأسرة المالكة الآن فى ريفولى، على بعد فرسخ من تورين. ذهبت هناك بالأمس وحظيت بشرف المقابلة الرسمية مع الملكة، قدمتنى لها وصيفة الشرف الأولى. التقيت بها فى قائمة عظيمة مع موكب من السيدات الجميلات، كلهن يرتدين الزى الرسمى، وكان من السهل تمييز أميرة كارينجانا الجميلة بينهن. حدثتنى الملكة بكثير من الرقة والمودة وبدت سيدة على قدر كبير من الفهم والمرح. لم تنس أن تذكرنى بالدماء الإنجليزية التى تجرى فى عروقها، بل أضافت أنها دائماً تشعر داخلها بحب خاص

للإنجليز. وقابلت لطفها الشديد بتلقيبها بصاحبة الجلالة، وربما لن تشعر بتلك الحميمية التي شعرت بها لسماع ذلك اللقب لشهور طويلة. يتمتع الملك بحيوية عارمة في عينيه، وأمير بيدمونت (ولى العهد) الشاب بالغ الوسامة، لكن التقوى الشديدة التي يقع في براثنها القصر في الوقت الحالى لا تسمح له بممارسة اللهو والتسلية التي تناسب عمره الشاب. تعد المواكب والقداسات هى كل دلائل الأبهة ، هنا أما التودد للنساء فيعد جرماً شديداً، ذلك أن الكونت البائس الذى تعرفنا عليه فى لندن يعانى نبذاً شديداً. لمصارحته بعواطفه لإحدى وصيفات الشرف. أنوى المغادرة غداً والمرور بجبال الألب الوعرة، فقد سمعت عنها الكثير. إذا هبطت منها حية سأداوم على مراسلتك.

* * *

إلى السيدة ثيستيلثوايت

ليون فى الخامس والعشرين من سبتمبر ١٧١٨

لدى وصولى هنا تسلمت خطابيك الكريمين، وكذلك رسائل كثير من الأصدقاء، كانت موجهة إلىّ فى القسطنطينية ثم أرسلت هنا لى من مرسيليا، مع صديق تاجر يعيش هناك، كان يعرف أننا بصدد العودة إلى الوطن. وقد فوجئت لدى سماعى أن شقيقتى (مار) قد غادرت

إنجلترا . وأظن أن ما كتبتة لها من توريين لن يصلها، ولا أدرى إلى أين أوجه لها خطاباتي لأنى لم أعرف منها شخصياً إلى أين تسافر. وعن نفسى كنت محبوسة فى حجرتى، طريحة الفراش منذ السابع عشر من الشهر الجارى حتى أمس، كنت مصابة بحمى شديدة، حتى اعتقدت لوقت طويل أن كل أسفارى تنتهى هنا، ولم أتعجب إطلاقاً أن المتاعب التى مررت بها كان لها مثل هذا الأثر البالغ فى أول يوم من الرحلة من توريين إلى نوفاليز، مررنا بمناطق ريفية جميلة بها نباتات جميلة، وهى ثرية بما حبتها الطبيعة وما أضافت لها يد الانسان. اليوم التالى بدأنا فى صعود جبل سیتی محمولين على مقاعد صغيرة مجدولة من الأغصان معلقة فى عواميد محمولة على أكتاف الرجال، وحملت أجزاؤها على ظهور البغال .

كان المشهد الرائع للجبال المسواة بجليد أبدى، والسحب معلقة أسفل أقدامنا، وسلاسل الشلالات الكثيرة تتدفق مصطدمة بالصخور بأصواتها الهادرة، كان من الممكن أن تبعث فى سعادة نادرة لو لم يكن البرد فى ذلك المكان لا يحتمل، والأمطار الضبابية التى تسقط باستمرار مخترقة حتى الفراء السميك الذى كنت ألتف فيه ، كدت أموت من البرد قبل أن نصل إلى سفح الجبل، ولم تمض إلا ساعتان حتى حل الظلام. هذا التل، على قمته سهل رحب وبحيرة جميلة لكن الهبوط صار شديداً، ومن المدهش أن رؤية أولئك الرجال الذين يحملون العربات التى تنقل السياح يروحون ويجيئون وأقدامهم راسخة. لذلك لم أكن أخشى أن

ينكسر عنقى مثلما خشيت السقوط فى براثن المرض، وقد أثبتت الأيام صحة توقعاتى.

ويتم عبور كل الجبال الأخرى بتلك العربات الخفيفة التى يجرها الرجال وهى غزيرة الكروم والمراعى، وتعيش عليها سلاطات من أفضل الأغنام فى العالم. وبعدما دخلنا بوفوازان مباشرة واجهتنا أول بلدة فرنسية على الحدود ، ويفصل جسرهما بين هذه المملكة وبين الأراضى التى تقع تحت سيطرة آل سافوى. فى نفس الليلة وصلنا هنا فى وقت متأخر، حيث لم يكن أمامى ما أفعله سوى الاعتناء بصحتى، لا أظننى بالفعل فى خطر شديد، وقد تحدد مرضى فى احتقان بالزور. مازلت أعانى منه وأظنه سيظل ملماً بى فترة طويلة. أتوق بفارغ الصبر لرؤية الآثار القديمة لهذه المدينة الشهيرة، وأكثر توقاً لاستكمال رحلتى إلى باريس، ومن هناك أتمنى أن أكتب لك خطاباً أكثر إشراقاً مما أستطيع فى ظرفى الراحن والمرض يحاصرني بالآلمه ويضعف من همتى، ورأسى مشوشة بالكآبة من ذلك الفندق الحقيق والحجرة التى أقيم بها الملية بزجاجات وقوارير الدواء.

* * *

إلى السيد بوب

ليون فى الثامن والعشرين من سبتمبر ١٧١٨

تلقيت خطاباتك ووجب علىّ أن أشكرك على سرورك بخبر عودتى، ولكنى بالكاد أمتنع نفسى من الغضب لحبورك لشىء يسبب لى كثيراً من الأسى. قد ترى فى ذلك تدمراً غير مبرر من جانبى، لكن أؤكد لك ابتهاجى من ناحية أخرى لرؤية أصدقائى، لكنها بهجة يكرها تفكيرى أن علىّ أن أرى وأسمع ألف موضوع غير مستساغ ولا علاقة له بغيره من الموضوعات، علىّ كذلك أن أستقبل وأرد زيارات ومجاملات ودعوات شأى بينما يقتلوننى بالأسئلة، من ناحية أخرى أنا كائن عاجز عن تقديم أى شىء للآخرين إلا تفاهات الأمنيات الطيبة وأن حضورى ليس أمراً طيباً بالضرورة لأى فرد من مواطنىّ، أعتقد ربما من الأفضل لى البقاء فى مكان يسوده السلام والهدوء ليمنح حياتى المملة بعض السعادة، ومن المؤكد أننى سأتشعر بالكآبة إذا واصلت الكتابة فى هذا الموضوع سطرًا واحدًا. بل بالحرى أن أملاً ما تبقى من هذه الصفحة بالكتابة المنقوشة على الألواح النحاسية على جانبى مقر البلدية هنا.

رأيت أيضاً خارج بوابة كنيسة القديس جوستين بعض آثار قناة رومانية، ووراء دير القديسة ماريّا، عثرنا على أطلال القصر الإمبراطورى الذى ولد فيه الإمبراطور كلودياس وعاش فيه سيفروس. وتعد كاتدرائية القديس جون الكبيرة بناءً قوطياً رائعاً، والألمان يظهر

إعجاباً شديداً بالساعة الموجودة بها. وفى أحد أجزاء البلدة الأكثر شهرة يتصب تمثال الملك الراحل متعالياً على البشر. لا يمكننى أن أتفوه بكلمة واحدة هنا عن التماثيل الفرنسية لأنى لا أنوى إطلاقاً ذكر أى واحد منها بالباروكية الذهبية المحشوة. إذا كان مقصد مليكهم التعبير من خلال هذه الأشكال عن تجاهل الذوق السليم والعجرفة ، فإن تمثاله هو نفسه هناك لإظهار ذلك المزيج الغريب من صورة لعاشق عجوز تعترية الرغبة أن يصبح بطلاً بهذا الكم من الشعر المجعد على رأسه والصولجان المذهب فى يده. لقد وضع الفرنسيون بصمات مؤثرة فى تاريخ هذه المدينة، لا حاجة بى للتعليق بشئ فى هذا الصدد. المنازل جيدة المعمار بدرجة معقولة وحدائق بل كور مزروعة على أكمل وجه، ومن هنا يمكنك الاستمتاع برؤية نهر الرون والسفن تسير على سطحه فى صورة جميلة، كان لدى من الوقت ما سمح لى برؤية كل ما يستحق المشاهدة بروية لإصابتي بتورم فى حلقى وأثار الحمى التى نتجت عن إصابتي بالبرد فى جبال الألب مما جعلنى حبيسة هذه البلدة عدة أيام. هددنى الأطباء هنا (المفتونون بزبونة جديدة) بكل أنواع الأمراض إذا تجاسرت وغادرتهم قبل أن يتلاشى هذا الورم، لكنى كما تعرفنى على عنادى فكرت أنه من الممكن أن أواصل طريقى إلى باريس قبل شفائي منه كأننى أعبر شوارع ليون وقررت مواصلة رحلتى غداً، على الرغم من تقارير الأطباء واحتقان حلقى.

عندما تلتقى بالليدى ريتش أخبرها أننى تسلمت خطابها وأننى سأرد عليها من باريس لاعتقادی أنه المكان الذى ترغب كثيراً فى سماع الحكايات عنه.

* * *

إلى الليدى ريتش باريس فى العاشر من أكتوبر ١٧١٨

لايمكننى أن أقدم لسيدتى العزيزة الليدى ريتش برهاناً على سعادتى بالكتابة إليها أكثر من اختياري للجلوس للكتابة لك، تاركة ما عدا ذلك من كل أنواع المتع المتاحة لى ؛ مثل كم الزيارات الكثيرة المفعمة بأشكال من الحيوية والمجاملة وهو شغل للوقت يكفى للإصغاء سواء اقتضى منى الحديث والرد أم لا. زوجة السفير الفرنسى فى القسطنطينية لديها هنا عائلة محترمة وكبيرة العدد وجميعهم يأتون لزيارتى ولا يكفون عن الاستفسار عن قريبتهم. وقد أثر علىّ جو باريس تأثيراً طيباً وتحسنت صحتى جداً، ولم أكن بصحة جيدة بمثل هذه الدرجة من قبل برغم أننى كنت مريضة تماماً طوال الرحلة من ليون إلى هنا. ربما تفكرين أن الرحلة كانت طيبة مما لا يدعنى بحاجة لإضافة ما يجعلنى أكرهها. لا أعتقد أن فى الوجود شيئاً أكثر رعباً

من البؤس، إلا إذا أولى المرء القدرة على إغاثته، وكل قرى فرنسا لا تقدم شيئاً سوى هذا البؤس. عند تغيير جياذ البريد يخرج أهل البلدة جميعاً يتسولون بوجوههم التى تنم عن البؤس والجوع، وملابسهم الرثة البالية، وهم ليسوا فى حاجة لتعبير أكثر فصاحة عن حالتهم البائسة أكثر من مظهرهم هذا الذى يجعل المرء يرثى لحالهم. هذه هى كل عظمة فرنسا حتى تصلين إلى فونتنبلو. هناك يبدأ المرء فى إدراك مدى ثراء المملكة، عندما تشاهدين قصر الصيد الخاص بالملك وبه ألف وخمسمائة حجرة. والأجنحة الخاصة بالعائلة الملكية كبيرة جداً، ومطلية بالطلاء الذهبى برفاهية، لكنى لم أر فى العمارة أو النحت ما يستحق الذكر. قاعة العرض التى بناها هنرى الرابع بها صور لكل الأسر المالكة. وجدرانها مصممة على نوق تلك الأيام الخوالى، ويبدو مقارنة مع العصر الحالى شديد التواضع، والأرض الملحقة بالقصر فى الحقيقة رائعة التشجير والرى، فالأشجار جيدة الزرع وجيدة النمو والبريكات التى يربون فيها السمك مليئة بسمك الشبوط، يقال إن بعضها له من العمر ثمانون عاماً. والملك الأخير كان يقضى بضعة شهور من كل عام هنا، وكل الأحجار المحيطة بالقصر منقوشة بالعبارات الدينية تعبر عن مدى التقوى والورع الذى كان يعيشه ذلك الملك، وأعتقد أنه انتهى بوفاته، فعلى الأقل لم أر أية علامات لمظاهر هذه التقوى فى باريس، حيث يبدو أن الناس جميعاً قد انصب اهتمامهم على الاستمتاع بال لحظة الراهنة.

هذه الأيام يقام مولد سانت لورانس. ولك أن تعلمي أنهم حملوني إلى هناك حملاً، وأعتقد أنه أفضل من سوق بارثليمو عندنا، فالمتاجر كلها تصطف في صفوف مرتبة وإضاعتها جيدة، ومنظر متع للعين، لكني لم أعجب إطلاقاً بعروض مهرجهم ، ولا حتى موسيقى الأوبرا التي يقدمونها التي كانت بالنسبة لى شبه صرير الباب المزعج، بعدما استمعت للأوبرا فى إيطاليا، ومسرح الأوبرا لديهم شبيه بسقيفة ماشية مقارنة بمسرح الأوبرا فى هاى ماركت ، أما المسرح العادى فليس نظيفاً كمثيله فى لينكولن، ومع ذلك لا مناص من الاعتراف أن تراجيدياتهم تفوق ما لدينا بكثير. لقد شاهدت تراجيديا بايزيد وكانت رائعة العرض، ويمكننى أن أقول إن أفضل ممثلينا بالنسبة لممثليهم يعتبرون مجرد ناطقين للحوار، أما ممثلوهم فيؤدون أعنف المشاعر وأرقاها، ومن المؤكد أن المرء تثار مشاعره لرؤية شخص تعيس ، أكثر من سماعه يحكى عن بؤسه بوجه مبتهج ومرح مفتعلاً ابتسامة غبية على قسماته، مشروع ابتسامة، أريد أن أحكى لك شيئاً عن السيدات الفرنسيات، لقد رأيت كل جميلاتهم ويا لهن من — (لا يمكنى استخدام اللفظ المناسب) إنهن مخلوقات مقرفة ، مبالغات جدا فى أثوابهن، ألوانها مبهرجة بشعة، وشعورهن قصيرة ومجعدة حول وجوههن، مفعمات بالمساحيق، ويبدون مثل الصوف الأبيض، ومن الوجنة حتى الذقن يضعن طلاءً أحمر لامعاً بلا رحمة يبرق بتوهج، مما يجعلهن بعيدات كل البعد عن شكل الوجه الإنسانى ، وأميل للاعتقاد أنهم

يستلهمن طراز ملابسهن من شاة موسومة باللون الأحمر فى سوق الغنم. من دواعى سرورى أن أتذكر عزيزاتى الريفيات، وإن كان على أن أكتب إلى أى شخص سواك لكان جرى بالذكر أن أقول إن تلك الكائنات الشبيهة بلوحات الكاريكاتير أكدت لى تقييمى الراسخ للسحر الطبيعى لسيدتى العزيزة ، ولشعرها الأسمر وبشرتها الوردية الصافية بطبيعتها. التقيت هنا بالأب كونتى، ورغب أن أبلغك تحياته.

* * *

إلى السيدة ثيسيلثوايت

باريس فى السادس عشر من أكتوبر ١٧١٨

ها أنا ذا أكتب لك من باريس كما وعدت ، حيث فوجئت برؤية شقيقتى مار، لا أريد أن أضيف لك عن مدى سعادتى وسرورى برؤيتها، وهى أيضا لم تكن تتوقع رؤيتى (لأنها لم تتسلم رسالتى الأخيرة) وكان من المفترض أن أصف لك هذا اللقاء كما يفعل مستر دى سكودرى (*)، لكنى لن أقلد أسلوبه لدرجة بعيدة إلا لأقول لك كيف تعانقنا وإلى أى درجة تعجبت للصدفة الغريبة لعودتى من القسطنطينية فأجبتها بسؤالى

(*) مستر دى سكودرى : مؤلف فرنسى .

إياها أية مفامرة حدث بها إلى باريس ؟ وباختصار، كل الأسئلة والإجابات وأمارات التعجب والمجاملات انتهت باتفاقنا أن نسرع بالتجوال معاً، رأينا فرساي ، وتريانون وماري ، وكنيسة سانت كلود. واستصدرت أمراً بإغلاق النوافذ في فرساي خصيصاً لنا وتبعنا كل الإنجليز المقيمون في باريس إلى هناك. أعترف أن فرساي بدت لي أكثر من جميلة على الرغم من عدم انتظام مبانيها .

خزانة الملك مزودة بالانتيكات والميداليات بثراء فاحش، وبين كل المعروضات لم يلفت انتباهي ويسر ناظري شيء مثل التحفة الألمانية المصنوعة من ذلك النوع من أحجار العقيق الكبيرة ، وتعد واحدة من أدق التحف التي أذكر أنني رأيتها. لاحظت بعض التماثيل القديمة القيمة لكن التملق المقرف وريشة لو برون التي تخلو من الذوق السليم يمثلان منافاة للذوق في ذلك العرض. لن أزعج أنني قادرة أن أصف لك ذلك الجناح الكبير والتشكيلة الكبيرة من النافورات، والمسرح ويستان خرافات إيسوب، وغير ذلك . . . فمؤكد أنك قرأت عنها لكتاب فرنسيين حصلوا على ثمن هذه الشروح والأوصاف. وسرتني حدائق تريانورغم صغر حجمها أكثر من فرساي، أما مارلي فهي أجمل من «ثنتين» وسانت كلود أفضل الجميع ويتميز بنهر السين في حدائقها ويتدفق في شلال عمودي. قد تجددين شرحاً لذلك في الكتب التي ذكرتها لك من قبل إن شئت معرفة التفاصيل ، وكم قدم يرتفع الماء وإلى أي عمق يتدفق.

رأينا لوحات الملك فى منزل دوق دانتيان الفخم الذى اهتم بالحفاظ عليها حتى يصل جلالته لسن الرشده. عددها متواضع لكنها من رسم خيرة الفنانين. تطلعت بسعادة بالغة إلى لوحة الملك لرافيل والتى عبّرت عن رقة مشاعر الكائنات الفوقية كما كتب عنها ميلتون تماماً. إن تغفري لى إذا أغفلت الحديث عن حدائق التويلرى فهى أكثر روعة من حدائق القصر الملكى فى لندن ، وطرقاته ممهدة ولطيفة ، وأكثر تناسقاً من حديقة هايدبارك لدينا ، وأشجاره العالية تمد ظلالها فى أقسى درجات الحرارة ارتفاعاً. فى قصر اللوفر حظيت بفرصة رؤية الملك بصحبة الدوق الوصى، إنه طويل القامة جميل الطلعة لكنه لا يتمتع بمظهر رجل قد يحمل التاج لسنين طويلة مثل جده. والآن سأحدثك عن البلاط الملكى، ولابد أن أقول إننى لم أر شيئاً فى فرنسا أسعدنى بقدر رؤية رجل إنجليزى (على الأقل) حاكماً بأمره فى باريس، وأعنى بذلك المستر (ل) الذى يعالج دوقاتهم ونبلاهم من أعلى لأسفل ويتلقى منهم أعلى درجات الخضوع والاستسلام. يا للأرواح البائسة ، هذا الوضع من عبوديتهم الذليلة جعلنى أفكر فى ميادين النصر (كما يسمونها) لكنى لن أضيع وقتك ولا وقتى فى مثل هذه الحكايات لأنها متداولة بوفرة.

بشكل عام أعتقد أن باريس تفوق لندن بأرصفتها النظيفة والإضاءة المستقرة المنتظمة ليلاً ، وتناسب الشوارع، والمنازل كلها مبنية من الأحجار ، ومعظمها يخص أفراداً من الطبقات الراقية، وهى محاطة بالحدائق. لكننا من المؤكد نتباهى بمدينة تكاد تصل إلى رقعة

مدينتين من شدة اتساعها وكبر حجمها، وعندما قلت ذلك كنت أعرف أنه ليس فيها شيء يتجاوز مدنتنا. لن أطيل الآن ، وإذا كان لك أى طلب منى خلال إقامتى القصيرة هنا أكتبى لى بسرعة ويسعدنى جدا تلبية طلباتك.

* * *

إلى السيد بوب السادس عشر من أكتوبر

لقد كنت أسارع الخطو فى طرقات باريس الغريبة ومناظرها العجيبة بصحبة شقيقتى، فهى على الأقل مناظر عجيبة بالنسبة لى بعد اعتيادى على وقار ورزانة الأتراك، أنظر بدهشة ولا تبدو على سماتى علامات الارتياح والألفة لدى رؤيتى لخفة ورشاقة تلك الأطياف المحلقة التى ترقص حولى هنا، وغالباً يعترينى شعور أنى أشهد عرضاً للعرائس المتحركة يتخلله أشكال من الحياة الواقعية. أصدق مشدوهة لكن لا أحد يلحظ ذلك أو يعلق عليه، لأن الجميع هنا يحدقون هكذا، فيبدو التحديق شيئاً على سبيل المودة. هناك تحديق كنوع من الانتباه ، وتحديق من أثر المفاجأة، وسيسعدك كثيراً أن ترى تفاهة الأمور التى تدفع الناس لهذا التحديق. كان من الأفضل أن يحدث بسبب أمور أكثر أهمية، لا تطفه

أو تخفف من حدته الابتسامات العريضة لأن التحديق فى النهاية يدفعك للابتسام، ومن الشائع جداً رؤيتك لابتسامة نبيل من وجهاء القوم لدى دخوله للمكان، أو دخول سيدة إلى حجرة وهى تبتسم تعبيراً عن المجاملة أو القبول الاجتماعى، لكنها فى الحقيقة لا تظهر أكثر من التواء عضلات معينة فى وجهها تجعل الغريب يضحك ملء شذقيه لأن ابتساماتهم مفتعلة. الابتسامة العريضة الفرنسية تبعد كل البعد عن ابتسامة الود والترحيب وإمارات المرح الودود التابعة من القلب لشخص إنجليزى يقهقه من غير افتعال. أظن أن بقائى هنا لن يطول بدرجة كافية لتكوين فكرة عادلة عن أنماط الفرنسيين وشخصياتهم، إلا أن الأمر فى نظرى لا يتطلب كثيراً من الدرس ؛ فالأمور ليست بهذا العمق كما يبدو من النظرة السطحية، إنهم قوم عابثون قلقون، ومع ذلك متناغمون. يقول لى الأب كونتى إن المرأة هنا تشكل شخصية الرجل ، وأنا مقتنعة بهذا الرأى من خلال كل مكان دخلته وكل من لقيتهم. لا يبدو هنا أن ثمة وسطاً بين الطفولة والرجولة، لأنه بمجرد ما يتخلص الصبى من المشاية التى تساعد على السير يتلطف على العالم ، والسيدات هن اللاتى يتولين إرشاده ويكون لديه الانطباعات الأولى ، والتى تظل غالباً مغروسة داخله وهن يجعلن من الرجال أشخاصاً محط سخريتهن عندما يجعلونهم يقلدونهن فى المزاح والخفة، لذلك تجد الوقار والزناة فى التصرفات أمراً نادراً قبل بلوغ الستين من العمر. ألم يتحدث الملك داود

فى مزاميره عن الرجل الذى يجلس فى مجلس المستهزئين؟ أظنه تحدث عن ذلك، وأنا واثقة أن هذا ينطبق تماما على الفرنسيين - لكنهم يسكرون بسعادة ويبدو أنهم يستمتعون بالمنظر ، ومع ذلك لا يمكن اعتبارهم أكثر سعادة من بعض كتابنا الكبار، الذين يقطبون حواجبهم بشدة ، والذين لا تعدو حكمتهم أن تكون غالباً مغطاة بعباءة مضربة من الكآبة والغموض.

الشيء الذى أسعدنى هنا هو منظر الأبهة المصحوبة بنوق سليم، وذلك يسود قصور وحدائق الملك ، إلا أن الهندسة المعمارية لم ترقنى كثيراً بسبب عدم التناسق، وخلوها من تناغم النسب إلا فيما يتعلق بنحت التماثيل وغيرها من أمور الديكور التى أبهجتنى كثيراً.

أثار دهشتى فى حدائق فرساي تماثيل قديم ضخم للإله جوبيتر، من صنع مايرون، حملته مارك أنطونى من ساموس وأمر أغسطس بوضعه هنا فى هذه الحديقة. وهو من الرخام الفارسى، ورغم تعرضه لعوامل الزمن ما يزال يحتفظ بخطوط ملكية مذهشة. لكن المؤكد لو أن الرخام يشعر فإن ذلك الإله يفور غضباً الآن عندما يرى نفسه ينتقل من العاصمة إلى حديقة فرنسية ، وبعد تلقيه كل هذه الحفاوة من الأباطرة الرومان الذين خلعوا أكاليهم من على رؤوسهم ووضعوها تحت قدميه لدى عودتهم من غزواتهم، ليقف الآن فى إهمال لا يتطالع إليه أحد إلا الشباب الذين يجعلون شعورهم بالمكواة.

أعتزم مغادرة هذا المكان بأسرع ما أستطيع، فلا تتوقع منى المزيد من الخطابات من هذه الضفة، بالإضافة لذلك أنا على عجلة شديدة من أمرى ورأسى تسبح فى أماكن شتى كثيرة جدا، أرانى مضطرة أن أراها بتعجل ، وقصر الوقت المتاح لى لا يسمح لى بفحصها بدقة. هنا توجد بوفرة غزيرة أعمال الزخرفة والديكور وهى على النقيض تماما مما يبدو فى الحدائق الملكية، هذه الوفرة ترجع إلى حيوية وتقلب الذوق الفرنسى الذى يركض وراء كل جديد، وعلى هذا يكومون الزخارف فوق الزخارف بلا نهاية ولا مقاييس. حان الوقت على أى حال لأنهى خطابى، لذلك أتمنى لك ليلة سعيدة .

* * *

إلى الأب كونتى

دوفر فى الحادى والثلاثين من أكتوبر ١٧١٨

دعنى أقل لك إننى صدقت كل ما قلته لى ، ويسعدنى أن أخبرك بأسرع ما أستطيع عن عبورى أمنة. وصلت هذا الصباح دوفر بعدما تقاذفتنا الأمواج طوال الليل فى سفينة بريد منتظمة ، وكان الإبحار أمراً شديداً الصعوبة ؛ لدرجة أن الربان الذى يعمل عليها مدركاً لضعفها رأى أنه من دواعى الحرص والأمان أن يلقى بالبريد فى البحر، ونوه لنا عن

مدى الخطر لسفرنا به. فطلبنا قارب صيد أصغر منه حجماً ، بالكاد أكملنا رحلتنا به، بينما كان كل الذين على متن ذلك القارب يرفعون للسماء دعواتهم بالنجاة، ومن الصعب أن يتخيل المرء مشهداً أكثر رعباً من ذلك الحدث، ومع ذلك أعترف لك أنتى لم أرغب إطلاقاً أن أموت غريقة ، لكنى لم أستطع منع نفسى من الشعور بالتسلية لإدراكى الخطر المزدوج الذى أحاط بإحدى المسافرات معنا. كانت سيدة إنجليزية التقيت بها فى كاليه ، رغبت أن تشاركنى قمرتى فى السفينة. كانت قد اشتريت غطاء رأس بأشرطة جميلة وتريد إخفاءه من الجمارك ، عندما اشتدت الريح وبدأت الأمواج تتقاذف مركبنا الصغير، راحت تتلو صلواتها من أعماق قلبها، وحصرت تفكيرها فى إنقاذ روحها. عندما بدأت حدة الأمواج تخف عادت للاهتمام بأمر الدنيا ويغطاء رأسها وقدمت نفسها لى قائلة : "سيدتى هل لك أن تهتمى بغطاء رأسى؟ حتى لا يضيع منى! - أه، يا إلهى، سنضيع كلنا؟ الرب يرحمنى وينقذ روحى ! أرجوك يا سيدتى اهتمى بغطاء الرأس هذا" هذا الانتقال السهل من أمور الروح إلى أمر غطاء الرأس، ونوبة التغيير المفاجئة التى انتابتها جعلت من الصعب تحديد أى الأمرين يمثل لها القيمة الأكبر. لكن على أى حال لم يكن المشهد مسلياً، إنما كان من دواعى سرورى التخلص منها بالقفز إلى القارب الصغير، على الرغم من تعرضى لكسر عنقى. وحتى الآن لم يحدث لى شئ وأنا على مايرام، لكنى لا أفصح فى التخلص من التحيز. ومن المؤكد أن الانحياز الوطنى،

يفطر المرء عليه طبيعياً، فيحول دون ودونه التجوال الذى يتيح لديه التطلع لمعرفة نون استمتاع. وكل ما نجنيه من منافع هو رغبة عقيمة لخلط مختلف المسرات ، وفرص الراحة والمنافع التى يجدها المرء فى بقاع العالم المختلفة ، والتى لا يمكن أن يجمعها كلها فى مكان واحد. بعد قراءة كل هذا فى لغات أنا أستاذة فيها، وضعف بصرى من جراء الانكباب على قراعتها ودرسها فى أنصاف الليالى، تجدنى أحسد سلام العقل البسيط الذى تعيشه عاملة فى مصنع ألبان تتمتع ببشرة متوردة، ولا تزعج نفسها بأمر غريبة يتحاور فيها المدرسون وهى تصفى فى تبثل لعظات يوم الأحد، ولا تزعج عقلها بتشوش أفكارها فيما يتعلق بواجباتها الطبيعية التى تأتئها من أسئلة المتعلمين العقيمة والذين قد يكونون أكثر علماً لكنهم فى نهاية الأمر لابد أن يظلوا على جهل، وبعد رؤية جزء من آسيا وأفريقيا وتقريباً جولة فى أوروبا ، أعتقد أن السيد مالك الأرض فى الريف الإنجليزى سعيد بيقينه أن الخمور اليونانية أقل شهية من جعة مارس، وأن الفواكه الأفريقية ليس لها ذلك الطعم الرائع الذى يتميز به التفاح الذهبى، وأن طعم أى طبق إيطالى لا يضارع مذاق قطعة لحم من كفل بقرة، وباختصار ليست هناك متعة مثالية فى هذه الحياة خارج إنجلترا العريضة. أرجو من الله أن يظل تفكيرى على هذا المنوال ما تبقى من عمري، ولأنى مضطرة أن أرضى بالقليل المتاح من ضوء النهار، ربما على أن أنسى شمس القسطنطينية المفعمة بالحياة.

المتجمة فى سطور

إيزابيل كمال

شاعرة ، ليسانس أداب قسم لغة إنجليزية ، دبلوم الأدب المقارن .

لها العديد من الكتب المترجمة صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة منها كتاب "القصص التى يحكيها الأطفال"، وقد حصل هذا الكتاب على جائزة الدولة التشجيعية .

وصدر لها كتب مترجمة عن الهيئة العامة للكتاب، آخرها مجموعة قصص لهانز أندرسون، والقلعة البيضاء لأورهان باموق ، كما صدر لها كتب مترجمة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة .

صدر لها حديثاً ديوان شعر بعنوان « دراما دراما العتبات » عن الهيئة العامة لقصور الثقافة .

المراجعة فى سطور

أ.د. فاطمة موسى

- أكاديمية وناقذة ومترجمة .

- حاصلة على الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٥٧ برسالة
موضوعها "الحكاية الشرقية فى الأدب الإنجليزى ١٧٨٦ -
١٨٧٤ .

- رئيسة قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة (١٩٧٢ - ١٩٧٨)
- مقرر لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

- من مؤلفاتها باللغة العربية : بين أدبين : دراسات فى الأدب
العربى والإنجليزى (١٩٦٥) - وليم شكسبير شاعر المسرح
(١٩٦٩) - فى الرواية العربية المعاصرة (١٩٧٢) - مسيرة
الأدب الإنجليزى للقارئ العربى (١٩٩٧) نجيب محفوظ وتطور
الرواية العربية (١٩٩٩) - سحر الرواية (٢٠٠٠) ، ومن
مؤلفاتها بالإنجليزية : سسير وليم جونز والرومانتيكيون
(١٩٦٠) - الرواية العربية فى مصر من ١٩١٤ إلى
١٩٧٠ (١٩٧٠) ، ولها أكثر من ثلاثين بحثًا بالإنجليزية عن
موضوعات مختلفة ، ومن أشهر ترجماتها : رواية نجيب محفوظ
"ميرامار" (١٩٧٨) ومسرحية "الملك لير" لشكسبير (١٩٦٨) ،

كما أشرفت على إصدار خمسة أجزاء من قاموس المسرح
(الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٩٦ : ١٩٩٩ .

- حاصلة على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب (١٩٩٨) .

المؤلفة فى سطور

ليدى مارى ورتلى مونتجو

كانت الكاتبة فى السابعة والعشرين من عمرها عندما رحلت مع زوجها أول سفير لبريطانيا لدى الباب العالى ، أرسقراطية جميلة مثقفة من أسرة من النبلاء - توفيت عنها أمها فى طفولتها ، وعاشت فى كنف أبيها الدوق الذى أطلق لها العنان فى مكتبته العامرة ؛ فحصلت من المعارف ما لا يتاح عادة للنساء فى عصرها ، قرأت ملاحم هوميروس وفيرجيل وتاريخ الأقدمين وحروبهم وفتوحاتهم .

لم تطبع رسائل ليدى مارى مباشرة بعد عودتها ، وأضافت إليها عدداً جديداً من الرسائل ، وتم تداولها على نطاق واسع فى حياتها ، إلا أن مجموعة رسائلها لم تطبع إلا بعد وفاتها .

كانت قد سلمتها إلى نشار فى هولندا إلا أن زوج ابنتها لورد بيوت استعادها منه ، وظهرت طبعات متعددة بعد ذلك لم تعتمد على الأسرة ، أحرقت ابنة ليدى بيوت اليوميات والمذكرات التى خلفتها أمها إلى جانب بعض الرسائل ، لأن "يها ما قد يسىء إلى عدد من الشخصيات البارزة فى عصرها " .

صدرت الرسائل فى طبعات لم تعتمد على الأسرة فى القرن الثامن عشر ، حتى صدرت لها طبعة شاملة عام ١٨٣٧ مأخوذة من وثائق الأسرة تحوى حسب العنوان :

In droductory Anecdotes by Lady Bute's Dagughter, Lady Louisa Stuart
اعتمدت مكتبة Everyman على تلك الطبعة الأخيرة عندما ضمت رسائل
ليدى مارى إلى قوائمها ١٩٠٦.

التصحيح اللغوى : مسعود حجازى

الإشراف الفنى : حسن كامل